

بِفِرْعَوْنَ عَطَار



المفاتيح

١٣٦٦
١٩٤٤

99-53776
put Aug 12/12



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

مع التحية والتقدير الى
السيد الذي اقرض بصدقة واشرف

بمودة و
المؤلف
محمد

٢٦٨/٧/٢٥
١٩٤٩/٥/٢٤

احمد عبدالغفور عطار

PJ
7503
A88
1947

المفاتيح

مكتبة استاذ للطباعة

OCLC
60506284

B12313762
13628756

٥٠٠/٧/١٥٧

٤٠٠/٥/١٣١١

منهون الطبع محفوظة

٣٦٦ هـ — ٩٤٧ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذي جاء به الهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة

والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذي جاء به الهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة

والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذي جاء به الهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة
والهدى والرحمة

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

قانون البيع كبريا

١١٧ - ١١٨

المادة ١١٧

مقدمة

هذه فصول في الأدب والنقد نشر أكثرها في صحف الحجاز وبعضها في صحف مصر ، ومعظمها قديم ، ورأيت جمعها ونشرها لأنها إلا تدل على تطور الأدب في الحجاز فإنما تدل على تطوري أنا نفسي ، وفي الوقت نفسه تسجيل للأدب الجديد في البلاد المقدسة .

وعمر الأدب في الحجاز لا يبلغ خمسا وعشرين سنة ، بل يبلغ عمر الأدب الصحيح عشر سنين ، وإنما بدأ كمحاولات في آخر أيام الملك الحسين ، وقد نجحت المحاولات في زمن صقر الجزيرة حتى كان هذا الأدب الجديد الذي نقرؤه . وليس الأدب الحجازي المنشور كله جيدا ، بل الجيد قليل ، غير أن في الحجاز أدباء وشعراء يستحقون التقدير والإعجاب لأنهم استطاعوا أن ينتجوا أدبا قويا وشعرا رفيعا ، ولكن عددهم قليل .

غير أن النشاط الذي دب في هؤلاء الأدباء عقب الحرب يبشر بأن الأدب الحجازي الجديد سيأخذ نصيبه من الشهرة والذيع ؛ ولو وجدوا وسائل النشر الميسرة لأدباء الأقطار الأخرى لما كانوا مجهولين ، ولو عرف القراء حياة الحجاز الأدبية ومدى نهضة الشعر في البلاد التي أمدت العالم بجديد الحضارات وأجمل الآداب .

محمد عبد الفتاح عطار

مكة المكرمة : ١٣٦٦ هـ

مقدمة

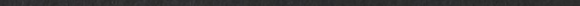
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
 ربنا رب السموات والأرض ورب العرش العظيم
 الحمد لله رب العالمين
 هذه رسالة مختصرة في بيان بعض أسرار
 الدين والدار الآخرة
 تأليف الشيخ محمد باقر
 في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٥
 في مدينة كركوك

١٢٠٥ هـ

المقدمة

311 311 14

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الديفء

إلى الأمير العظيم الذي أحاط الأدب والأدباء برعايته وتشجيعه .
إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل أقدم هذا
الكتاب ؟

القاهرة : ١٣٦٦ هـ

أحمد عبد الغفور غطار

الحضارة الحديثة

أتسير في طريقها إلى الاضمحلال ؟ !

تمر بالأمم والأفراد الحضارات على اختلاف الأنواع أدوار ثلاثة متعاقبة وهي: النشوء والبلوغ والارتقاء ، وهذا القانون يسرى على كل كائن حي وما ينزل منزلته في جميع الأحوال ، غير أن ما بين هذه الأدوار من المدى يختلف طويلاً وقصراً باختلاف الوقت والبيئة والقوة ، فتارة يمتد دور البلوغ امتداداً عظيماً وتارة يقصر .

وقد اطلعنا على تاريخ بعض الحضارات المندثرة الغابرة كالاشورية والبابلية والفرعونية والأغريقية والرومانية والفارسية والعربية فالفينا أن لها أعماراً تكاد تكون محدودة حتى إذا أتى أجلها مضت ليحل محلها غيرها ، غير أنه قبل أن يقضى عليها بالفناء تتقدمها عوامل ضعف وأعراض مرض ثم تضمحل .

ودليلنا على هذا أن تلك الحضارات التي بقيت أسماؤها وصورها وهياكلها لم تخلد بل أتى عليها الفناء فأبادها وقضى عليها ، بيد أن بعض تلك الحضارات المندثرة قامت على انقاضها حضارات أخرى جديدة ثم اضمحلت هذه وحلت محلها حضارات غيرها ، وهذه هي سنة الكون والحياة

إن في زى (١) الحضارات حكمة جد سامية فالحضارة التي تعيش اجيالاً كثيرة وينعم أصحابها في ظل الطمأنينة والرخاء تتنبه فيهم غرائز الخمول والجود والكسل ، ويعتقدون أنهم قد بلغوا أوج الكمال فتموت في نفوسهم النزعات القوية إلى العمل والابتكار والانشاء .

وهل بعد الكمال للانسان مطمح أو مطمع ؟

قد بلغ الكمال فهل بعده شيء يصبو اليه ؟

(١) زى : مصدر زوى يزوى

وهنا ينهض بقاء الأصلح للقيام بعمله فيسلط على الحضارة عوامل الفناء وتقوم الحياة نفسها بحركة التجديد المستمر فتقضى على القديم وتعين الجديد على النهوض والبقاء .

وليس هذا إلا ضماناً للحياة الجديدة والعمل الدائم ، فلو لم يكن من سنة الحياة الفناء والزوال ثم الوجود والعمران من جديد لما وجدنا لها قيمة أبداً ، لأن الشيء إذا كان على وتيرة واحدة يصبح مبدولاً لا شأن له ولكن إذا تغيرت المناظر والأخلاق والطبائع ، فقد ضمنت الحياة لنفسها البقاء . وهى فى سبيل بقائها تسمح لنفسها بتناول كل شيء تراه غذاء صالحاً لها ولكنها تلد بعد هذا شيئاً جديداً يأخذ نصيبه فى الوجود ثم يفنى وهكذا دواليك .

وإذا نظرنا إلى الحضارات السابقة وجدناها مزدهرة أيما ازدهار وكانت فى بعض نواحيها أمتن وأقوى وأسمى من الحضارة الحديثة ، وقد بقيت لنا آثار تنطق بخلودها وترمز إلى ازدهارها ، وعلى ضوء هذه الآثار استطاع العلماء والباحثون دراسة الحضارات المضمحلة والتوصل إلى فهم عادات أهلها وأفكارهم ونزعاتهم فى تلك الأزمنة السالفة ، وقد بقي الشيء الكثير من الثروة الفكرية ترمز إلى الحضارات الروحية إلى وقتنا هذا فى حين أن انمحت المعالم المادية ولا يزال التراث الروحي من الحضارة اليونانية القديمة حياً له قيمته وشأنه يقف الفكر والقلب أمامه خاشعين .

إن الحياة قد التهمت الحضارات السابقة واحدة بعد الأخرى ، ولكنها هضمتها ثم صبت في قوالب جديدة ، وألقت بها إلى التطور ليطبق نظامه عليها ، وهذه هى قاعدة الحياة وسنيتها .

يعرف الباحثون الأفاضل الحضارات الغابرة وما كان لها من قيمة وعظمة ومجد ويعرفون الأسباب التي قضت عليها بعد أن أخذت نصيبها من الحياة . . . ويحدد احد العلماء أعمار الحضارات تحديداً يكاد يكون مطابقاً للواقع وهو العالم الاجتماعى الكبير

« بلا كنيهم » فطبق عليها نظرية السبعية أى تحديد عمر كل حضارة بسبعة قرون
وذكر أسماء تلك الحضارات كالحضارة العربية والرومانية مؤيداً رأيه بالتاريخ
الصحيح ، فلا بد ان ينفذ هذا النظام على الحضارة الحديثة أيضاً ، ولا بد أن تلتهما
الحياة لتلد حضارة جديدة أخرى تبنى على أساس جديد من الروح والفكر ولا يمكننا
أن نقول إن الحضارة الآتية المستقبلية سوف تكون أكثر ازدهاراً من هذه الحضارة
الحديثة ، لأن الانسان لا يستطيع اصدار حكمه على شيء مجهول آت مهما تكونت
له الأسباب والموازن والأقيسة .

ومن الغريب ان يتنبأ الكاتب الانجليزى الشهير « ولز » بأن الحياة الانسانية
والحضارة فى المستقبل سوف تتبدل تبديلاً عظيماً عن الحاضر ، وهذا حق ، غير انه
جعل التبدل يسير الى الامام متقدماً اشواطاً بعيدة على هذه الحضارة الحديثة لأن
التطور سوف يرقى بهما الى ذروة الكمال .

ومن جملة ما قال إن الانسان سوف يستغنى عن النسل بواسطة الزواج ، مستعملاً
طريقة جديدة تقوم مقامه ، وهذا رأى نعتبره خيالياً يحلم به فيلسوف فى اغفائه .

ومن الغريب أن يذكر « ولز » أن التغير سوف يتناول الانسان خلقاً وخلقاً
فيتطور من حياته الحاضرة الى حياة أخرى أرقى وأفضل ، ويتغير شكله وعضاؤه
ونحن لا نرى هذا لأن الانسانية قد مرت عليها عشرات الأجيال والانسان لا يزال
باقياً على شكله الذى كان عليه من قبل ، وقد شاهدنا تماثيل قديمة وصوراً لتماثيل
أغريقية لأفراد من النوع الانسانى ترجع الى ما قبل الميلاد بعشرين قرناً تقريباً وهى
لا تفتقر عن الانسان الحاضر فى شيء وتتفق اشكالها مع اشكالنا فى قسماة الوجه
وتركيبة الاعضاء والقامة .

لوز رأى محترم فى السلام والحضارة والانسان غير أن الخيال يحتل اعظم جانب

منه ، فهو لا يلاحظ الا ناحية التقدم والرق والتطور إلى المثل الأعلى وينسى العوامل التي تقهر الانسانية على التأخر والانحطاط وتغيب عنه عناصر الشر والردية التي تعمل على الافناء والتدمير ، وقد يلاحظ في كتاباته أنه يذكر — في بعض الاحايين — عرضا نواحى الشر ، وفي أكثر ما يتبقى لا يستكمل الجوانب كلها ولا ينظر الى الشئ إلا من ناحية واحدة — ناحية التفاؤل والخير والارتقاء — وينسى الناحية الأخرى

هذه توطئة موجزة نريد أن تصل بها الى بحث الحضارة الحديثة وهل لها عمر طويل تحياه في عز وهناء ، وتستمر في السير إلى الأمام أم أن شبح الفناء خلفها بالمرصاد ومعول الهدم ينتظر أن يهوى عليها ؟!

وقبل أن نبدي رأينا فيها أرى من الخير أن نقرر عن هذه الحضارة الحديثة أقوامها المادة أو الروح ؟ فإذا عرفنا أن جانب المادة يطغى عليها أو الجانب الروحي سهل علينا الحكم .

في الغرب أديان قائمة ، والحاد مستطير ، وفن رائع ، وأدب غزير ، وجمال فائن ، وتصوير بديع ، وموسيقى عبقرية وكسائس ويسع ، وعلم جديد يضحي من أجله العلماء بأنفسهم ، فهذا في سبيل استكشاف يجدى العالم كله ينفق أوقاته وحياته ولا يعرف اللذة الا في البحث ، وربما أودى بحياته وهو لم يتم بعد بحثه أو اختباره ويقوم بعده آخر وثالث ورابع و... و... ويقضون حياتهم في البحث والتفكير في الوسائل التي يصلون بها الى تحقيق أغراضهم النبيلة منصرفين عن اللذات غير العقلية الى أعمالهم التي يتوخون منها افادة الانسانية !

وذلك يفكر في اختراع مفيد ، فيسامر آلاته ويصاحبها ليل نهار وربما كان حثفه في هذه الآلات نفسها ، وثالث يضحي من أجل نظرية يحققها !

ورابع ينشر بين الناس تعاليمه الروحية ، وهكذا . . . غير ان كل هؤلاء مطبوع بطابع المادة .

في الغرب شيء كثير غير هذا يظهر بمظهره الروحي : المعاني الانسانية السامية والصفات الكريمة من حب للثل العليا والحياة الفاضلة وبغض للدناءات وازدراء للردائل وإكبار للانتاج الفكرى ، ونشر لما تجود به القرائح والأذهان والعواطف وتعميم الثقافة والآداب والعلوم الى ما هنالك من الصفات الكريمة والمزايا الانسانية السامية، ولكن تجثم عليها المادة .

فالاديان في الغرب باطالة وما كان منها حتماً في الماضي كالمسيحية ، دخل عليه التجديد البغيض ، ومزج بالقانون والحياة الواقعة ، واذا بدت مظاهر رجال الكنيسة في أوربا دينية فانما أرواحهم لا تؤمن بمظاهرم وأعمالهم تنقض أقوالهم . وإيمانهم بالمعيبات إيمان جد ضعيف أو مفقود . وأصبح وقفوا على الواقع والمادة . فما كان من الدين منطبقاً على أهوائهم ورغباتهم اخذوا به ، وان لم يكن كذلك تركوه .

وفي وسع الحضارة الحديثه أن تضاعف في عمرها تطبيق النظم التي تضمن ذلك بالاعتماد على الجانب الروحي في اعمالها وحياتها ونظراتها الى الوجود ، فهي في الوقت الحاضر تثن تحت عبء المادة الثقيل ، ولا تستطيع ان تضع عن كاهلها هذا العبء الا بمحنة الدين « واني للغرب أو الحضارة الغربية المادية أن تعنى بالدين وتزهد في قسم من المادة التي عليها قوام حياتها .

هناك فنون تمد الجانب الروحي بالغذاء ولكن ليس غذاء دسماً ، وليس غذاء كافياً ، ولولا أن هذا القدر الضئيل من الغذاء الروحي يصل الى الحضارة لفقدت الحياة ولأسرعت الى الفناء .

فالآدب أو الموسيقى أو الفن أو الدين أصبح أداة تعبر عن قوة المادة وتغلبها على

الروح وتستمد الحياة منه .

لو وجد ثمة جزء من الجانب الروحي فان هناك ما يفوقه من الأجزاء المادية
الكثيرة عدداً ، وهل يستطيع فردان ينقذ عشرين غريقاً في آن واحد ولحظة
واحدة . ! ؟ . . . الجواب بالطبع يكون سلباً .

الحضارة هنا هي البحر والغرب المادي هو العشرون غريقاً والجانب الروحي
هو الفرد المنقذ .

ان أوربا قوضت الدعم التي يتقوى بها الجانب الروحي في القرن التاسع عشر
حين انتصرت الدولة على الدين انتصاراً مؤزراً كاد أن يتلاشى الدين منها وفهمت ان
أقوى ضربة توجهها الى الدين توجيه الفكر الى ناحية غير الناحية الدينية واشغاله عنه
بأمور أخرى ، وقد نجحت في أمرها .

هذه الناحية « هي العلم » .

ولقد جعلته خير سلاح يفتك بالدين ، ولو انصفت أوربا لما اقدمت على ان
تجعل العلم رياً لظماً للقلوب ، وتزعم ان فيه من القدرة ما يمكن له في الجمعية البشرية
ويكون بديل الدين ، وتجعل من الخصومة القائمة بينهما دليلاً على صدق مزاعمها
وتحكمه لأحد الخصمين اعتباراً بما يوافقها لمغانم تجربتها لنفسها ، فهي وان استفادت
بالعلم وسخرته لتحقيق أغراضها المادية وجعلته أساساً لحضارتها الحديثة الا أن صيحات
عالية يلفظها كثير من فلاسفتها وأدبائها وعلمائها وشعرائها محتجاً على هذا التصرف
البغيض وهذه النظرة المادية الى الكون والحياة اللذين يوديان بالانسانية الى مهاوى
الفناء وقرار التدهور ، وارتفع صراخه مستغيثاً ، حتى ان بعضهم اخترع ديناً جمعه
من شتى الأديان الشرقية وتعاليمها ، وتأسست جمعيات في أميركا وأوربا للبحث في
هذا الخصوص وان بعضهم انقلب من ماديته المحضنة الى رוחي بحث ، وترك الحياة

وما فيها من مباحج ومسرات ، وسم الحضارة الحديثة وسراها الخادع ووثنيها كي يصل الى الدرجات العلى من القدسية والديانة ، وبعضهم تلبسه في اديان الشرق الكثيرة ، - والأديان الهندية على الخصوص - فوجد ما يطفى به حرارة ظمئه وانكتب عليه انكباب الفراش على اللهب .

وكلا الأمرين في رأينا باطل وفيه من الزيغ شيء كثير بل كله الزيغ والضلال الا أن الوطأة في الحياة الدنيوية أخف في الطائفة الدينية فهي لا تطمع في حطام الدنيا كما تطمع الطائفة الخارجة على الدين ، وهل تجدى أقلية جد ضئيلة في أكثرية عظيمة جدوى ذات شأن خطير .

عسى أن الغرب صاحب الحضارة الحديثة يهتدى مستشرقوه وعلمائوه وأدباؤه الذين توفروا على دراسة الدين الاسلامي والحياة الاسلامية الى الحق الاسمي فيؤمنون به ايمانا قويا وينشرون تعاليمه في أممهم ويفصحون عما فيه من سحر وطهر وفضيلة وخير متبعين السبيل القيومة المتزنة البعيدة عن الاعوجاج والباطل والهوى حتى يؤدوا أمانة العلم التي يضطلعون بها خير الأداء وينتشلون أممهم من الدركات التي تردوا فيها بسبب تهالكهم على عبادة المادة وتقديسها .

والفنون بأنواعها قد ازدهرت في أوربا وأمريكا أيما ازدهار ، ولم تبلغ في العصور السالفة ما بلغته الآن من الدرجة الرفيعة ، فالغرب يعشق الفن ويفتن بالجمال ويطرب للموسيقى ويحب الأدب والعلم ، هذه الفنون التي تعتبر كمالية عند الشرق هي من الضرورية للغرب ، فالمطابع تخرج كل يوم سيلا من الكتب بين الجيد والردى ، ولكنها كلها تحت حكم المادة وسيادتها ، وبالجملة فالروحانيات لا ينكر وجودها في الغرب بيد أنه طبق عليها قانون المادة ، فاذا وضعنا الروح في كفة والمادة في كفة أخرى وجدنا الثانية ترجح على الأولى .

فصرت الروح غافت قد اخفاه ضجيج الآلات والصناعة وصخب الحضارة فلم يصل
ألى الأسماع ، ومات في فم قائله قبل أن يلج أذن سامعه . وفي رأي أن المادة تحتل
اعظم جانب من الحضارة الحديثة ، والجانب الأصغر منها روحى .

ونحن اذ نقول أن الغرب مادی أو أن الحضارة الحديثة مادية فانما نتبع أراء
كثير من العلماء فى الشرق والغرب منهم دوهامل الكاتب الفرنسى وتاغور فيلسوف
الهند الأكبر ، والعقاد الكاتب المصرى العظيم وما زلت أذكر للاخير منهم
أبياتاً ثلاثة ، فى هذا الموضوع يجدر بى أن أعزز رأي بها .

قال الأستاذ العقاد :

طامع الغرب رعى الدنيا وهام أنا أرهاها ولكن لأهم
ناسك الهند نعى الدنيا وصام أنا أنعاها ولكن لأصوم
بين هذين لنسا حد قوام وليلم من كل حزب من يلوم
فلاستاذ العقاد يعترف للغرب بماديته لأنه رعى الدنيا حتى استهم بها ، أما الشرق
فمهيط الأديان والوحى والرسل ، ولذا قال « ناسك الهند نعى الدنيا وصام » والدنيا
زاخرة بمواكب الحياة والأحياء الكثيرة المختلفة الشكول والألوان ولكن ناسك
الهند نعاها ولم يلتفت بها بل صام عن الشهوات والرغبات المقيدة بالمادة والمحسوسات
وصعد الى العلا حيث يجد الحرية لحدودها ولا قيود واندمج فى الكل بعد أن فصلته
عنه الحدود والحواجز .

وإن الحضارة الحديثة عملت ولا زالت تعمل فى جلب الراحة وجعل الحياة رغبة
هنيئة تآرز اليها البشرية لتستجم قواها ووفرت الأوقات وادخرت فى الزمن ، وقضت
الإعمال على جناح السرعة والاتقان ، وطوت الأبعاد إلا أنها — فى الوقت الذى

عملت كل ما ذكرنا — عملت ما فيه تدمير العمران وهدم الصروح ومحو معالم المدنية والحياة وتحويل جنان المعمور وفراديسها بلقعا يابا ، واسالة دم النوع البشرى على الغبراء كما يسيل الشفق في طبقات السماء ، وان الغرب الذى أوجد هذه الحضارة العظيمة أصبح بالعلم يبنى وبالعلم يهدم ، وكان فى استطاعته أن يوجه حضارته توجيهها حسنا فيه سعادة الانسانية وخير الحياة ولكنه لا يستطيع لأن المادة قد استعبده كل الاستعباد .

فالكهرباء مثلا اذا استعملت فى نفع المجتمع الانسانى اجده نفعها عظيما ، ومضى أعدت للفتك والتخريب والتدمير فعلى الكون وسكانه من حيوان ونبات وجماد السلام !؟

يظهر لنا مما تقدم أن الحضارة الحديثة حضارة مادية تعتمد على أساس من المادية والحس ، ومن المعلوم أن المادة تتحطم وغايتها الانحلال .

وعلى هذا القياس فكل حضارة أساسها المادة تمضى كالطيف وتلاشى كغيمة الصيف !

اما الحضارة الخالدة فهى الروحية ، لاها تعتمد على النفس والروح والمحبة والسلام والاحسان والفضيلة والخير والحق وكل معنى جميل سام ، وان حضارة تقوم على هذه القواعد الثابتة قمين بها أن تكون حضارة خالدة خلود الحق ! وان خبا نورها — حقبة من الدهر — فسيبرز ضوؤها كأكوى ما يمكن أن يكون — لأنها « روح » والروح لن تتحطم وتلاشى ... ولن تقنى ولن تموت !..

ان الحضارة الحديثة قد ولدت سلسلة من المشاكل التى تعمل فى تقويض صرح البشرية وظهرت بوادرها فى السنوات الأخيرة فساد الاضطراب فى الحياة الاجتماعية وسرت الفوضى فى الاخلاق وانتشرت المفاسد والمنكرات فى كل طبقة وفى كل

بقعة ، ومن أهم هذه المشاكل ، انتشار الصناعة الآلية في كل انحاء العالم انتشارا عظيما ، حتى زاحمت الايدي العاملة وانتصرت انتصارا مبينا وأخيرا استغنى عن جيوش العمال بعديد منهم ، فبرزت البطالة في شكلها المخيف ، ومن جراء ذلك تحولت الأخلاق الفاضلة في نفوس العمال العاطلين الى اخلاق سافلة ، واتجهوا الى الشر إذ وجدوا فيه ما يسكت صيحات بطونهم الخاوية تطلب الطعام ، وقد خشي من هذا الأمر الرئيس روزفلت رئيس الحكومة الأمريكية - سابقا - حين توليته الحكم فعمل على القضاء على البطالة بالوسائل الحكيمه ، واهتمت الدول الكبرى بهذا الأمر ومفكروها وساستها في إيجاد الطرق التي يتبعونها لضمان العمل لأولئك العاطلين لئلا يتخذوا الجريمة سبيلا الى اشباع بطونهم التي تطلب الخبز .

وتقدمت الصناعة الحديثة تقدماً لم يعهد مثله في التاريخ الغابر وأصبحت لها السيطرة والتحكم في مصائر الشعوب ، فالدولة التي تكون لديها قوات صناعية كبيرة هي التي تضمن فوزها في الحروب وهي التي تستطيع استعمار الأمم الضعيفة واستثمار خيراتها وهذا أمر نشاهده أمامنا ، وقد أظهرت الأيام الأخيرة جشع الدول بأجل مظاهره وأبشع صوره ما جعل الحرب على قاب قوسين .

وما الغازات والأسلحة والآلات المختلفة الا صناعة من الصناعات لها شأنها ، ونستطيع أن نقول من غير تحفظ : إن المبالغ التي تنفق من أجل السلاح لا يحصى تعدادها ؛ ولو فكرت الدول ذات الشأن والقوة واتفقت على السلام والوئام وانفقت تلك المبالغ في سبيل عمران الكون ورفاهية البشر لعاش بنو آدم في هناء وسعادة ، ولرفرفت عليهم أجنحة الحب والسرور .

وتحضرني بهذه المناسبة كلمة للعلامة « برتراند رسل » لها علاقة وشيجة بموضوعنا وهي : « ... حياة الحضارة الصناعية اكثر تعرضاً للخطر والتخريب من الحياة التي

احتفظت بالوسائل الفطرية في الانتاج .

والانتاج الآلى قد طغى على الاستهلاك، والمصانع تنتج اكثر من اللازم والضرورى ، ولا يستهلك من المنتج الا اليسير . ووسائل التوزيع ليست محكمة متزنة ، ما جعل الاضطراب يتطرق سريعاً الى الأسواق ، ولو تساوت كفاءة الانتاج مع كفاءة الاستهلاك لنجا العالم من هذا الخطر المحدق به .

ومن الاسباب التى تجعلنا ننظر الى المدنية الحديثة نظرة تشائم تفكك الاخلاق وانهلال الأسرة وانعدام الترابط « العائلى » فبيوت الدعارة فاتحة ابوابها لكل فاسق وشرير .

والحانات تبسح كل رائد الخمر والمشروبات الروحية فى غير رحمة او هوادة ، واقبل عليها جميع الطبقات : فالطبقتان العالية والوسطى ترجوان من تناولها المرح والنشوة والطرب ، والطبقة الفقيرة تقبل عليها لعلها تنسى آلامها ومصائبها حينما تحسو كآساً من الخمر .

والضرر الناجم من المشروبات الروحية معروف من اطباء الغرب انفسهم وهذا مادعا أمريكا — وهى الدولة الغريبة — الى تحريمها

و « الأسرة » قد انحلت عراها . ! فلا تكاد ترى زوجين متفقين تمام الاتفاق فى شؤونهما وسط الملايين من بنى الانسان الا نادراً بالنسبة للكثرة الغالبة، فكل منهما يذهب الى الملاهى وحده مع خليلته أو خليله ، ووجد كل منهما مبتغاه فى غير البيت . فالرجل قد اكتفى عن البيت بالملاهى والمقاهى والاندية العامة والحدائق والفنادق ، حيث يجد فيها ما يريد من متعة وطعام ولذة . . يجد ما لا يلقى فى بيته من صنوف المتع واللذات غير المحدودة .

يجد فى بيته امرأة « فذة » تسمى « زوجة » وفى خارجه يجد النساء بغير حساب

يختار منهن من يختار ، ويدع منهن من يدع ، فهو حر وليس ثمة رقيب أو محاسب أو زاجر .

أن زوجته تقيده وتحد من حريته ولكنه في خارج بيته حر طليق ، بروح ويفدو كالطيور تقع على أى مكان تريد .

ان الرجل يجد في بيته لذة ولكنها ضيقة بالنسبة لما يجد في الخارج . وعمل المرأة هو عمل الرجل نفسه ، فهي قد اعتاضت عن البيت والزوج بالملاهي والمراهم والأخلاء .

ان دنيا الملاهي أوسع من دنيا البيت !! فلماذا لا تعيش فيها وقد كملت الحرية لها أن تعمل ، وليس بخاف مافي الملاهي والمراهم والأندية العامة والمقاهي والحدائق من فساد الاخلاق والتربية والذوق ، حيث تنتشر في أجوائها الرذيلة بكل صنوفها وتكمن جنود الشيطان في زواياها تزين للناس السوء والشر والجريمة وتعاملهم يقدمون على فعل المنكرات في غير استحياء يقدمون عليها في جرأة ممفوتة ويسمونها حرية وهي ليست الا قيداً وعبودية للغرائز الدنيئة والشهوات المردولة والرغبات البغيضة . .

وأن الأعمال التي تنجم من ارتياد تلك الأماكن الموبوءة تؤثر في الحياة الاجتماعية تأثيراً بليغاً ، فتحولها نحو الاباحية المطلقة والمجانة والسقوط

من ذلك تلاشت معنوية « البيت » و « الأسرة » وانحلت الروابط المقدسة بين الأفراد والجماعات ، وماتت الغيرة وأدى كل هؤلاء الى كثرة حوادث الطلاق ، ولقد راع هذا الأمر العلماء والمفكرين فاستعانوا بسلطة الحكومة في سن قوانين الزواج ، وفرض ضريبة على العزاب ، مع هذا فهو لم يضمن للأسرة تماسكها والبيت قدسيته وللخلق استقامته ومثابته .

قبل هذا كانت المرأة تكافح في سبيل اثبات شخصيتها وصلاحها للحياة ونازعت الرجل أعماله التي احتسرها لنفسه ، واستطاعت بما بذلت من الجهود مزاحمة الرجل في كل ميدان وفي كل سبيل فانقطعت حبال الموده بين الجنسين واضمحلت روابط الرحمة والعطف والتقدير والاحترام وحل محلها النزاع والخصام والكفاح ، ومشيا جنباً إلى جنب الا في النواحي التي تأخرت فيها المرأة ولم يساعدها تكوينها الفسيولوجي ، وعلى الاصح احتسركر الرجل تلك النواحي ، وما زالت هي تكافح من أجل ذلك لتشاركه في كل شيء فهو — في رأيها — لا يفضلها في شيء فكيف ترضى أن يسبقهم في ميدان الحياة .

إن المرأة تريد أن تكون منله وتعطى الحقوق التي أعطيها .

وهذه الظاهرة الغريبة هناك من الأسباب التي تجعلنا نقضى متشائمين وننظر الى الحضارة الحديثة نظرة سوداء ، ولعلها تكون من أهم الأخطار التي تهددها في الحاضر والمستقبل الداني ، ولعلها تولد سلسلة من المشاكل العويصة تنتهي بالقضاء على الحضارة الحديثة .

ومسألة النسل نعددها من الأسباب أيضاً ، فالغرب قد قل فيه النسل الى حد بعيد والشرق ينسل بكثرة عظيمة ، حيث أن ارحام الشرقيين مخصبة مبالوه سيما اليابان والهند ..

وهذا سبب ان لم يكن من النقط الأساسية فهو لا يعد وأن يكون شديداً فاعلى الرجال تتوقف الأعمال ومتى كان الفناء يحصد بمنجمله الكبار وزهرات المستقبل في الحروب والرحم جاف لا يخصب فهناك الخوف على الأمة لأن عمرها يصبح محدوداً كعمر الأفراد والأسر .

ثم يقظة الشرق والتفتاته الى المصلحة العامة ، فالعرب قد عرفوا حقوقهم وطالبوا

بها الحكام الدخلاء بالمنطق تارة وبالحديد وبالنار تارة أخرى ، وقد نال بعض الأمم العربية استقلاله كالعراق ومصر وتنمى لها الاستقلال الذاتي التام ، وأما الدول العربية المستقلة كالمملكة العربية السعودية فقد برهنت على تقدمها ورقيا باتحاد الأفراد واعتصامهم بحبل الله وإخلاصهم للقائد الأعلى الذى هو « الملك » وحب الملك لشعبه وليس بمنكور أن العقلية العربية قد استيقظت والعرب قد تنهوا على يد حضرة صاحب الجلالة الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود المعظم » وهناك دولة اليابان القوية قد استطاعت أن تزاحم الأمم الغربية جمعاء فى الأسواق العالمية الكبرى ببضائعها ومنتجاتها .

وبالجملة فى إيران نهضة تتناول الفكر والعمل ، وفى الهند نزعة قوية نشيطة الى الاستقلال والحرية ، وفى تركيا أن تنشئ الحياة وتبنى ، وفى أفغانستان يقظة وتقدم وان هذه اليقظة والتقدم والنهضة فى الشرق سوف تكون من أسباب القضاء على الحضارة الحديثة لأن الاختلاف بين الشرق والغرب اختلاف يتناول التفكير والعادة والقلب والنظر الى الحياة ، ونتيجة هذا الاختلاف أن تولدت فى القلوب ذحول وترات فالشرق ينظر الى الغرب نظرة سيئة ينتهز الفرص ليأخذ ثأره ، ويمحو عاره ، ويكتب اسمه من جديد فى سجل الحياة الفاضلة الحرة

ومن أسوأ ما منيت به الحضارة الحديثة الاشتراكية التى أعلن العالم كله عداها نظمتها وقوانينها ودعاتها ومعتنقها ، لأنها فى صميمها تحارب الأديان والمبادئ الفاضلة والأخلاق السامية والمثل العليا والشخصية الفردية والحرية .

والاشتراكيون يبذلون فى سبيل نشر مذهبهم أقصى الجهد . فيختلقون محاسن لما يدعون اليه عن طريق السفسطة والمنطق الخاطيء المهرج . واعتدت بجانب ذلك قوات عظيمة عظيمة من الآلات والرجال

والحرب العظمى — التي على الابواب كما يقولون — لا يجمل أحد نتائجها المحتومة بعد أن عرف المقدمات والعلل ، وما ستعقب في الوجود من خراب وفساد وأمراض وما تترك في نفوس الذين تكتسب لهم الحياة بعدها من آلام مبرحة تنفر عليهم في كل حين يتذكرون فيه أهوال الحرب وويلاتها ومصائبها وما حصدت من أفلاذ الأكباد.

لقد كان من نتائج الحرب العظمى الماضية ميل الدول إلى السلام وبغض الحرب وكرهيتها — إلى حد بعيد — لأنها شاهدت حضارتها تكاد تنهار وابنيها المشيدة تتقوض ، والشباب — زهرة المستقبل — يحصده منجل الفناء فدوت أصوات السياسيين والكتاب والمفكرين من أعماق نفوسهم تعلن السخط على الحرب وموقدى نارها : كما أنها تضيح بالدعوة إلى السلام بحرارة وصدق مستنجدين بالزعماء ألا يسيروا بأممهم في طريق الحرب ويوجهوا دفعة سفنهم نحو شاطئ الأمان والسلامة .

هذه فكرة حسنة كانت من نتائج الحرب المفيدة ، اذ ذاقَت الدول مرارتها الشديدة ولذة السلام الحلوة المعسولة .

« الحرب خزى للبشر وحبذا بعدها عن عالمنا »

هذا ما يقول جورج واشنطن محرر أمريكا الذي حارب الانكليز حرباً ضروساً قاسية .

وقد قال ميرابو أحد الثوار الفرنسيين العظماء في إحدى خطبه في الجمعية الوطنية وعلى ما أظن أنها كانت عقب الثورة : « يجب أن نطبق على الزعماء والوزراء الذين يشيرون الفتن ويوقدون نيران الحرب الجزاء الصارم كما يطبق على المجرمين والسفاهة . »

ان واشنطن وميرابو زعيما وطنيان عظيمان ، وكل منهما خاض معمعان حرب وذاق مرارتها وويلاتها وفهم أنها سبب هام في القضاء على الحضارة فلم يملك نفسه من قول الحق ، وتكلم عن خبرة تامة وعاطفة حارة ، فمن المقرر أن ابتعاد الحرب

عن عالمنا — كما يطلب واشنطن — ومحاكمة الزعماء والوزراء المشيرين للفتن والحروب بتطبيق أشد الجزاء عليهم كما يطبق على المجرمين — على رأى ميرابو — كفيلان بضمان « السلم » وازدهار الحضارة ، ومن غير شك ان شر سلاح يفتك بالحضارة الحروب . ! !

عرف ذلك عظماء أوروبا وزعماءها فجعلوا الحرب حراما كما ينص ميثاق « كيلوج » وكما تذكر معاهدة « لوكارنو » فوافقوا امريكا على ايجاد عصبة من الأمم مهمتها تسوية الخلافات والخصومات عن طريق السلم ، وكان من مواد مقترحات هذه العصبة مقاطعة المعتدى ليزدجر ، وتوقيع العقوبة الصارمة عليه ليرتدع ، واهمها الاقتصادية

يبد أن ميثاق « كيلوج » ومعاهدة « لوكارنو » ووجود عصبة الأمم لم تضمن السلم وتبعد الحرب ، بل ان عصبة الأمم مما يثير المشاكل والفتن في هذه السنوات . وثقة الدول بها ضعيفة لانها لم تستطع ضمان الاستقلال والحرية لبعض الأمم التي استعبدت واستعمرت على مرأى منا ومسمع . فنارت ثائرة الكتاب والادباء والمفكرين وهزموا بالعصبة ودساتيرها وشبهوها هي واعمالها بالحلم يطوف بالنائم

ان هذه العصبة لم تستطع ضمان استقلال الأمم الضعيفة لانها خلو من القوة التي تتمكن بها من تنفيذ الاحكام على المعتدى الباغي الذي لا يرضخ للحق . فلو كانت للعصبة قوة لاستطاعت مقاومة الدولة الظالمة الخارجة على دساتيرها

هل تخلد هذه الحضارة الحديثة وغاية الدول الغربية الاثرة واستعمار الأمم الضعيفة والانتقام من الزعماء والتنكيل بهم ؟

ان النتائج الالاقى نستنبطن من الاعمال التي تأتيتها أوروبا وقيام الغضب مقام الرضا وحلول الاستفهام بالحديد والنار محل المفاهمة المنطقية تحت جويسوده « السلام والحب والاطمئنان » وامعان الدول الاوربية في تقوية أنفسها باضخم الاسلحة وأشدّها

تدميرا وفتكا تجعلنا نتشأم بهذه الحضارة الحديثة . وستكون الجبهتان القويتان
الدكتاتورية والديمقراطية السبب في نشوب هذه الحرب التي تقضى على الحضارة، فذهب
الدكتاتورية القتال والنضال من أجل انتزاع المستعمرات أو إعادتها اليها وأخذ
مستعمرات جديدة حتى تساوى الدول الديمقراطية في مرافق الحياة فتضمن لنفسها
البقاء، والديمقراطية لا يرضيها سير خصيمتها هذا السير البغيض

إن كل مذهب من هذين المذهبين قوى جدا، ولا بد من الاصطدام العنيف اذا تقابلت
قوتان عظيمتان والنصر سيكون محقوداً لواءه للقوى الطاغية !!

والنتيجة أن الحضارة الحديثة قد تضافرت عليها العوامل التي تنذر بها بالفناء ،
وسيكسب لها الموت متى نشبت هذه الحرب العظمى المقبلة التي نحن على أبوابها كما
يقول الخبراء الفنيون الحريون والساسة المجربون ويمضى عنها ربيع الحياة الجميل ،
ويسأم الغرب أو الحضارة الحديثة المادية الارض فتتوارى في الاجداث وتفسح المجال
للحضارة الشرقية الروحية والمادية فينبعث النور البهي من جديد من الشرق ، ويصير
الاسلام ان شاء الله هو الدين المعتنق ، وتصبح الحضارة الاسلامية هي التي تسود بما
فيها من تعاليم خالدة وأحكام عادلة ونظرات صائبة ومبادئ سامية ورحمة
ومودة وسلام ...

وهنا ان شاء الله يرتل بلبل السلام « انشودة » البقاء ، من علا افنان الرحمة
والسعادة والصفاء إذا عرف المسلمون كيف ينتهزون الفرص ويستغلون
« وان الأرض لله يرثها عباده الصالحون (١) »

(١) نشرت هذه المقالة مجزأة في خمسة أعداد من جريدة المدينة المنورة . وما
كاد يصف هذا القسم للنشر سنة ١٩٣٩ الا والدنيا بأجمعها تغرق في شبه غيبوبة من توتر الحال
في أوروبا ونشوب الحرب الكبرى بين المانيا من جهة وبولنده وانجلترا وفرنسا
ومستعمراتها من جهة أخرى .

(*) السلام

بين المسيحية والاسلام

أما من ناحية السلام وحبه والاشادة بمنافعه واعتناقه كمذهب أساسي للأفراد والجماعات فلم تأت شريعة من الشرائع التي نزلت من السماء أو أوجدها الحكماء والفلاسفة اذ حللوا بالمدينة الفاضلة كما أتى «الاسلام» فهو وسط في كل شيء ، بلغ من السمو والكمال بحيث يستطيع أن يضمن للإنسانية سعادتها وهناءتها كما تضمنهما في الماضي ، وفي وسعه أن يحل المشاكل والأزمات حلا يرضى كل أحد ، في أى عصر من العصور ، ويسقى كل من أقام دعمه وآمن به كؤوسا مترعة من الطمأنينة والراحة اللتين يجد المرء في طلبهما والبحث عنهما مدى حياته ، ويبدل من أجلهما كل جهوده ولا يزال باحثا عنهما حتى يودع عالمه الدنيوى للذهاب الى عالم الخلود .

ولم يدع الاسلام أمرا من أمور الحياة — دقا وجليلها — إلا أعارها اهتماما كبيرا وأوضح الطرق وبين المناهج الواجب اتباعها ضمنا للراحة والطمأنينة والمتعة ، ومن تلك الأمور «السلم والحرب» فقد قرر فيهما نظريات وخططا بعضها بالقول وبعضها بالعمل ، مبينا ما يجب عمله نحوهما .

والتاريخ الاسلامى فى صدره يحدثنا أن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين من بعده كانوا مثال السمو والطهر فى كل مرافق الحياة ، ولقد ورد عنهم أن غزاتهم للناس لم تكن إلا رفقا بهم ونجاة لهم من الويلات والمصائب ، وكانوا يجعلون الانسان المحارب حرا فى آرائه ومعتقداته ، ويجعلون له الخيرة بين أمور ثلاثة : الانضمام فى سمطهم فيكون له ما عليهم ، ولهم ما عليه ، ويرتفع الى مستواهم فى الحقوق والواجبات . أو أن يعطى شيئا مخصوصا متفقا عليه بينهم يدفعه لهم صاغرا ويسمى

« الجزية » فيكون له عليهم حينئذ حق الدفاع عنه ، واعتباره كعضو منهم وإلا فلا مفر من حربه وقتاله أو يسلم أو يعطى الجزية .

ومن رحمة الاسلام بالناس كافة أن منع قتل الشيخ والطفل والمرأة لضعفهم ومنع قتل من لا يشترك في القتال لإيثاره « السلم » وابتعاده عن غائلة « الحرب » ومنع من تخريب العمران من الأراضى المزروعة والعقار إلا أن يعتدى عليهم أصحابها ، فيكون لهم حق التمسك والنجاة بهم . ! ولا أدل على هذا من معاملة كفار قريش حين فتح مكة بلده الذي أخرجوه منها وطرده وكدبوه وآذوه ، ولم يتركوا سيلا ينيلهم من كرامته وشخصيته إلا سلكوه ، وألبوا عليه العرب ، وقدموا له كل قبيح ، فقابلهم بالصفح والغفران ، وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! وكثير غير هذا من الأعمال الانسانية الخالدة تسمى على دنيانا وما فيها من شر وبلاء .

والمسيحية في صميمها تأمر بالعدل والاحسان ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن ما حدث فيها من تغيير وتبدل وتحريف غيرها عن وضعها المنزل من السماء .

فلقد كانت المسيحية ممعنة في الرحمة والاحسان إلى حد بعيد حتى ورد في كتاب المسيحيين هذه الموعظة : « إذا ضحك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ! هذا غلو في الرحمة كان موائما ذلك الزمن الغابر لما كان فيه من قسوة وظلم وغلبة ، وورد عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .. يعني مريم المجدلية .

هذه الرحمة والغلو الشديد فيها كانا صالحين لذلك الزمن الغابر ، وهما أشد صلاحا لمسيحي العصر الحديث أن يتبعوه في شئوونهم ، فربما يهتدون إلى الطريق الدانية من الحق إن طمست أعينهم وقلوبهم عن « الاسلام »

وعسى أن اتباعهم له يخفف من فوران هذا الرجل العظيم الذي يقصد المسيحيون

ان يضعوا العالم فيه ليدوق الآلام والمصائب والشور والاهوال .

لما تمح ذكريات الحرب الكبرى الماضية من أذهان البشر بعد ، وإن هولها وشبحها الخيف ليفزع منهما أقسى القلوب ويهتز فرقا ، والعالم كله يذكر تلك الحرب كطعامه وشرابه ، فيشعر في أعماقه بالاسى الشديد ، ويتمنى أن لا تحتضنه مرة ثانية حرب عظمى تذهب حضارته أو تعرقل سيرها المضطرد في سبيل التقدم والرقى .

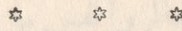
أنسيت أوروبا ذكر الحرب الماضية الأليمة فتتورط في حرب عظمى ثانية أشد فتكا وأعظم نكالا من سابقتها؟! أين العقل؟! إن الجنون قد استعمر عقول الساسة فقضى عليها ، فهذوا بالمبادئ السامية وهم أعداؤها ومحاربوها ، واستهوا أفراد الشعب بالكلام المزعرف ، والوطنية الزائفة ، والادعاء الكاذب ، ووقعوا على أوتار قلوب الجماهير نغمة التضحية الصارخة فهبت كالأعاصير المجنونة ملقية بالارواح في أتون الحرب ،

ان فضائح مسيحي أوروبا ملبوسة بينة ، فقد كانت مصانع الدول المتحالفة (أى الحلفاء) الخاصة بها لا تكتفى ببيع الاسلحة على ألمانيا ، كما أن مصانع أخرى تابعة للدول المحايدة تبيع المتحاربين من كل أمة ناسية ومتجاهلة ما عليها من حقوق للإنسانية والفضيلة والخير ، وما تجر أعمالها من خراب ودمار . وهلاك للارواح والعمران ما دام فيما تأتى تحقيق أمانها وبلوغ غاياتها وذلك هو الربح المادى تكتنزه في الخزائن وتملؤ به الجيوب .

ولقد كنز هذا الفريق المتولى شئون الاسلحة والمصانع والذخائر الحرية المال الكثير وأثرى في حين أن سالت أرواح عشرة ملايين من بنى الانسان على بطاح أوروبا وميادينها الحرية غير من تخلف من المرضى والجرحى والمشوهين والارامل والايام والبؤساء والمحتاجين الذين يتلظون في جحيم الآلام .

وان الغربيين المسيحيين يستعدون بكل ماأوتوا من قوة . ويتنافسون في ميدان التسليح ويتسابقون في احراز أضخم الاسلحة وأفتكها لاليدافعوا عن انفسهم وانما ليستعمروا بلاد غيرهم ، ولم يذكر التاريخ — قط — أن عصر آمن العصور تجهز وأقى حياته في سبيل الحديد والنار وحرم نفسه القوات الضرورى من أجلهما مثل هذا العصر الذى يسمونه بالنور والتقدم . وهذه أخبار العالم الغربى وما تنشره صحفه من الارقام الضخمة التى تنفقها فى وسائل الحرب والقتال يدل على جنون الغرب .

إذا أخذت قوتان كبيرتان مكانهما اتجاه بعض واضطربتا ، وكل واحدة منهما عدوة للآخرى . فلا بد أن ينجم عنه الاصطدام وتندلع ألسنة النيران فتحترقان جميعا . أما الاستدلال بأن الاستعداد للحرب أنفى للحرب فهو استدلال خاطىء . إن صح أن يكون كعذر تعتذر به الدول المتسابقة فى التسليح فلا يصح أن يكون دليلا منطقيا صائبا يحمل الناس على الايمان بهذا القول الرخيص .



الاسلام يأمر بالاعتدال فى كل شىء ! فى الحروب التى خاضها لم يكن الامثال الرحمة والاحسان ، مما سهل له فتح أقطار الأرض ، ونشر تعاليمه ، وجعل إقبال الناس على اعتناقه عظيما ، إذ وجدوا هذا الدين سهلا سمحا رحيا ، يضىء الحياة والكون نوره الساطع فيهدى به الناس الى أقوم الطرق ، ولا يزال الاسلام على روحه وتعاليمه السامية لا يتغير ولا يستطيع امرؤ أن يغير فيه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وسيجد فيه كل مقصده النبيل ، ومنهلا جد عذب لا ينضب يروى به المؤمنون بالله حقا ظمأ قلوبهم المتعطشة الى الخير والهدى .

الحرب فى الاسلام نوع من أنواع التهذيب ، ففيها لا تنتهك الحرمات بل ترعى عظيم الرعاية ، ولا تثار إلا دفاعا عن الوطن والروح والعقيدة وإعلانا للحق والهدى ،

ودعوة الى الحرية الصحيحة والمبادئ السامية الانسانية ،
أما في الغرب المسيحي المتطرف فدعوى الى السلام وترك الحرب ونزع السلاح
ولكنها دعوى عريضة - فقط - وليست هذه الالفاظ الا ألفاظا منمقة تقال
لتخدير الاعصاب او تعلن لترويج الغش وتضليل العقول ، وان المتمشدين بهذه
الدعوى لا يستطيعون ضمان السلام الحقيقي مادام أساسه « السلاح » !

أبعد كل هذه الفضائل الكريمة والمبادئ الشريفة ينحى الغربيون المسيحيون
وبعض كتاب الشرق على الاسلام فضائله ومبادئه لحقد كامن في سويداء قلوبهم ،
سبحانك هذا بهتان عظيم ...



مدرسة النجاح (*)

وجهت جريدة (الايوبك) الفرنسية انذارا الى قرائها — وهم كثير — فحواه انها ستقف عن الصدور من يوم غد — من تاريخ الانذار — إن لم يدوها بالعون المادى فصندوقها العام قد خلا من المال ، فما كان من قرائها إلا أن أجابوا نداء الجريدة بالنقد ، فتكدست لديها الأوراق المالية والصكوك النقدية (الشيك) (١) حتى تجاوزت مئات الآلاف وأربت على المليون من الفرنكات . وحينئذ استطاعت أن تستمر في الصدور وتخدم الأمة والعالم باستئناف نضالها الصحفي المجيد .

فلماذا أسرع أولئك القراء الى تلبية نداء الجريدة وامدادها بالمال الموفور وهم يعلمون أن في فرنسا عشرات الجرائد ذات القيمة والرواج مما لا يقل خطورة عن تلك الجريدة ومما يحتوى أهم أخبار العالم وأنفس ما ينتج الفكر والعاطفة من علم وفلسفة وأدب وشعر !!

ولماذا كان في المعينين افراد من جميع طبقات الشعب يوجد كل منهم على قدر طاقته ؟

(*) نشرت بجريدة صوت الحجاز سنة ١٣٥٨

(١) الشيك هو الصك النقدي ومن الغريب أن يطغى هذا اللفظ الدخيل على الكلمة الاصلية فتستعمل في البلدان العربية ، حيث يستعملها في الحديث كثير من أدبائنا ، وفي الحقيقة أن الانكليز أخذوا اللفظ العربى وحرفوه إلى شيك ثم أخذه متأدبوا هذا الزمان واستعملوه في المخاطبة والمسكاتبة ، فالى متى يعق اللغة العربية أبناءها ، ولعلمهم يتركون السير على قاعدة « كل شيء أفرنجهى برنجى » . ويلتفتون إلى تراهم المجيد ويحيونه أو يبعثونه فذلك أحرى وأنفع .

ولماذا لم تركبهم الانانية وحب المال فتغل أياديهم الممدودة بالمال والتشجيع والتقدير؟

لا أجد جوا بأعلى هذه الاسئلة غير أن احساسهم بالواجب نحو تلك الجريدة التي كانت تصنع معهم الجميل فتغذى افكارهم وأنفسهم بالطارف والتليد من الانباء والحوادث او نتاج القرائح وخليجات النفوس كان احساسا نبيلًا ، وذلك من محاسن التضامن الاجتماعي في الأمم الراقية والبلدان المتقدمة، ذلك احساس راق يشعر بالمسؤولية أمام الضمير والتاريخ ويفهم معنى الوطنية ويقدر المنفعة العامة !

وذلك اختبار الزمن للنفوس يرى ما في دوائها حيث يقف التاريخ العادل ميزاناً لا يحابي ، يسجل الحقائق بدون زيف أو اصطناع .

يتجلى في هذا الحديث وفاء أولئك الناس وعرفانهم بالجميل ، وتعاونهم على الخير وتضامنهم على المصلحة العامة !

ذكرني بهذا الحادث الذي مرت عليه الايام وسجله التاريخ في صفحاته المشرقة ما حدث لمدرسة النجاح المدنية هذه الايام . فما هو هذا الحادث !

هذه مدرسة سارت في طريقها بمجدة نشيطة وأدت ما عليها من الرسالة والواجب للوطن المقدس مدى السنوات الثلاث الغارة بفضل ما بذل مديرها الاستاذ عمر عادل من تضحيات ثمينة تناولت ماله وكسبه وقلبه ويشاركة في ذلك اساتيدها ويعينها أثرياء المدينة بمالهم الخاص ، ولم تأل المدرسة جهداً في اخراج نشء صالح هدهته إلى الطريق المستقيم وجعلته يلتذ بالعلم والأدب . وفتحت عينه على الفضيلة والخير ، وربته تربية اسلامية عالية .

وسارت المدرسة مدى هاتيك السنوات سيرا حثيثاً حسناً ، غير أن هذه الأزيمة وقفت في طريقها وتخلّى عنها مغذوها فماذا تعمل ؟ أتقف عن السير ! أتغلق أبوابها في وجوه النشء الظامي ؟ !

هى مضطرة إلى الوقوف واغلاق الباب وطرد النشء لأن صندوقها فرغ من المال ، ومديرها ليس ميلا (١) يستطيع ضمان سير المدرسة ، وما كان لديه من مال مذخور قد نضب معينه ، فهى - الآن - فى دور احتضار وهو سيلها إلى الموت إن لم يتداركها أغنياء المدينة أو أغنياء المملكة أو المعارف .

وحسب المدير الحازم عمر عادل أنه ضمن للمدرسة السير بعد أن تخلى عنه المساعدون بعض الشهور وحمل أصدقائه الاساتيد نصيبهم من العبء فكانوا يداً واحدة قابضة على زمام المدرسة يسرونها إلى الأمام ، ويكافحون من أجل حياتها انتظاراً للغد القريب الذى تمتد فيه يد المعارف الرحيمة لتنتشلها من الهوة إذا لم يستطيع أغنياء المدينة وهم من برهنوا على حب الخير والتعاون على البر والتقوى واشتهروا بالتضامن على المضى فى الانفاق عليها .

إن مدرسة النجاح تسير اليوم بقوة فرد هو « المدير » والمدير قد أعلن أنها ستضطر إلى تغليق الباب بعد أيام — وتلك نظرة منه — فالخيرة إذا نفدت فلن يستطيع أى كائن أن يسير !

نحن نشق عظيم الثقة بهذا الرجل « العادل » ونثق بنشاطه ومقدرته واخلاصه وقوته النفسية ، فهو وحده قد أسس المدرسة ، وهو وحده جمع حولها المثرين وأقنعهم بضرورة وجودها ووجوب النفقة عليها ، واستطاع أن يبرهن على أنها نشيطة فى سيرها متفوقة فى علومها حيث يمتاز تلاميذها بسعة المعلومات وتركيزها ودراستها بالرغم من انها « مدرسة ابتدائية » .

لا اعرف هذا المدير إلا من خلال اعماله المشرفة التى تستهوى المنصفين وذوى

(١) الميل : بتشديد الياء وكسرهما كثير المال .

الضماير الحرة الطاهرة وهي وحدها جعلت قلبي يتناول موضوع المدرسة إشادة بمجدها العلمي وكفاحها الأدبي وفضلها الثقافي ، وانصافا لهذا الرجل الصامت لا يحب الظهور وإنما يعمل في طي الخفاء كالجندي المجهول يريد وجه الله ثم خدمة للعلم وتثقيفا للنشء واحياء لماضي هذا الوطن العزيز .

أفلا يستحق هذا الرجل التكریم — بعدان لمسنا البراهين على رجولته واخلاصه وديانته — وما تكريمه غير مساعدة مدرسته .

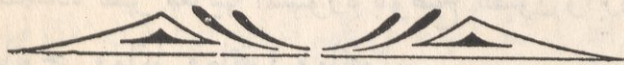
صرح للوطنين — وأهل المدينة على الأخص — أن هذه المدرسة ستخلق أبوابا قريبا إذا لم تجد منهم العون المادي والأدبي ، ونحن نفهم حق الفهم أنهم مرهفوا الحس كرماء النفس ، ونفهم أنهم لا يقلون وطنية ونبلا وشعورا عن قراء تلك الجريدة الفرنسية الذين بذلوا لها المال بعد ذلك الانذار بدقائق وساعات معدودات .

إننا نعتقد أنهم سيبادرون إلى ربح الثواب وخدمة الوطن بتقديم المساعدة الفعلية لهذه المدرسة ، وننتظر جوابهم العملي وتشجيعهم المادي .

في بلادنا أغنياء ميلون ، يستطيع أحدهم ان يقوم بشأن مدرسة النجاح خير قيام ، فنفقاتها الشهرية لا تتجاوز خمسين ومائة ريال عربي . وهو مبلغ لا يرهق مالية غني يرجح في الشهر مائة او مائتي جنيه ذهبي او أكثر من ذلك ويسعه ان يكون ذلك من الزكاة .

ليس للأدباء رأس مال غير الفكر والعاطفة - وكلهم فقير - ولكنهم كرام النفوس بذلوا الفكر والعاطفة في سبيل الوطن والمصلحة العامة وتحملوا من الآلام من أجل الناس مالا يطيق حمله غيرهم ، ولو كان الادباء ذوي يسار لرأينا بلادنا تزخر بالمشروعات الحية والجدائق والحضارة والعمارة لأنهم ينشدون المثل العليا في كل شيء ، ولكنهم فقراء ، ومع فقرهم فهم اشد الناس إحسانا واسرعهم إلى الخير ، وحسب الادباء أنهم يدلون الناس على طريق الخير « والدال عليه كفاعله » !

هذه المدرسة على شفا الهاوية فأقذوها وأزيلوا عن طريقها العقبة الكأداء
واضمنوا حياتها تضمن لنشكم الفكر المشرق والاحساس النليل والهداية الى سواء
السبيل .



طلاق الكتب

برمت نفسي بالكتب فلم أطق النظر اليها لأنها كانت أقوى الاسباب في شقائي
ونكدتي ، وضقت بها ذرعا وصممت العزم على بيعها وألا اقرأ كتابا ، وكتبت قائمة
ومشيت بها على الوراقين لعلهم يبتاعونها مني فأتلخص منها وأبقى حرا طليقا لا يقيدني
كتاب ولاديوان ، وأتصل بالناس ! بدنيا الاحياء الذين يرحون فيها وأشهد أعمالهم
وتجارهم عن كسب ، فأخذ العبرة وأنزع العظة واحصل على التجربة من الاحياء
الذين أراهم كل يوم يروحون ويغدون . وفي غدوهم ورواحهم معنى الحركة ، والحركة
هي رمز الحياة المتجددة تظهر معانيها المستورة بأوضح الصور وأبرز الأشكال لاعن
تلك الكتب وما توحى وما تملى وما تقرر وما تقول .

انها اشتقتني فهي التي قادتني الى السجن مرتين ، وهي التي جعلتني أهتف للفضيلة
وأعرج الى السماء . ولكنني انحدرت لأن الناس - إلا قليلا - في دنيانا الحاضرة لا يرضون
بالنبل والفضيلة وينكرونهما بلسان اعمالهم وهي تفصح أكثر مما تنطق الألفاظ وتؤدي من
معاني

انها تنصح لي بالفضيلة حتى أصبحت فاضلا . ولكن الواقع يصدمني فيفجعني في
عواطفي وأحلامي فاذا أنا مرضوض أعاني الالم المبرح
الواقع مملوء بالردائل فكيف أكون فيه ذا فضيلة أدعو اليها واحارب من أجلها
وأنا أرسف في القيد

تعلمت منها مالم ينفعني وإنما خذلني وآذاني
أفلا تستحق مني الحجود والانكار وعلان الحرب جزاء وفاقا لآثامها وشروها

أولما جلبت على من شرور وآثام ومكائد

رحمت هزم القوم وسخريتهم — إن عد ذلك رجحا — وبقيت شاذا منكورا
هذا يتهمنى بالخيال والتعلق بالآوهام ، وذلك ينعتنى بالإلحاد وفيهم من يتهمنى بالخيانة
أو التجرؤ على الحاكمين .

سـخـر بـى القوم لأنى لا أكاد أرى بدون كتاب أينما كنت ، فهو ضرورى
لى كشونى أو عباتى أو قلنسوتى وأنا أحوج إليه منى الى الطعام ، ولأنى انتصح بمافى
الأسفار وأبدو فاضلا .

أرى التناقض بين مافى الكتب ومافى الواقع فأحار فى أيهما الاحق والأولى
بالاتباع ، ولكن صوت الواقع أشد جهازة بحيث تخفى فى طياته همسات الكتب
الخافتة ولكن الواقع أكثر أتباعا بل كلهم أتباعه فلم أكون شاذا فيه .

لاسلك الطريق مع القافلة ، فالمساواة فى الشر خير من التفرد على الحق

عاشرتها طويلا ، فلعلى ضقت بها لأن من طبعتى الملل والسأم لا استطيع الصبر على
غذاء واحد أولون واحداً أو حياة رتيبة .

كان لها سحر أصبحت أمقته الآن وأحرمه . استعبدتنى وأنا من شيمتى الانطلاق
والتحرر ، حرمتنى لذة الحياة الدنيا بمتعة يلتذ بها الخيال ويرضى بهذه القسمة ولا يشعر
بالغبن وإنما يحسب انه الراجح المقرور : أخذت منى ضوء عيني ونضارتى وبلهنية عمرى
وألقت بى بين براثن المرض والسهر أتململ وأهتف بالأمانى والاحلام الذهبية
قد تلاشى ذلك السحر والجو الحالم واصطدمت بالواقع فاذا الكتب تشق طريقا
آخر ، أفلا أتهمها بامتطاء القرية وتزيين الكذب وسوقه فى ثوب قشيب ؟ !

أنالم أعد أطيق هذه الجماجم النخرة تتكلم فى تفرغنى بعد أن كنت أجد فيها السلوان

إنها — كالشيطان — تزين للهرء الشر الذى هو فى نظر مؤلفها خير فيدعو اليه فاذا

هو ملقى في غيابة السجن لا يقبل دفاعه ولا اقوال الكتب لأن الواقع يتهمة بالدعوة إلى الشر فينال عقابه سجنًا ونفيًا وضرباً .

فوداعا أيتها الكتب

لست أدري إلى رجعة اليها مرة أخرى فأنكب عليها كما ينكب المفارق المعمود على وجه معشوقه لثما وتقييلاً . ؟

إني مصمم على طلاقها البائن ، ولكنني أخشى ان تهدأ عاطفتي الشائرة يوماماً وأرى الواقع يدعو إلى الفضيلة ولا تصطدم حقائقه بحقائق الكتب المثالية العليا فأعود إليها مطمئن النفس مرتاح البال !



شعر وشعر (*)

في ادبنا العربي الحديث نهضة ملهوسة وثوراة على الجمود وتجديد في الاساليب والفكر والاعراض ، ومع هذا التقدم فالادباء طبقات والشعراء كذلك ، ونريد أن نقصر مقالنا هذا على الشعر وان لم نتناوله بالتعريف والحل والنقد

من شعراء العربية فريق له ميزته العظمى من ناحية التجديد واليقظة وصدق الاحساس والعناية بالجواهر والمظهر او بالفكرة والاسلوب ، والنظرة الى الشعر على هذا الاعتبار الملخص في هذه الابيات

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها إلى الحياة بما يطويه كتمان (١)
لولا القريض لكانت وهي فاتنة خرساء ليس لها بالقول تبيان
مادام في الكون ركن للحياة يرى ففي صحائفه للشعر ديوان

كما أن هناك فريقا من الشعراء لم تكن لديه موهبة فنية ولكنه يقحم نفسه في حرم الشعر اقحاما

ومن خصائص الشاعر العبقرى انتباهه للفتات الذهنية والمعاني الخفية المكنونة والخواطر اليقظة والاحاسيس الصادقة تجول في نفسه الكبيرة جاعلا التعبير الجميل عنها وسبكها في القالب الشعري البديع أداة لظهورها ، ونتيجة هذا الانتباه الدقيق الاتجاه الفني والفلسفي الى الحياة المفعمة بالمعاني الزاخرة بشتى المقاصد والاعراض

(*) نشرت بجريدة صوت الحجاز سنة ١٣٥٨

(١) الابيات للشاعر العبقرى العقاد

العظيمة الوصول الى أقصى قرارات النفس والانتهاى الى القلب حتى أن القارىء
ليكاد ان يحس أنه فى جنة من اللذة والسعادة يروح ويغدو فيها مسرورا نشيطا

إن الشعراء الممتازين هم الذين عرفوا أن الشعر ليس هو الوزن والقافية ، وليس
هو الزخرف اللفظى إنما هو أصل من اصول الحياة لا تستقيم ولا يظهر جماله وكل ما فيها
من معانى ومحسوسات إلا به وذخيرة قيمة زاخرة تحتفظ بقوتها وجدتها ، والوزن
والقافية أحد الاثواب التى تبدو فيها وليس كلها ، وهى من اللوازم الاولى
للشاعر كالنحو والصرف وفقه اللغة ، فاذا لم يكن الشعر فنيا وصورة صادقة للنفس
وحالاتها من انقباض وانسراح ولذة وألم وأمل وخيبة إلى غيرها من حالات النفس
التي لا تنتهى فإنما هو كلام منظوم مقفى يتصل بالقول الجاف والمعنى الجامد الثقيلين
على النفس والعاطفة .

والفرق عظيم بين شعر ينبع من القلب وبين كلام منظوم مقفى يملئه الجمود أو
التقليد أو النضوب ، ولا يحس بهذا الفرق إلا من وهب الذوق السليم — ميزان التمييز
والنقد — والاحساس الصادق بالشعر الجميل والتأثر به يفكان النفس من قيود الحياة
وضروراتها ويطلقها من أسرها لتخلق فى الآفاق العالية ، وتستمتع باللذة الروحية
استمتاعا كبيرا ، ولنبرهن على ما ذكرنا نمثل بمقطوعة شعرية رائعة لشاعر مصرى
كبير وهى :

خذ من الجسم كل معنى وجسم من معانى النفوس ما كان بكرا

حبذا العيش يبدع الفكر جسما نحتليه ، ويبدع الجسم فكرا

ويرى الفن كالحياة حياة ويرى للحياة فنا وشعرا

ضل من يفصل للحياتين جهلا واهتدى من حوى الحياتين طرا (١)

أيها القارىء

اتل هذه القصيدة — أو هذه المقطوعة الفنية على الاصح — مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أكثر فلن تشعر بسأم ، ولا تحب أن ترميها كما ترمى كثيراً من القصائد والمقطوعات التي تنشر في الصحف والتي تنشر في الدواوين .

أتلها بتمعن تشعر في أعماق نفسك بلذة وراحة ومتعة . لأن النفس « الانسانية » الشاعرة تطرب للجميل وتلتذ بالمثل الاعلى وتستمتع بالنفيس وترتاح الى الفن ، وليس في عالم المعاني أشد تأثيراً في النفس وأجمل وأمثل وأنفس وأسرع وصولاً الى القلب من الشعر الفنى الجميل ، ولا مرأى في ان الفن والجمال في الشعر - وغيره - حرية منظمة وهى طلاب كل إنسان .

اتل القطعة الفنية السابقة بتأمل ثم انظر مدى تأثيرها في نفسك وعاطفتك ، لكى نفهم جمالها وفنها وتحس سموها يجب عليك أن تبصر مدى تأثيرها في نفسك ، ومن الخير لى أن أوضح بايجاز جودة القطعة وأنها من الشعر الخالد وان الشاعر ابداع أيما ابداع ، لا يتكلف أو يغرب في اخراج الصورة الفنية في قالب فنى ، كذلك لا يتصنع أو يفتتن بالصناعة اللفظية التي تكون سبباً في فقد لباب المعنى المقصود ، ولا ترى في القطعة لفظاً نائياً أو معنى عاثراً ، بل يطالعك منها جمال وابداع ، مع أسلوب مستقيم

لم يعن الشاعر بتعداد النعوت وسرد التشايبه وتقدير المساحات وترتيب الالوان وحشر المحسنات البيانية والبديعية من جناس وتورية وطباق ، ولو عنى بذلك لما ارتحنا إليه ولما استمتعنا بالقطعة كما نرتاح ونستمع بالنعوت النفسية والخواج الصادقة والتأملات في الحياة والفكر الحية والشاعرية الخصبة الممتازة والاحساس المرهف والحل والتنويع ومظاهر السكون الجميلة والازاهير المختلفة

بعض هؤلاء ، أو كلها يسير بنا إلى خفايا النفس الشاعرة ويجعلنا نفهم قيمتها الفنية

وطبيعتها القوية .

إن ناظم هذه القطعة لا يصف لك الموجودات وصفا سطحيا يعتمد على زخرف القول ومبتذله ورخيص المعنى وأدب التقليد ، ولا يطرق الموضوعات السطحية الساذجة بل يضمن القطعة عنصرا من عناصر الحياة التي لا تكمل إلا به : هذا العنصر هو «الفن» ولولا وجوده في الحياة لما احسسنا بوجودنا وبجمال الكون ولما كنا نعرف الحياة ! فالحياتة والفن مادة واحدة ، وكلاهما مقرب في المعنى ، فاذا فرضنا أن كلا منهما مجرد عن الآخر لما بقي شيء من المعاني والصور ولتلاشت مقومات الحياة نفسها

انظر الى السماء تجدها مملوءة بما يدل على قوة خالقها واقتداره ؛ فبدعها قد زينها بمصاييح تنير وتفرى جيش الظلام ، وإن ما فيها من الابداع والجمال يدركه الانسان إدراكا قويا فيقف دهشا امام هذا الصنع الرائع ، وليس في الكون من لا يستجيب لشعوره لمنظر السماء .

أرن الى الخضم ترصنع الله - بديع السموات والارض - يتجلى فيه كما يتجلى ابداعه العظيم المتقن ! فهو يرغى ويزبد ، فيجزر ويمد ، ويسبح فوق صفحته الزرقاء امواج كالجبال ومويجات كالدرر ، وفي كل هذا أثر من آثار الخلاق الواحد العظيم

تأمل مناظر الكون في الليل المنير والقائم ، وفي الصبح الباسم ، وفي النهر الصاحب وفي الجدول الوديع ، وفي الجبل الاشم ، وفي الزهرة المتأرجحة ، وفي الصورة الجميلة وفي كل كائن يبدو عليه الحسن ، وفي كل منظر رائع ، فسترى فيها أثرا مجيدا للشعر .

انظر الى الإنسان وهو آية من آيات الله أتقن صنعها ؛ والإنسان أبداع وأوجد الفن في تصويره وموسيقاه وأعماله التي تمت بصلة إليه .

من هنا تعلم مبلغ الصلة الوثيقة بين الإنسان والفن ، وهي صلة لا تنبتر ما دام

للإنسان فكر يبدع، وقلب يخفق، وعاطفة تتقد، وإحساس يتلقى! وقل مثل هذا في الموجودات الأخرى.

هنا تعلم — أيها القارىء — قيمة الفن حتى أن الله نعت نفسه في كتابه العزيز بأنه (بديع السموات والأرض كل له قانتون) .

الفن هو الذى يجعل المادة صنو الروح !
ولنعد بك أيها القارىء إلى القطعة التى تركناها فأنا كثير الإعجاب بها لأنها فكرة حية مشرقة تعبر عن نفسها ووجودها وحياتها بنفسها ، فناظمها العقاد أحد عباقرة الشعر ؛ والناس كثير الإعجاب والتقدير للعباقرة . نظمها ليعبر عن فكرته نحو « الحياة الفنية » وإحساسه الصادق « بالفن الخالد » فوفق أعظم التوفيق حتى وصل إلى المعانى البعيدة وجعل لخميتها وسداها الجمال والموسيقى .

بعد هذا يجدر بى أن أقف عند القطعة الفنية التى ذكرتها لا لأبين نظرة الشاعر العبقرى إلى « الحياة الفنية » فتلك نظرة فلسفية أرسلها الأدب الحى تتخطى الآفاق والحواجز وتنفذ إلى البواطن ، وهى فى الوقت نفسه تحتوى على مذهبا فى الأدب الفلسفى أو الفلسفة الأدبية .

ربما يخيل إلى من يتلو المقطوعة أن ناظمها العبقرى ينزع إلى تقديس الشكول والاجسام ، والتقييد بالمحسوس فحسب ، وهذه هى الحقيقة غير أنه لا يتفانى فى تقديس الجسم والشكل المحسوس بل يمزج بهما صوفيته وروحيته ليستكمل اللذة ويضيفها من درن المادة ، وليقف موقف الاعتدال بين « طامع الغرب » و « ناسك الهند » حيث رعى « الدنيا » ولا يهيم ، وينعاهما ولكن لا يصوم ، ولكن بين هذين المذهبين له حد قوام ! فليس ثمة « جسم » إلا وينطوى عليه « معنى » ويشتمل على « فكرة » ولا

« معنى » إلا ويعبر عن « محسوس » ويبدو في « جسم » هذه المادة التي تكشف
عن الروح أو الروحية التي تتجسم فيها المادة أو الصوفية التي تجمع بين النقيضين ولا
نقيض ، وإنما هو موقف معتدل بين بين ، وبذلك تكون النظرة إلى الحياة والكون
أشمل وأحفل وأصوب وأقوم ، ولا يرسلها إلا الحكيم العبقري الموهوب ذو الاحساس
اليقظ . فلقد :

ضل من يفصل الحياتين جهلا واهتدى من حوى الحياتين طرا !



سلطان الحب

غزا الحب قلب الملك إدوارد الثامن ملك إنجلترا وامبراطور الهند ، واكبر ملك في العالم يتربع أعظم عرش في الوجود . هذا الملك تربعت على عرش فؤاده امرأة ليست من بيت مالك عظيم بل هي من عامة الناس وطلقت من زوجين .

لكن ، هو الحب . . لا يعرف صغيرا ولا كبيرا . وسلطانه قوى على كل موجود . فهو حر يغزو قلب من شاء ويحطم قلب من يريد . دون أن يحاسب أو يناقش . يستعبد الملوك ، ويحرر المملوك . ويعلى الفقير المعدم . ويقهر الغنى الجبار وهو مبتسم خور .

هذا هو عمل الحب . ! !

عجبا . ! ملك لا تغيب الشمس عن أملاكه . يحكم الفضاء . ويسيطر على الماء ويتحكم في الغبراء . تحكمه امرأة ضعيفة . فترغمه على ترك العرش .

يا للهول . ! !

هذا الملك العظيم بنفسه وتاجه ، بقوته وعرشه . يدع أبهة الملك ، وصولة التاج ، وقوة العرش . ويترك ألقابه الضخمة التي لا يحلم بها الملوك . ويتمناها كل حاكم في الوجود . يتركها وهو أشد ما يكون رزانة وقوة عقل ويسير نحو حبيبته . يفضل حياته معها على كل شيء في الحياة ، ولم لا يفضل ذلك وهي سعادته وغايته ، فماذا يعمل بالملك وهو يقيده ويغل يده . ويقف سداً منيعاً في قضاء مآربه وآماله .

هو الحب . ! إنه سلطان قوى جبار لا تحد مملكته . يصارع كل كائن في

المعمور

يخضع الناس للبلوك ، والملوك يقدمون الطاعة والخضوع للحب . !

بالقوة الحب ! ملك يحكم أقاليم لا تأفل الشمس عنها أبدا ، يترك ملكه
الواسع الكبير ثم يخرج في صمت وسكون . إن هذا فوز عظيم ونصر مؤزر للحب ،
يقف به موقف الفخر والته به نفسه .

نعم ، ترك ملكه هذا — ولكن — عن رضا منه من أجل امرأة عشقها وافتن
بها . من أجل امرأة غادر عرشه الفخم الضخم واعتزل في ناحية من الأرض صغيرة
يعيش فيها هو وحبيبته .

يا للحب ! إنه جبار .

مس سيمسون .

لك الله أيتها الأنسة الجبارة ، هكذا أرغمت ملكا عظيما قويا أن يتحدر من
عرشه وينزل إليك ، وخطفته من بين محبيه : من شعبه ورعاياه . وآثرت نفسك عليهم
لتهنئ به ، وتقاسميه سعادته وهناءته .

إنك اضطررت له لأن يترك ملكه ويخلع نفسه ويأتيك صاغرا لسيطرة الحب في
شخصك المحبوب . ما أقوا كن أيتها النساء على خاب الأبواب والعقول .

وقع إدوارد بين عاطفتين قويتين : الحب . المجد .
ولكن ، وقف إزاءهما وقفة الإنسان ذى القلب الكبير .

إذا اندفع في سبيل الحب وبقي متربعا على أريكة المجد شئيل . بأمته وشعبه ،

يضر بكرامة بلاده ، وإذا اندفع نحو المجد - وترك الحب - فقد فقد قلبه وسعادته . فلا
يقدر على العيش ولا يقوى على الحياة . ما دام من يحب لا تقاسمه حياته وتشاطره
تفكيره وسعادته . والجمع بين الحب والمجد أصعب من الجمع بين النار والماء في هذا
الموقف الدقيق .

ولكن أدوارد حكيم . والحكيم لا تظهر حكمته إلا في أمثال هذه المأزق الحرجة .
فعمد الى عقله وعاطفته . الى حبه ومجده . فمزجهما معاً وصبهما في قالب محكم ثم
أخرج جوهرة هي خلاصة تفكيره وحكمته ، هذه الجوهرة ، أن يتنازل عن عرشه
فيرضى بذلك عقله والدستور ، ويولى وجهه شطر من يحب فيها قلبه ونفسه فبذلك
يرضى عاطفته وميوله .

ولقد كان ذلك ، فأرضى الشعب والقانون ، ولكن تركهما في صمت هادىء حزين ،
ووجوم مطبق ، ومضى الى حيث يريد ، مضى الى الروضة التي وعد بها المحبون .

فعش يا إدوارد هنيئاً ، ولتعش سعيداً عزيزاً . فهناك نفوس لا عدد لها ترجو لك
الدوام والبقاء ، وان تحيا حياة المحبين السعداء .

وانت يا سيمبسون ، اجعل من قلبك عرشاً عظيماً يتربع عليه محبك ومن هام بك !
وكوني له كونا كبيراً أو مملكة واسعة يحكم فيها ، وكوني له ذلك الخل الوفى ، فمن
أجلك هجر مملكته حتى يتعزى عما فقد ، ويهنأ بما وجد . فأسعديه !

* * *

إدوارد وسيمبسون .

اسمان شغلا العالم ، واسترعيا انتباه النوع الإنسانى مدة من الزمن . وسيتجدد هذا
الانتباه كلما خفق قلب . ! وليكونا كذلك يشغلان عالم الحب الرحيب ، بعيدين عن
عين العاذل الرقيب .

لنسدل الستار على ملك غادر العرش راضيا من أجل محبوبته ، وعلى محبوبته
هزئت العالم

ولنسدل الستار عليهما لينها بالحب والحياة والسعادة ، ولندعهما يتمتعان بقبل
الحب والغرام ، فقد دفعا الثمن غاليا ، وأى ثمن أغلى من فقد العرش ؟ ! (١)

(١) حضرنا ذات ليلة عقب تنازل الملك إدوارد الثامن ملك إنجلترا إحدى
دور السينما فرأينا على الشاشة البيضاء جلالة الملك إدوارد يلقي وثيقة التنازل على
أفراد شعبه عن طريق المذياع ، بنبرات متهدجة ، فيها بكاء ، وفيها أسف ، وأفراد
الشعب في الحشد صامتون يحيم عليهم الحزن العميق ، يلوحون بمناديلهم البيض تحية
وداعا لهذا الملك المحبوب .

نقاش

جمع الأستاذ حمزة شحات تجاربه وصور تفكيره ومشاعره وحقائق الحياة ومذهبه فيها ، واستخرج منها خلاصة وافية ، ثم ألقاها كمحاضرة في ندوة الاسعاف ، وفق في أسلوب عرضها وفي القاءها جد التوفيق .

وقد كانت هذه المحاضرة فتحاً جديداً في تاريخنا الأدبي الحديث ، وحركة نشيطة سرت في نفوس الأدباء وعقولهم فوجهتهم الى التفكير الجدى والتأمل العميق والبحث الدقيق .

والأستاذ لم يك خلياً في محاضراته يقنع من الحياة بالنظرة العابرة والاختيار السهل والحقيقة التافهة : بل تغلغل في صميم الحياة وفحص حقائقها ونقد مقاييس الفن والجمال وقعد القواعد ، وسدد الى الفضائل الشائعة سلاح تجريده فعراها عن أثواب العرف والاصطلاح والضرورة وجعلها « كومة » من الرذائل التي اتسمت بسمات القداسة فأطلقت عليها « فضائل » ثم استضاء بالدين والمنطق والحرية في تشييد صرح الفضائل الصحيحة بعد أن رازها بعقله وحسه ، وقد جرد نفسه من الرغبات فاستطاع أن يصدر حكمه ويسمى الاشياء على حقيقتها لا تقيده الرغبة والهوى في ذلك .

والحق أن هذه المحاضرة كانت سبباً في يقظة العقول والآراء ونشاطها فانبهر الأستاذ عبدالله عريف لنقدها وزنتها فقدم مقالیه : « ضريبة الإعجاب » ثم « تكاليفها » وكتب الأستاذ محمد عمر توفيق رأيه في التجريد فوفق بين رأى حمزة والعريف .

ونقد الأستاذ العريف قول الأستاذ حمزة : « وانك لتلقى المنظر يلقاك بألف معنى

أول ما تلقاه ، ثم لا تزال نفسك دائبة في تحليل معانيه حتى تنتهى بها الى الإصفاء والإفلاس ، بقوله : « إن الصورة الجميلة القوية لا يذيقها — ونعني بالأذابة فقدان المطلق — إدمان النظر وارتواء الحس ، إنما يقلل أثرها فقط من غير أن يدفع بها الى الإصفاء والإفلاس ،

والفرق بين النظرتين ظاهر ؛ فحمزة يلقي نظرتة على الصورة الفنية وهو كالجائع المنهوم أو الظامى اللاهث ، فتشبع عواطفه ويرتوى احساسه منها ثم بعد ذلك لا يقف عندها فقد شبع وارتوى ومنيت بالإفلاس والإصفاء ، فيمضى أو ينتقل الى صورة أخرى تكون أكمل وأقوى وأعظم حقولاً بالمعاني ، وهذا ما تعمله النفس القوية ولكن الأستاذ عريفاً يتقدم الى الصورة الفنية نفسها فيلقى نظرتة اليها قانعاً بمظهرها وبما تحبوه من لذة ومتعة يسيرتين : فهو بالطبع يجد فيها ذخيرة من المعاني يخيل اليه أنها لا تنفد ، وكأنها تتوالد وتحفظ بخلودها .

ورأينا يكاد يتفق مع رأى الأستاذ حمزة ، نرى أن الصورة مهما حفلت بالمعاني فالنفس المحسنة القوية تدركها وتتغلغل فيها ، ولا تزال تتناولها حتى تنفد ، وهنا تصبح هذه النفس فى غنى عن هذه الصورة لأنها التهمت ما فيها من معان ! وتتطلع الى أخرى ودليلنا فيما نذهب اليه التجديد المستمر والتغير الدائم ، والتطور جزء من نفوسنا فهى تسير على سنته ، وكلما رقت درجة لا تقف عندها وقفة التعب العاجز ، بل تغادرها الى أعلى أو تهبط لتضمن الحركة والبقاء والتجديد ، فالحياة حفيلة بمعانٍ وصور وأشكال لا نهاية لها البتة ، والزمن جزء من الحياة عظيم ، والتغير سنة الزمن ، والتطور قاعدة الحياة .

فحين إذ نقف عند صورة من الصور ونهبط عواطفنا واحساسنا ومشاعرنا ولا نريد أن نزيحها ، أو قيدتها أو أطلنا الوقوف عندها أو ألهمتنا عن طلب غيرها فانما

نحن متخلفون عن موكب الحياة الذى ما يفتأ سائراً فى طريقه مادام فى الكون قلب يخفق
أو نجم يتألاً ، أو غصن يهتز

إن اطالة الوقوف لدى صورة ما ليس دليلاً على حقولها بشى المعانى وشقى الصور
أكثر مما يدل على فقر هذه النفس وجمودها وضعفها ، حيث ترى الرى من هذه
الصورة وما تحتوى من معان والانتقال الى غيرها فجيدة أليمة لا تطاق غير عالمة
أن الكون مملوء بالصور والمناظر التى يكاد يضيق عنها العد .

بين هذه النفس ونفس البخيل نقطة تلتقيان فيها ! فما هى هذه النقطة ؟

هب أن بخيلاً حصل على ريال — مثلاً — ألا يعرض عليه بنواجزه ؟ بلى ، لأنه
كل ما يملك من ثروة . ! ألا يخرججه فى كل حين من مخبئه فيلقى عليه نظراته ليطمئن
خاطره بوجوده ! ؟ بلى ، إن الريال ثروة جد عظيمة لديه

إنه فى نظر البخيل ينبوع فياض يوحى اليه معنى السعادة ومعنى الغنى ومعنى الأمل ،
وتتعاقب عليه هذه المعانى وتتداعى فيشعر فى أعماق نفسه بالارتياح والسعادة ،
ويرى أن الريال معين لا ينضب لتلك المعانى المتدفقة !

نحن نرفع صديقنا العريف عن أن يكون بين نفسه الغنية الشاعرة بالحياة والقوة
والنور والجمال وبين نفس البخيل المريضة وجه شبه .

إن صديقنا العريف يعلم جيداً أن النفس القوية الغنية لا يضعفها الارتواء من
صورة أو منظر ثم تركه الى آخر لأنها غنية وحسب ، فهى لا ترضى بالجمود لأن
لديها ذخيرة وركازاً يسمحان لها بالانتقال الى غيره انتقالات متوالية ، فالوجود
يطالعهنا بصوره المكسوزة ومناظره المتجددة ، وتزف اليها الحياة مواكبها الكثيرة
لنختار منها ما يلائم مزاجنا ويتفق مع طبيعتنا ومواهبنا .

إن نظرنا الى المنظر أو الصورة لانغمى منها تجريدها من المعانى منطقياً ، بل التهام

ما فيها من معان حتى تكون في اعتبارنا محكوما عليها بالافلاس . ونحن إذ ننتهي من متعتنا الفنية لانغادر الصورة وفي أنفسنا ذكرى خجعة تركها بل لن نحتلها أمثال هذه الفجائع ، لأننا لا نعد الترك خجعة وإنما نراه حيوية وسمواً وانطلاقاً .

وإذا سرنا على منطق نظرة العريف الى الصورة الفنية وقلنا إنها لن تصفى ولن تفلس ولكن ادمان النظر اليها وارتواء الحس منها يقللان من أثرها فقط فانما نعطل عمل الزمن والتطور ، فلو أن كل نفس شاعرة قنعت بما حصلت عليه من أشكال وصور لما كان للتطور قيمة وعمل ! بل لفقدنا أخم انتاج العقل والعاطفة وأحسنه !

أريد الاستاذ عريف أن يغالب الواقع ويتناول عليه ويتجاهل الزمن وقانون التطور ؟ ما الجدوى من الوقوف على صورة قد التهمت كل معانيها بالنسبة لمن ألهمها ؟ أأمسى الكون فقيراً إلى هذا الحد من الادقاع ؟

قال صديقنا الاستاذ توفيق في مقاله « التجريد » ان نظرة العريف الى الصورة الفنية هي نظرة الشاعر ، ونظرة حمزة هي نظرة الفيلسوف أساسها التجريد والتعزية .

أما نحن فلا نوافق صديقنا توفيقاً فيما ذهب اليه ، فليس العريف بالشاعر السباق في ميدان الشعر ، وأما حمزة فشاعر مبدع فنان — او مفن على رأى اللغويين — فلا يصح أن تكون نظرة العريف نظرة شعرية في حين أن موهبة الشعر ليست من خصائصه وليس أشعر من حمزة إلا اذا سلبنا هذا خصيصته الطبيعية ، وقلنا عنه إنه ينظم الشعر تصنعاً ، وهذا مالا يرضاه له الناس وهم قد عرفوه شاعراً

وأنا أقول في صراحة ان حمزة ليس فيلسوفاً ، وإنما هو شاعر مرهف الحس الى حد بعيد ، فيسبق احساسه عقله في ادراك المعاني والصور والاشكال حتى لا يفوته الركن والهمس والخفي ادراكاً عجيحاً ، وان نعقله اشتراكاً في ذلك الادراك ، ولكنه اشتراك لا يتساوى كيفه وكمه مع الحس المرهف ، فهذا سريع التأثير والاندفاع

والانطباع بعيد عن ربة القيد ولا يجثم عليه الجمود ، أما العقل فحسبه أن يكون معقولا .

الشاعر والفيلسوف يصدران (من نبع واحد ، وانما تتفرق وسائلهما وأساليبهما وطرقهما ، كما تخرج عدة أنهار من نبع واحد يأخذ كل منها طريقاً مختلفاً .

(وأحدث تصوير للشعر يقول إنه هو حديث العقل الباطن ، واذا تأملت الفلسفة تأمل درس عميق لم تجدها سوى خواطر ما يسمى بالعقل الباطن ، والشعر والفلسفة ليسا سوى بحث عن « المعرفة » تتخذ طريق استشارة الاحساسات والعواطف آنا ، وتتخذ طريق التنقيب الرزين المتد آونة أخرى ، وهو في كلا الطريقين يحاول أن يستشف كنه النفس البشرية ولن يستطيع ، وهو لو استطاع لحرم العقول والاخللة متعة الدنيا وغذاء الروح ، (١)

وظن صديقنا توفيق أن حمزة ينحو في رأيه عن اصفاء الصورة وافلاسها منحي الفاسفة لتحليله وتجريده ، والواقع ان الشاعر الحساس محلل مجرد أيضا .

ورأينا : أن نظرة الصديق حمزة هي نظرة الشاعر ، لانه سوءوم ، والسامة من الواقع بعد تجريده والتهام معانيه تطلعا الى غيره دليل الشاعرية الحية ، والجمود عند شيء ليس من طبيعة الشاعر وانما هو من طبيعة العالم والفيلسوف أكثر من غيره والانسان - سيما الشاعر - مهما بلغ من السمو والتقدم ، فهو يحس بالنقص دائما ، ويحس بالحاجة الملحة والضرورة الى تكميله ، فهو دائم الانتقال والطلب كثير الاماني دائب السير في طريق الكمال - وما اشد امتداده - متطلعا الى قمة المثل الاعلى آخذاً في الصعود اليها لكن ما أعظم ارتفاع ذراها وتناهيها فهو لن يقنع بالحياة في حاضرها وحاضره على فهم أنها الحد الذي يجب الوقوف عنده أو المثل الذي يحتم الاطمئنان اليه فذلك ليس من دأب الاحياء ، إنما هو من دأب الخلى من نضب في نفسه معين الامل والحياة

(١) ما بين القوسين ليس من كلامنا وانما هو لاديب مصرى لا نذكر

اسمه أتينا به استشهادا

ونقاش ايضاً

محمد عمر توفيق أحد أدبائنا القديرين — ولا شك — فهو كاتب يجيد فن الكتابة كما يمتاز بتركيز الفكرة والتحليل والاسهاب فيما يعالج قلمه من موضوعات مختلفة ، ومرد كل هؤلاء على ما أظن الثقافة الواسعة ، فهو من أشد الأدباء قراءة واطلاعا على الأدب القديم والأدب الحديث شعراً ونثراً ، وأحسب أن حظه من المواهب والملكات الفنية حسن موفور يعادل ما لديه من ثقافة مكتسبة ، ومن طبعه إذا أراد أن يكتب في موضوع أن يعنى بفكرته عناية كبيرة ، حتى أنه ليقضى أياماً دراكاً في تخميرها وتركيزها وتنسيقها ، فإذا ما نضجت وكمل نموها اتجه إلى الأسلوب يعنى به ويوليها اهتمامه ، فتتعدل الفكرة والأسلوب في القوة والمتانة ، ولكن جمال الأسلوب وبهرجه قد طغيا على جانب الفكرة فكان أظهر منها في هذه المحاضرة التي ألقاها عن « الأدب الحجازي بين المد والجزر » وهي من أحسن ما ينتج الكتاتيون والأدباء في بلادنا .

وعرض في محاضرتة للحياة الأدبية تتجاذبها القوة والضعف ، والنشاط والفتور ، والسمو والانحطاط

وتكلم عن نشأة الحياة الأدبية وما أثر فيها من عوامل ودوافع ومؤثرات ، وسبب اتجاهها إلى الأدب ، وعن الفرق بين ثقافة الأديب وغير الأديب كالمؤرخ والرياضي وعلماء اللغة والاجتماع والدين وعن فوضى التهام الثقافات ونظامها وأيهما أجدى على الأديب ، وعن العقبات الناهضة في وجه بعض رواد الثقافة ، وعرض للشهادة القائمة بين الأديب والناس ، وما بينهما من فوارق ذهنية وغيرها ، ونظرتهم إليه نظرة هزة وسخرية وتحقير ، وعرض لكثير من ملابسات حياة الأديب في بلادنا وما يعتورها من حياة وموت وركود ونشاط .

والجوانب القوية في المحاضرة كثيرة فما فيها من الفكر غنى بالقوة والذخيرة وحفيل بالحقائق والدراسات ، فقد أصاب المحاضر حينما أشار إلى الأنانية ومظاهرها في نفس الطفل ثم الشاب ثم الشيخ حيث قال : « فالطفولة هي أنانية مضحكة محبوسة في جو ضيق وهي في الشبيبة متحمسة طاغية تتلمس الاعلان والظهور حيث يبصرها الناس ، ثم هي في دور الشيخوخة تتخذ أسلوبا من الوقار والحصافة كآسلوب الشيخوخة نفسها ، وأصاب في كلامه عن الفرق بين ثقافة الأديب وغير الأديب ، فثقافة الرياضي - مثلا - » تقف عند حد معين من الدرس والمطالعة ، ولا تتنكب المنهج المرسوم لها لتسلك من المناهج ما لا يرفع شأنها في دائرة اختصاصها ، ولكن ثقافة ذلك ثقافة عامة لأن موردها الحياة بما تشمله من معان وألوان ، وما تتمخض عنه من انتاج وذخائر ليست حبيسة على لون معين » وأجاد في غير هذا وذلك أيضا .

فالفكرة التي تناولها الأستاذ توفيق من نواحيها العامة قد أبدع في تركيزها وتحليلها وجملة القول ان المحاضرة تنتظم أفكارا قوية عنيفة وألوانا من التعابير الرشيقة الرائعة والاشارة إلى مواطن القوة والجودة تكلفني استعراض المحاضرة كلها : فكرة فكرة ، ورأيا رأيا ، ويكلفني التعليق عليها جهدا كبيرا في حين أن الطبيب ينصح لي بترك المطالعة والقراءة استجماما للصحة واشفاقا بنفسي ، ولكنني مريض بالأدب — وهو أشد من مرض الجسم — ويخفف من غلوائه أن أقرأ وأن أكتب ، وأنا أعلم أن في هذا إرهاقا على جسمي ، ولكن فيه تلبية نداء العاطفة وتغذيتها ، فلا أقدم هذا على ذلك ، والطبيب بعد سيقدر الموقف ، ويغض عن الهفوة .

ولنبدا الآن في النقاش : —

تكلم المحاضر كلاما عاما عن الأدب الحجازي ولم يتلمس الامثلة والادلة في توضيح ما يذهب اليه وتأيد أقواله فترك للقارئ المجال رغيبا يتخبط فيه ، وهذا ما نؤاخذ

عليه في محاضراته ، فهو لم يذكر نماذج من نتاج الأدباء الذين أظهرهم الجزر أو أخفاهم المد ، والأدباء الذين حافظوا على سمعتهم الأدبية فكانوا خير مثل يضرب ، والأدباء الذين برزوا حديثاً في الحياة الأدبية بقلوب ملؤها الحماسة ، ونفوس تشتعل قوة ، وأفكار نهمة تطلب الغذاء ، وأرواح حية تصبو إلى السمو ، ولعله أغفل ذكر الاسماء والبراهين إشفاقاً على سمعة بعض الأدباء الذين تؤلمهم قالة الحق ، ولكننا نعد هذا — إن صح — جنباً أدبياً ، وصديقنا المحاضر يتمتع بجرأة أدبية محمودة — كما نعلم — من ماضى حياته الأدبية وحاضرها ، فما الذى اضطره إلى أن يقف موقف الحيرة والتزمت ؟ أهو إشفاق ورحمة ؟ أم هو الخوف حال بينه وبين الحقيقة ؟

وإذا عدونا هذه الناحية فإن صديقنا توفيقاً يقع في ورطة أخرى حينما يزعم « أن الأدب غمرة من غمرات الاحلام يسمح فيها الطالب أو الشاب ، والباعث له على ذلك العاطفة المحتاجة والخيال المجنون ، وفي الأدب والفن والشعر « تجرد النفس الحاملة مسرحها الفتان ، وهناك تنثر مشارعها وتنفس الصعداء ، وهناك تعثر على أكاذيب الأخيلة فتلتهمها ، فيتسع أفق الحلم ، ويبسط الشعر أجنحته عليها فلا تعود تبصر وتسمع وتحس إلا من خلال تلك الأجنحة المتكسرة » وإذا صح هذا في بعض نواحي الأدب فإنه لا يصح أن يطلق على الأدب كتعريف له ، وإلا لسكان حلم المريض بالشفاء ، وأمنية المفلس في الثراء ، وأمل الجائع السغب في طعام شهى لذيد ، هو أروع الآداب وأصدقها إن كانت الآداب هي غمرة من غمرات الاحلام يسمح فيها على حد تعبير المحاضر الكريم .

ولكن الأدب ليس هذا ، إنما هو التعبير الجميل عن الأخيلة والمشاعر . . وليس الأدب خيالاً كله ، بل فيه جوانب قوية تمثل الواقع والحقيقة من تصوير الحياة

الاجتماعية ونقدتها وما تتمخض عنها ، وما فيها من حقائق وأوهام وخرافات وأباطيل ،
والخيال — بعد — إن هو إلا ملكة فنية خصبة شأنها التوليد وتكملة النقص وإبراز
الحقائق في صور فائقة شائقة تعين على الفهم والادراك .

ولنتقل إلى نقطة أخرى من نقاط نقاشنا للصديق المحاضر قال . -

« ونقف هنا وقفة قصيرة عند التهام الثقافات ، أيجب أن تشمله الفوضى أو النظام
وتوضيح ذلك أيكون الأديب مرسلًا بينها يقلب منها ما شاء ويدخر ما شاء دون أن ينظم
التهامه لذلك ودون أن يحسب حسابًا لهذا التخليط الثقافي في فكره وما يتبعه من سوء
هضم وسوء انتاج ؟ أو هو لا يجري عليه هذه الفوضى فعلا أو اضطرابًا فيكون مطلق
اليدين يأخذ من تلك ومن هذه ومما هنا غير مبال ، وغير محاسب عليه ؟

« والجواب على ذلك أن الفوضى لم تكن لتثمر إلا جزافًا ، وهي وإن كانت لا تتمشى
بسننها ونتائجها على ذوى الفن فإن لها أثرها فيهم وفي انتاجهم على أى حال . لذلك
إذا أتيح للأديب أن ينظم ثقافته ويفرض لنفسه مناهج متتالية فيها ، وإذا أتيح له أن
يملك سبيلها جميعًا سيلا سيلا وخطوة هنا وخطوة هناك ، كان ذلك على ما أحسب
أجدى له ،

ثم استطرد المحاضر في الحديث عن العقبات التي تعترض الثقافة ومثل للفوضى
ونتايجها السيئة بقوله : -

« تصور امرأتهما طوى يومه على مسغبة شديدة وضنك مريب ، وتصوره بعد
ذلك وقد أطلق فجأة على مائدة حافلة بألوان من الغذاء فيها الحلو والجيد والمرىء ،
وفيها بعدما لا يتلام مع لون آخر في نفس المائدة بما إذا التهمه صاحبنا لا يضمن لمعدته
الخير كل الخير

« إنه ولا ريب سيغتال ما بين يديه جميعا دون أن يحسب حسابا لهذا الاغتيال

الفوضى وما ينبجم عنه من مشاكل تتصل بالامعاء »

ثم قال :

« لذلك كان الأديب في تلقفه الآثار الأدبية والعلمية وقراءتها على ما أظن وأحسب غير حريص على ترتيبها بقدر ما هو حريص على هضمها مرتبة أو غير مرتبة وله المexcuse، ولكن هذه المexcuse لا تقوم دائماً، فلقد يستطيع هذا الأديب وقد تقدمت به الحياة أن يسير في معارج الثقافة سيراً حثيثاً ولا كسبه هادئ، يقظ قدير على المواءمة بين السبل وركوبها سبيلاً بعد سبيل » .

مادام صديقنا المحاضر أراد أن يقف وقفة قصيرة عند التهام الثقافة فنرى أن ليس من الخير أن نخلفه وراءنا وقد سرنا معه طويلاً ، وأولى لنا ثم أولى أن نجعله يرافقنا في الطريق فلعله واصل معنا الى غاية ، فالمحاضر كأديب له الحق في ذلك علينا، وكصديق له الحق ايضاً .

ما الغرض من فوضى التهام الثقافة ونظامه ؟ أمعنى نظام التهام الثقافة أن يسير على نهج معين ووتيرة لا تتغير بحيث يقسم الكتب والأبحاث والموضوعات على أيام الأسبوع فيقرأ مثلاً في يوم السبت ما يتعلق بالدين ، وفي الأحد ما يتعلق بالاجتماع وفي الاثنين ما يمت بسبب أو أسباب الى الفلسفة ، وفي الثلاثاء ما يتعلق بالأدب وهكذا أو تقسم على ساعات النهار ، ففي الصباح الباكر يتلو الشعر وفي الظهر يدرس الفلسفة وهكذا .. أم ماذا يريد صديقنا المحاضر من هذا النظام ؟

إنه لا فوضى في الثقافة ولا نظام عندنا ، فالنفس التي تحب القراءة وتميل الى الأدب والفن والعلم تتلو أول ما تتلو ما تفهمه وتستسيغه ، فأنا في اتجاهي الأدبي اتجهت الى القصص المفهومة السهلة والمقالات الأدبية الساذجة وكنت أقرأ وأدرس ما يستوى ومداركي

وما لا يسمو على فهمي .

فالمنفلوطين يقرؤه الناشئون في الأدب لأنه سهل الهضم ويعجبهم لأنه لا يتعمق ولا يخوض المعمعة ولا يغوص ، وإنما هو يقنعون بالاشكال والظواهر ويقربها إلى الافهام وهو رجل اسلوب وانشاء وصيغ ورنين ، والأديب في دور النشوء أحوج ما يكون إلى مثل هذا يأخذ بيده ، ثم هو من نفسه يتطلب غذاء جديدا ولا يقنعه ذلك بل يمتد في سبيله حتى يصطدم بالعقاد وصدق وأدهم فلا يكاد يخوض معهم البحر إلا بعد أن يتمكن من الثقافة تمكننا جيدا ، لأن هؤلاء لا يقنعون من الحياة بأغراضها الظاهرة واشكالها وإنما ينفذ إلى بواطنها واسرارها فيكشف عن خباياها ومساوئها ، وما تدبهم تحوى ألوانا من الغذاء لا يستسيغه إلا ذووا النضج الفكري .

واعتقد أن المحاضر نفسه لم يلتهم الثقافة عن طريق النظام ، والفوضى ، وإنما كان يتلو كل ما اتصل إليه يده من الكتب والصحف والموضوعات التي يفهمها ويلتزمها بدون أن يتجه فكره إلى «عملية التنظيم» التي يعرفها الصديق فكان هذا الأديب الذي نقرأ آثاره فتعجب بها .

إن الأديب يميل بطبعه إلى قراءة ما تستجيب له نفسه ويتفتح له قلبه وتركن إليه عواطفه ويفهمه عقله ، سواء في ذلك إذا تلا القصة أو المقالة أو الرواية أو الشعر أو غير هذا وهذا وذلك ، ويلتزم كل موضوع يفهم ما جاء فيه من معان ومرام ، ويدع كل موضوع يعلن العصيان على فهمه . والعقل الباطن إذا ألتى في بوتقته الموضوعات المختلفة التي تصبح خراطر فيما بعد هو الذي يتولى نظم ثقافة الانسان وترتيبها وتنسيقها

إن المحاضر فسرفوضى التهام الثقافة « بالخلط » وذلك حينما يرسل الأديب نفسه فيها إرسالاً يقلب منها ماشاء ويدخر ماشاء دون أن ينظم التهامه ، ورأى أن هذه الفوضى أو هذا التخليط يضر بالفكر . وضرب مثلا بالجائع السغب يطلق على خوان يكون

جماعا لعدد من ألوان الطعام فيلتههم ما أمامه بدون تفكير ولا حساب ، فيأكل من هذا ومن ذاك، وهنا لا يضمن لمعدته الخير كل الخير ، إذ يعقبه سوء هضم فمرض ثموت!!

إذا صح هذا المثل - وهو صحيح - في المعدة فلن يسرى مفعوله على الفكر والعاطفة، والفوارق بين المعدة وعالم الفكر والاحساس عظيمة جد عظيمة ، فالمعدة محدودة ضيقة إذا امتلأت بالطعام وقفت عند كفايتها ، والزيادة بعد شرمستطير ، ولكن الفكر مطلق لا حدر له ، فعانى الكون وصور الجمال وأعاجيب الوجود - وكلها من أغذية الفكر والعاطفة - ليست محدودة يحصرها العد ، فإذا تركت ألف وجه وألف صورة وألف أعجوبة فاني واجد من هذه الذخائر والكشور شيئا كثيرا كثيرا غير هؤلاء ، فان في الكون من هذه الذخائر والكشور ما لا يطاق تعداده ؛ ولا تنفذ مصادره ومنابعه وروافده، والفكر والاحساس لا يضيقتان بهؤلاء أيضا

وإذا صح هذا - وهو صحيح ولا شك - فان التهام الثقافة على أي نوع وانسق وصورة يجدى الاديب . فلا يخشى على الفكر أن تصيبه التخمة وسوء الهضم مادام أنه، يسمى على التحديد ومادام غوره بعيدا جدا بعيد .

هذه كلمة أوجتها اينما المطالعة العجلى لمحاضرة صديقتنا توفيق وأنا أعتقد أن صدره لا يضييق بالنقد مادام فيه تصحيح المقاييس والاحكام.

ولعلنا نعود الى المحاضرة مرة أخرى بالنقد والتحليل ، تقديرأ لأدب هذا الكاتب

المجيد

الفيض آبادى

كان الأستاذ عبد القدوس الأنصارى خير ذاهب فى التفاؤل إلى حد كبير بأن أدبنا صالح للتصدير ، ولعله ألقى « بمجلته » إهابة بالأدباء أن يجودوا منتجاتهم الأدبية ، الا أنه رأى حينما كان فى مصر حفاوة زعماء الفكر بالأدب السعودى وتقديرهم لشعر الحجاز وأدبه ما جعله يعتقد بصلاحيته « للتصدير »

وكان كتابه الذى ألفه عن أحد بناء العلم فى هذه البلاد خير شاهد على ما لأدبنا الجديد من أثر فى مصر التى تنزع حركة الفكر والنشر .

وأشكر للأستاذ الأنصارى أياديه على أدبنا ، فهو — بحق — قد أعلن عنه بشتى الوسائل ، بمجلته التى تحمل نماذج من الأدب الجديد ، وباتصاله بالصحف والمجلات ودور النشر ، وبكتابته الجديد وكتبته التى أصدرها من قبل ، وفى طليعتها كتاباه الممتازان « آثار المدينة » و « اصلاحات فى لغة الكتابة والأدب » وبالاكتفاء الذى قوبل به من أرباب القلم والبيان .

لم يكن لأدبنا ذكر فى تلك الديار ، ولكن الأستاذ الأنصارى استطاع بتلك الوسائل أن يرى مصر أن لدينا أدبا يستحق أن يأخذ مكانه فى « معرض الكتاب العربى » وفى المكتبة العربية .

ولقد أبصرت ما بذل هذا الكاتب القدير فى مصر من جهد مبارك فى سبيل الدعاوة لمليكه ولبلاده وللأدب فى هذه البلاد التى رقدت ألف عام وأكثر ثم استيقظت على صوت العاهل الغلاب « جلالة الملك ابن سعود »

وأبصرت مالى الأستاذ الأنصارى من الحفاوة والتكريم ما أثلج صدرى لأن

التقدير الذى ناله هو تقدير لكل سعودى ونخر لنا جميعا ، وزاد من إعجابى أنه كان مثلاً رفيعاً للخلق الحجازى النبيل .

وما أشك أن ظهور كتاب « السيد احمد الفيض أبادى » للأستاذ الأنصارى وديوان شعرى « الهوى والشباب » وكتابه « الخرج والشرائع » و « محمد بن عبد الوهاب » و « احلام الربيع » للأستاذ طاهر زحشرى ، و « رحلة الربيع » للأستاذ فؤاد شاكر ، و « الصباية » و « رجال الحجاز » للأستاذ السيد ابراهيم هاشم فللى أقوى دعاوة لتقدم هذه البلاد فكرياً .

أما هذا الفصل فقد كسرتة على الكتابة — بايجاز — عن مؤلف كاتبنا المرموق الأستاذ الأنصارى آملاً أن أجد من الفراغ ما يتيح لى الكتابة عن المؤلفات التى سردت أسماءها .

* * *

« بناء العلم فى الحجاز »

هذا عنوان جد ضخم ، وكنت قد سمعت به قبل أعوام من الأستاذ الأنصارى ، وكنت أظن أن المبالغة تأخذ نصيبها حتى اذا رأيت آثار هذا « البانى » الكبير أيقنت بعظمته التى صورها المؤلف فأتقن التصوير .

إن هذا الرجل الكريم وقف كل جهده وكل ماله وأسرته فى سبيل إنقاذ المدينة المنورة من الجهل ، ووفق فى ذلك أعظم التوفيق ، وكان بعيداً عن الدعاية « المسرحية » لنفسه والتطويل لأعماله لأنه رجل مفطور على الخير وعلى الإحسان فى السر ، ولأنه لا يريد إلا وجه الله وحده ، حتى اذا مات ورأى الأستاذ الأنصارى أن مواطنيه من الكتاب نسوا الرجل الذى خدم الدين وخدم العلم والصناعة والفن الخدمة الصادقة التى لم يرج بها إلا الله وقام — وحده — بتسجيل مفاخر هذا الرجل

الكبير وتحليل شخصيته ، فكان هذا الكتاب القيم الذى نتلوه فنتلو فيه الجمال والفن والعذوبة .

وقرأت الكتاب فألفيت أن مؤلفه قد أجاد فيه لأنه عنى — إلى جانب عنايته بسرد السيرة والحوادث والأرقام — بتصوير الشخصية حتى لكأن القارئ يرى صاحبها وقد التى ظله أمامه .

ان المكتبة العربية — ولا أقول الحجازية لأنه لم تعد لنا مكتبة لها أثرها حتى الآن — فقيرة إلى كتب التراجم ، وكتاب الأستاذ الانصارى فى المكتبة العربية بارز مشهود لأسباب أعظمها أنه من الحجاز الذى بدأ برقى « سلم » الحضارة والعلم والادب منذ أعوام ، وإن كاتبه وفق فى التأليف توفيق كتاب مصر الافذاذ .

الكتاب جيد ومفيد يجد فيه الاديب متعته ، كما يلقى به العالم طلابه ، لان المؤلف وفق فى كتابه هذا توفيقاً كبيراً ، أما أسلوبه فكان كثير الرواء ، بادی البهجة والفتنة والرشاقة ، وهأنذا أنقل فقرات منه من غير انتقاء للتدليل :

جاء فى ص ٢ : « كان الفتى قد بلغ السادسة عشر من عمره ، وكانت الاحلام المعسولة تتراقص أمامه كما تتراقص مياه الغدير الصافى للظمان فى الفيافي الجرداء ، وكانت الحياة فى نظره رؤى واحلاماً فيها الكثير من الغموض والاضلام ، وقد أكتسبته الحوادث والاحداث الجسام التى مرت عليه قطعانها وهو ناعم الاظفار مرونة محدودة » وجاء فى ص ١٣ : « وكان فى عروق اليتيم دماء الإسلاف ، وقد صرخت هذه الدماء فى شرايينه »

وفى ص ٣٧ . « جلس السيد أحمد وراء منضدته الممتدة عرضاً فى أحد جوانب غرفة الادارة يستعرض ما يستعرض من شؤون الادارة ، فهو حيناً منهمك فى قراءة رسائل البريد الخارجى ، وحيناً مسترسل فى تلاوة رسائل البريد الداخلى . وفى أثناء ذلك كان يحجب عما يستدعى الإجابة من تلك الرسائل ويتجه بعض الأحيان إلى هؤلاء

المراجعين الواقفين أمامه من الطلبة والمدرسين فيصغى بقلبه وسمعه إلى آراء هؤلاء ومطالبهم . .

وفي ص ٤٩ : « وهذه المدينة النبوية هي القلب الروحي لعالم الإسلام فمنها انتشرت أنوار المعرفة والهداية والإصلاح إلى أرجاء المعمورة ، وفي إحياء العلم بها بعد خموله إحياء ضمني للعالم الإسلامي في شتى شعوبه وأقوامه ، والقلب إذا صلح صلح سائر الجسد وابتسمت الصحة للحياة . »

وهذه الفقرات تدل على رشاقة الأسلوب وسلامته وجماله ، أما الفكرة وقوتها ونضجها وبراها في ثوب أنيق فيدل عليها الكتاب .

وأنا أعتقد أن لدينا فريقاً من الأدباء يؤمله تقدم غيره سيقابل هذا الكتاب — وكل كتاب لأديب سعودي — بغير ما يستحق من التقدير والتكريم ، ولكن هذا لن يؤثر في صديقنا المؤلف المعروف بقوته ومتانته وعدم مبالاته الاحقاد والذحول .

نعم إن لدينا فريقاً من الأدباء — لا أسميه — يغضبه أن يبرز غيره وينال من السمعة الحسنة والصيت البعيد ما يمدح لأدبنا أن يأخذ طريقه إلى الظهور لأنه شديد الحسد لكل نجاح يصيب سواه ، وقد نالني — أنا نفسي — منه ما أكره ، ولكنني نبت — والحمد لله — وما زلت في سبيل الذي رسمت وشققت .

وقد لقي الأستاذ الأنصاري من الجحود والنكران من هذا الفريق ما لا يطاق ولكنه استدبره ومشى في طريقه بين هتاف المعجب وتصفيق المقدر ، وحسبه أن يجد من مواطنيه المنصفين ومن زعماء الأدب في مصر والشرق العربي التقدير الذي لا مزيد عليه ، وأقرب دليل على لون من ألوان هذا التقدير ما أذاعته محطات الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية والشرق الأدنى ، وما كتبت الصحف في البلدان العربية وما كتبت وكلم — دليل على ما لقي المؤلف وكتابه الجديد والأدب السعودي من التقدير والإعجاب والرضا .

وإني أهني الصديق الأنصاري بكتابه القيم وأقول مع الأستاذ الزيات : « إنه الكتاب الذي يمثل مبادئ اليقظة العلمية الحديثة لمهد العروبة والاسلام في العصر الحديث بأسلوب يجمع بين متعة الفن القصصي وعمق البحث العلمي »

وأقول في صراحة وصدق : لو لم يكن لنا « أنصاري » لتمنينا أن يكون لنا « أنصاري » يرينا آثار المدينة ويصلح لنا الأخطاء التي شاعت على الأقلام ويصور لنا شخصية عالم جليل هو من بناء العلم في الحجاز ، ألا وهو السيد أحمد الذي لو كان في غير هذا البلد لكان له ذكر مرفوع ومقام سامق النذرى

إن الأنصاري أديب فذ يستحق التقدير والثناء لإخلاصه لوطنه ، ولتدينه ولغزارة علمه ، وسمو أدبه ، ورجاحة عقله ، وسماحة نفسه ، ومتانة أخلاقه وبعده عن السفاسف وبعض هذا يكفي للتمجيد فكيف وقد اجتمع لانسان .

النقاعون في الادب

نكب الأدب عندنا بنفر من النقاعين يدعون الفهم ويظنون أنفسهم قادة الفكر والرأى والبيان ، وأن بيدهم الموازين ينصبونها لزنة نتاج القرائح ، في حين أنهم ليسوا إلا أدعياء يصفعهم الفن وتهزأ بهم الحقيقة ، و « محصلهم » من الثقافة والعلم والتاريخ والاجتماع لا يعدو فتات موائد الصحافة ، وهو « محصل » لا يبيح لهم أن يكونوا قضاة وحكاما في دولة الأدب بل يحتم عليهم أن يعيشوا في كهوفهم قانعين بالوتح المقسوم لهم وهؤلاء النقاعون لا تسندهم ثقافة واسعة ولا دراسة قوية ولا تفكير سليم ولا ذخيرة من العلم والأدب والفن تطوع لهم أن يدعوا هذه الدعوى العريضة ، وكل مالمدي هؤلاء لا يعدو الفتات والنفايات ، وهم — لهذا — أفقر الناس إلى الدراسة وإلى النفس المتفتحة تستقبل الجميل والرائع والمفيد ، وإلى الاحساس المنهوم ، وإلى العقل . بل هم يهينوا لأن يكونوا أدباء بحق فكيف يبيحون لأنفسهم أن يلجوا حرم الأدب ويثبوا إلى منصة الحكم والقضاء !!

إن هؤلاء النقاعين « خريجي » الصحف الغثة يريدون أن يبنوا لهم شهرة بالوراط والزيف ، ويخدعوا القراء ظنا منهم أن هذه التطرية تستر منهم العيب والدمامة وتظهرهم في مظهر جميل ، وأن هذا التشديق بالألفاظ التي حفظتها ألسنتهم يجعل لهم عند المفكرين شأننا في حين أن ألعيبهم مكشوفة مفضوحة ، وليس السكوت عنهم عجزا أودلالة على الرضا ولكنه الترفع عن الأخذ والرد مع من لا يؤبه بهم في عالم الأدب والفن .

نعم ، لا يؤبه بهم لأنهم خواة فارغون ، وما من أحد منهم يستطيع أن يزعم أنه قرأ كتابا واحدا من أمهات كتب الأدب وفهمه وأدركه تمام الإدراك ، وكل هؤلاء

النقاعين لم يقرأ كتب الأدب القديمة ولا اللغة العربية ونحوها وصرفها وأدبها وبلاغتها وأسرارها ، ولا القرآن والحديث ولم يفهم ما جاء فيهما من بلاغة وتشريع وحكم ، ولهذا أمسى كل هجيراهم من الأدب أن يسردوا الصفحات ، وكل فهمهم إياه أنه ثثرة وكلام ! فأين هؤلاء من الأدب الصحيح ؟ !

وفوضى الأدب أتاحت هؤلاء أن يزعموا أن ما يأتون ليس إلا الإبداع والعبقرية في حين أن ما يأتون ليس إلا السخف والممازل والمجون وهم يهاجمون من عداهم إشباعاً للحقد والحسد والبغضاء في نفوسهم ، وإذا أبصروا أدبياً يبعد صوته ويسمو ذكره وتتحدث عنه الأقلام القوية يأخذ مكانه من صفوف العاملين ما توا من الغيظ وحاربوه وباتوا في فراش من قتاد مؤلل .

ومن هؤلاء النقاعين المتنفجين من يدعى : د . ح . ط الذي اقتحم حمى الفكر في غفلة من الرقباء وعبث فيه شر العبث ، وسولت له نفسه أن « يعالج » الأدب قارئاً وناقداً و كاتباً ، وهو أبعد ما يكون عنه لأنه لم يخلق له ، وليس به الاستعداد الذي يهيئه للأخذ والعطاء ، وكان الأحرى بهذا « الممثل » ألا يبرح « شقه » إلى عالم الأدب وما كان بضائره لو قنع بقسمته من الحياة ورضى بمهنته التي فرضت عليه فرضاً ولم يتقحم حرم الأدب والشعر ، ولكنه يريد أن يكون « أخطبوطاً » آدمياً يرمى أرجله أنى اتفق وفي كل مكان فيكون « الطبيب » والعالم والفيلسوف والشاعر والناثر والقاص والصحفي والناقد والزعيم والمحاضر والسياسي والعاظم والرياضي والقائد وكل شيء في الدنيا وهو — بعد — لم يضبط فنه الذي عاش له ولم ينبغ فيه ولم يبلغ فيه مبلغ من إشار إليهم ، بل لم يبلغ واحداً في الألف بما بلغ رجال هذا الفن الافداد الذين أفادوا العالم بمبتكراتهم ، وبقي حيث خلفته القافلة الانسانية مقعداً يحترق القديم اجتراراً ولا لوم على هذا « د ، ح ، ط » ، إذا تخلف فما من خلقه الابتكار بل ليس من

خلقه التجويد وما هو بمطيق أعباءه ، وحسبه أن يفيد ولكن نفسه وحدها ، ولو لم
يسكن في نفع غيره مصلحة له لما نفع غيره .

ولو قنع هذا الرجل بمهنته ولم يتجاوزها إلى الأدب لأحسن إلى نفسه وإلى غيره
إلى نفسه بعدم توريطها فيما لا يجمل بالرجال ، وإلى غيره براحته من الأذى ، ولكن هذا
« الاضطرب » يمد أرجله إلى كل شيء .

ويكيل هذا الـ « د ، ح ، ط » التهم لغيره جزافا ويزعم أن هذا « الغير » يعمل
للشهرة وللمال ، مع أنه هو نفسه عداء خلف الشهرة ما ينقطع به نفسه ، أما عمله للمال
فليس بخاف فهو من أولئك الذين أفنوا شبابهم في سبيل المال وجعلوه أكبر همهم في
الدنيا فكسبوا منه وما زالوا ينفقون البقية الباقية من أعمارهم في الحصول عليه وكسبوا

أبعد هذا يليق به أن يخرج لسانه هائلاً بغيره وهو من هو كزاة وحرصاً على المادة

ويقول هذا المستور كلاماً عاماً في غير اتزان ولا ترو ، وكان أخلق به لو كان صحيحاً
سليماً أن يقدم المثال ويقيم الدليل ويوثق بالحجة ، ولكنه . . . نقاع

ويغمز هذا الـ « د ، ح ، ط » غيره ولا يصرح بمن يريد ، وما أظن مرد هذا إلى
الجبين والخوف ، فهو شجاع لا يهاب ، ولولا شجاعته لما اجتراً على إعلان الشتائم والمهاترة
ورشق الناس بما هو أشد من الحجارة .

ومن المضحك أن يطلب هذا النقاع « حكومة أدبية » تقضى بين الأدباء وتأخذ
منهم « ضرائب » على الإنتاج الفكري و « تصادر » الغث و « المهرب » وهو يعلم أنها
لو وجدت لما وسعه أن ينشر غثائمه المكشوفة على الناس ، ولو كانت لكان — حتماً —
أول ضحاياها وأول من يصادر نتاجه الذي وفق إلى « تهريبه » واستغلاله في نفع نفسه

فليحمد الله على عدم وجود حكومة أدبية وليهرف بما لا يعرف ، وليثرثر فانه في
نحوه من العقاب وفي مأمن من اللوم والعتاب .

وكان بودى لو صرح هذا المستور وتناول الكتاب الذى يشير اليه لا الغلاف
فيجمد عنده ولا يتخطاه إلى « الموضوع » ولكنى أحمله فوق طاقته وأطلب منه مالا
يستطيع إذا رغبت اليه أن يفهم ويتعمق ويتخطى الغلاف إلى المتن لأنه لم يمنح موهبة
الأدب والذوق والحس ، ولأن حرص صاحبنا على الاكتناز ودءوبه من أجل المال
لم يترك له فرصة للدراسة والمراجعة ، فهو يكتب بقراءة الغلاف والفهرس والورقة
الآخيرة من الكتاب وبضعة أسطر من صحيفتين أو ثلاث ثم يرفعه بعد أن يكتب
عليه ما يفيد أنه قرأه وأتمه ثم يمضى إلى القلم وينفضه وينفس به عن نفس لا أحب
أن أصفها الآن .

وأنا عاذر هذا المستور ، وما أنا بلأئمه على عدم ثباته على رأى لأنه رأى غير
موزون ولا متزن ، ويؤلمنى كإنسان أن تستبد به آلام الغيرة والضغن وأن يذهب
فريسة الجهل والحققد

* * *

أما عزيز ضياء الذى قاء كلاما كله السخف والثرثرة فإبى حاجة أن أهبط اليه ،
وليس غريباً منه - وهو خريج مدرسة البعكوكه - أن ينضح إنأؤه بهذا الأذى والغرور
وآخر ما نقول لعزيز ضياء ومن قبله : إننى لست مباليا بمن لا يعمل ويؤذيه أن
يعمل الناس ، وأخلق بى أن أمر باللغو كريما امثالا لقول الله عزوجل : « وإذا مروا
باللغو مروا كراما »

عصر المتنبي

كان لدينا مؤلف عن المتنبي قد ضاع أكثر فصوله ولم تبق
إلا هذه الفصول المعدادات فأثرنا نشرها هنا لئلا تلحق بسابقتها
وقد اعتمدنا في هذه الدراسات على ما كتبه الكاتبان الكبيران
عباس محمود العقاد وطه حسين في كتابيهما مطالعات ومع المتنبي

المؤلف

الكتابة عن عصر المتنبي تحتاج الى ذكر موجز لتاريخ عديد من الدويلات
الاسلامية التي تجزأت عن الدولة الاسلامية الكبرى وتفرقت عنها وأصبح حكمها متفردين
بالحكم مستقلين بمقاطعاتهم استقلالاتا لا يضمنهم وطن عام ولا كلمة جامعة ولا أمير
واحد كما كانت الحال أيام الراشدين رضوان الله عليهم والأمويين والعصر الذهبي من
الحكم العباسي ، ولكن بحسبنا أن نكتب عن الدولة التي ولد فيها أبو الطيب ونشأ
ونصورها من قبل ولادته حتى وفاته ونترك الدويلات الأخرى إلى حين أن نعرض
لرحلاته ونزوله على أمراءها واقامته فيها .

ولد أبو الطيب في عصر موبوء خاسر ، كل ما فيه دنى لئيم لا تطمئن اليه النفس
ولا يرتاح اليه المخلصون ، فالحكم الاسلامي بعد أن كان للعرب أمسى للأعاجم ، والخلفاء
في أيديهم يفعلون بهم ما شاءوا ولا أحد يدافع عنهم لأن القوة والسلطان والثروة في
يد الأعاجم ، فتى ما راموا ولوا ، ومتى ما أرادوا عزلوا وقتلوا ومثلوا ، ولا ينهض

أمامهم مصارع أو مخالف أو مستنكر إذ ليس للخليفة عصبة قوية تحميه إذا جد الجد وحزب الأمر ، وإنما يحميه أولئك إذا رأوا أن في حمايتهم إياه جدوى تعود عليهم ومتى انتهوا صفوا حسابهم معه فاقصوه عن الخلافة كما يفعل السيد بخادمه ، بل أولئك كانوا يسجنون ويمثلون ويخلعون ويصادرون ويقتلون والسيد لا يستطيع ذلك .

إنهم يحمون الخليفة كما يحمي الجلال المخكوم عليه بالإعدام يعني به عناية حسنة حتى إذا حان موعد التنفيذ ساقه وأعدمه ، كذلك كانوا يفعلون !

أمامهم الخليفة وهم من ورثته يديرون الحكم ولا يرقبون إلا الجدوى الفردية ولا يقدرعون المسؤولية أمام الله والضمير والتاريخ ، فهم يطلقون العنان لأعمالهم لا يحدهم كتاب الله ولا سنة رسوله ولا يردعهم خلق كريم ولا ضمير حي ، كأنما يقود القافلة شيطان مرید ملعون يحدو لأحفاده وهم يتبعونه بالغناء فيرقص معهم أبناء آدم وقد ألغوا مقاليد عقولهم إليهم وإلى الهوى فهم ما ينفكون يسرون إلى الهوى سكارى وما هم بسكارى ولكن الشيطان أضلهم وغم على بصيرتهم فهم لا يفقهون .

واستشرى الداء واستفحل فلا سبيل إلى العلاج ، فكان الخليفة آلة تحرکها الأعاجم أو الخدم أو الاماء أو النساء وكان جاهلا مغفلا حتى انحل السلطان وزالت هيئته وكرامته ، فلم يكن في مقدوره أن يجمع المقاطعات تحت لوائه كما كان يفعل أولئك الخلفاء ، ولم يعد في وسعه رد كيد الأعداء ووقف غزواتهم ، ولم تعد الخلافة مظهر الإسلام القوى كما كانت من قبل فأُمست أسما على أعمال الإجرام والنهب والسلب ونشر الفوضى وأكل مال الرعية بالباطل ، وما أكثر ما ارتكب باسمها من فظائع ومذكرات وآثام .

ومن الطبيعي أن تتدهور الحال ويفقد الأمن وينتشر الذعر بين الناس ، فالخليفة محتاج إلى المال لينفقه في ملاحيه وأفراحه وأعياده ، ونسائه وخدمه وأماؤه يحتاجون

ايضا ليشتروا به المملكات ، وكذلك كان الوزراء ومن يتولون المناصب ، وموارد المال قد نصبت بعد أن تجزأت الدولة الى دويلات اعلنت انفصالها واستقلالها ووقفت بعث الخراج الى حكومة بغداد ، فهم مضطرون الى ارهاق الرعية واستعمال العنف والشدة والخداع والغش والقتل والتعذيب للحصول على المال ، وفي سبيل جمعه تعمل المستحيل والمنكر .

ومن هذا المال تفسد الطباع وتلوم وتتيقظ في النفس غرائز التوحش والريزية وتتلشى الصلات المحترمة بين الراعي والرعية وبين السلطان والجند ، فكل فرد منهم مشغول بالمنفعة الفردية مستجيب للانانية الصارخة أصم عن النداء الجماعي .

وما دام الامر غير مضبوط ، والصلات مفقودة ، وأساس الحكم الخوف والطمع والحسد فمن الطبيعي أن تموت المعاني الفاضلة إذ لا يمكن في حكم كهذا أن يأمن التاجر على متجره والفلاح على غلاله والغني على ماله فيقف التعاون التجاري بين الافراد والجماعات وتنقطع المعاملات بموت الامانة وتفترق البلاد ، وتقل الواردات لان الغني لا يأمن على أمواله يرسلها ويستورد بها بضائع خشية من النهب فتفحش الاسعار ، ولا يجد الفقراء عملا يرزقون منه أو حكومة تعني بهم فيلجأون الى الرزية يسرقون وينهبون ، والفقيرات يحترفن حرفا ساقطة ويضطرون الى الاتجار بالاعراض

وخلاصة القول : إن السلطان متى ضعف وانحل النظام فلا يمكن أن تعيش الأمة في هناة وراحة واطمئنان ، وتتبعها المخاوف في كل حين ولحظة .

هو عصر من أعصر الظلم والاستبداد والفوضى والمنسك والبغى ، انطلقت فيه الشرور والآثام من عقالها فأخذت تمرح وتسرح لا يرد جماحها راد ، وبلغت أقصى حد يمكن أن تنتهي اليه من القوة والجبروت وغرور النفوس والأفكار .

قدر لآبي الطيب أن يولد في عصر لم يعرف التاريخ عصرا مخرلا فاسدا مثله إلا قليلا ؛

ولعل نكد طالعه أوقعه في هذا الزمن القاتم حيث تضعه أمه فيه فلا تتأخر ولا تتقدم به ليشقى بشقائه ويفسد بفساده ويدفع ثمن كبريائه ومجده وطمره غاليا لم يدفع شاعر مثله في التاريخ كله .

ولد سنة ثلاث وثلثمائة وعاش إحدى وخمسين سنة ثم توفي في سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، أى ولد في السنة الثامنة من خلافة المقتدر وكان عمر هذا حين مولد المتنبى إحدى وعشرين سنة ، وبلغ عدد الخلفاء العباسيين الذين عاصروه خمسة وهم : المقتدر والقاهر والراضى والمتقى والمستكنى ، وكانوا سيئى الحظ إذ تولوا الخلافة والأمر مدبر ، وقد زادوها نحسا على نحسها وشقاء على شقائها فباتت في ذل وانحلال وخضوع يدل عليها أن هؤلاء الخلفاء المساكين وردوا حياض المنايا قسرا وأهينوا وضربوا ، فالأول قتل بالسيف وألقى في السيل عاريا مجردا عن ثيابه التى نهبا السوقه ، فمر رجل وألقى على سوائته البادية حشيشا ، وأما الثانى فقد خلع وسملت عيناه حتى سالتا على وجنتيه وحبس ثم أفرج عنه وساءت به الحال حتى وقف يوما عند جامع المنصور يسترحم الصدقة ، وأما المتقى والمستكنى فقد سملت أعينهما بعد خلعهما .

أما الوزارة فلم تكن بأحسن حالا من الخلافة بل كانت أسوأ منها ، فالاضطراب والانحلال والفساد كان كامنا في كل نفس وكل مكان وكل منصب ، ويكفى ان نرى ان الوزارة قد تبدلت في زمن المقتدر أكثر من خمس عشرة مرة اختلف عليها اثنا عشر وزيرا ، بعضهم وليها ثلاث مرات وبعضهم مرتين ، ونكسب كلهم وقتل بعضهم وعذب بعضهم ، ولم ينبج أحد منهم من النكبات ، فلم ينبج منهم المخلصون بل كانوا أول من يذهب ضحية بطانة السوء التى تدير المملكة قبل غيرهم لأنهم لا يرضون بالحال التى يريدونها ولم تكن هى أيضا راضية بأعمالهم التى تسكاد تحد من مطالبهم .

ونبيح لأنفسنا أن ننقل صورة الخليفة المقتدر والقاهر ليرى القارىء كيف كانت

الحال في أيامهما ونوع الحكم الذي اتبعنا ، وننقل صورة أخرى للوزارة والوزراء
ليمكن تصور ذلك العصر الموبوء الخاسر .

ولد المقتدر سنة اثنتين وثمانين ومائتين وتولى الخلافة في السنة الخامسة والتسعين
بعد المائتين وقتل في سنة عشرين وثلاثمائة ، وهو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء
العباسيين أبو الفضل جعفر بن المعتضد (كان في داره أحد عشر ألف خادم خصي من
الروم والسودان . وكانت خزانة الجوهر في أيامه مترعة بالجواهر النفيسة ومن
جملتها الفصص الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار ، والدرة اليتيمة التي
كان وزنها ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر ففرقه واتلفه في أيسر مدة » (١) وخلع
في السنة السادسة والتسعين بعد المائتين « وبويع عبد الله بن المعتز فسكت يوما واحدا
في الخلافة ثم استظهر عليه المقتدر فأخذه وقتله ولم يعد عبد الله بن المعتز من الخلفاء
لقصر الزمان الذي تولى فيه ، وجرت بين المقتدر وبين مؤنس المظفر أمير الجيوش
منافرة أدت إلى حرب قتل فيها المقتدر وقطع رأسه وحمل إلى بين يدي مؤنس المظفر
ومكثت جثة مرمية على قارعة الطريق فيقال أنه اجتاز به رجل شوكي فرأى سوانته
بادية فألقى عليه حزمة شوك فغطاها بها وذلك في سنة عشرين وثلاثمائة ، (١)

وجاء في محاضرات الأمم الإسلامية للنخضرى ما يأتي :

« واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام
فان المقتدر حين ولى كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئا ، وكانت
له أم وقهرمانه صار لهما الحكم في كل ما يجرى من الشؤون واليهما يتقرب بالرشوة
من يريد عملا أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والترف لا يفكر
في صلاح ولم يعد بيده شيء ، ولنصور لكم الحال تماما نبدا بذكر الوزراء أيام
دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة ممن يريد أن

(١) الفخرى في الآداب السلطانية

يحل محلهم .

وأما حياة القاهر وصفاته وأعماله فهي لا تحسب من أعمال الخلفاء والحكام ومن يسأل عن المسلمين بأية حال ، وإنما هو مجرم أثم له عصا به شريرة آثمة تعينه على بغيه وعتوه وفسقه وعجرفته ، تولى الخلافة في الثامن والعشرين من شهر شوال سنة عشرين وثلاثمائة فسار سيرة مبغوضة سافرة .

فأول عمل قام به بعد قتل المقتدر وتوليته الخلافة ترصد أبناء أخيه المقتدر المستخفين وحرمه وبث جواسيسه عليهم حتى تصيدهم فعذبهم العذاب الأليم لم يشهده تاريخ الإنسانية في تاريخها الطويل إلا نادرا ، واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة بداء الاستسقاء ونفر عليها بقتل ابنها وزادها ألما حينما أخبرت أنه كان لقي في الطريق مكشوف العورة وتركت الطعام والشراب جزعا عليه وأسى حتى برح بها الألم وكادت تنحدر إلى الهلاك لولا أن بعض النسوة نصحنها فأكلت ولكن شيئا يسيرا تافها من الخبز والملح .

تصور هذه المرأة التي كانت في أبهة الملك يدها السلطان تحكم وتنهى وتقول ، تنحدر بغمة إلى الذل والسجن والجوع والنقص في الأموال والأفنى والشمرات ، وتصور هذا البنيان الذي كان قويا شامخا تهدده الغير والأحداث فيتداعى ولا يظهر من ذلك الجسم النسمى الحى إلا طلل بال تلبسه الصفرة الكئيبة والحزن المرير ويدوبه الداء والعذاب ، يستدعيها القاهر فيستجوبها عن أموالها فتعطيه الخيط والمصنوع ، فيطلب منها الجواهر والآلى والمال ، فتتني امتلاكها أى شيء منه ، فيهددها ويلطمها فتقول له في ذلة وانكسار : لو كان عندي مال لما أسلمت ولدى للقتل « ولم تعترف بشيء

ولكن القاهر الطاغية لم يقنع بهذا بل أخذ يضربها في المواضع المستورة ، ولم يكتف بهذا العذاب بل علقها باحدى رجلها ونكس رأسها وأنزل بها من العذاب

والضرب والهوان ما يقشعر منه الحيوان بله الانسان ، ولكن القاهر حيوان فقد
إنسانيته ولم يبال القربى والرحم والمودة ، فيأويله عذاب من الله وانتقامه !

ولم يقنعه هذا بل أحضرها وأحضر القضاة والشهود لتقرر أنها حلت أوقافها
ووكلت في بيعها . فأبت وقالت : إنها أوقفتها على ابواب البر والقرب بمكة والمدينة
والشعور وعلى الضعفى والمساكين ، ولا تستحل حلها ولا يبيعها وإنما توكل في بيع
أملأها ، ولكن لا يهم الطاغية رفضها فحل ذلك بنفسه .

وانظر الى سفالته السفلاء ، أمر ألا تباع الجوارى إلا على أنهم سواذج لا يعرفن
الغناء وكان ينفذ الى السوق من يترصد له ذوات الأصوات الرخيمة والحاذقات فى فن
الغناء والموسيقى فيشتريهن بأرخص الأثمان ويستمتع بهن لأنه كان مغنياً فنأنا
مشهوراً بالسمع .

وأنا فى حيرة من أمرى ، فكيف بقى القاهر وحشاً ضارياً بالرغم من احساسه
المرهف وميوله الى الفنون الجميلة وحبه للغناء والموسيقى ؟ ألم تستطع الالحان ان
تكسر من شرته وتهذب من شماسه ؟

هذه حال الخلافة والخلفاء ! فما هى حال الوزارة والوزراء ؟

أول من استوزر للمقتدر أبو الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات ، وكان
رجلاً حازماً صادق الولاء للخلافة ناهض الدعارة وحارب الجرائم ، ووكل اليه عقاب
كل من كانت له صلة بحركة ابن المعتز فصادر وقتل وألقى بكثير منهم فى غيابات
السجون منهم : أبو عمر محمد بن يوسف القاضي ، فأسرع أبوه يوسف الى ابن الفرات
ذليلاً ووقف بين يديه والبكاء يصعد فؤاده ورجاه أن يتصدق بابنه عليه ،
فرق له الوزير وقال : الخيانة عظيمة ! ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة
فيه من جهته .

واضطرب الأب الشيخ الى الرضوخ لرأى الوزير ورضى بأن يفقر نفسه رغبة في خلاص ابنه .

تلطف ابن الفرات مع المقتدر فيما قال له وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار واتفقا عليه وكلف الشيخ يوسف بدفع المبلغ فأدى تسعين ألفاً من الدنانير من جملتها خمسة وأربعون ألف دينار كانت مودوعة لديه من قبل العباس بن الحسن . وأمر ابن الفرات أبا عمر بملازمة داره وألا يبرحها لئلا يتحدث الناس من أمره بشيء .

هذا هو الخليفة وهذا هو الوزير ، فاذا كانا — وهما مديرا الدولة — لا يتورعان عن ركوب المناهج الممقوتة المخفوفة بالمكاره والآثام ولا يزهدان في المال بحصلان عليه بأية من هذه السبل المنكورة ويفرحان له فان من يتولى أى منصب لا يزهده أيضاً في المال يغتشمه سواء أكان بالحلال أو بالحرام .

كانت الرشوة هي السبيل إلى المناصب الرفيعة وإلى الوزارة نفسها، وهي الحكم العدل، ولم ينكر من أمرها شيء ولم يحب المرتشى لأنها أمست عادة القوم وطابع العصر .

عزل ابن الفرات وقبض عليه وزج به في السجن بعد أن سلبت أمواله وضياعه ونهب العامة والجند دور أولاده وخربوها .

وتولى الوزارة بعده محمد بن عبيد الله بن خاقان فقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والعقار والغلال والاقطاع والأموال حتى بلغ مجموع ما قبضه نقداً ألف ألف دينار

رأى بن خاقان أن سلفه نكب لأنه تأخر عن سد حاجة المقتدر وحرمه من النقود فأراد أن يسلك سبيلاً بعيداً عن سبيله لئلا يتبعه في التنكيل ، فنكل بالناس حيث صادر أموالهم وأقطاعهم ودورهم ليكون تحت يده ما يستطيع أن يحشوبه معد الخليفة وحرمه وأهل بيته كلها طلبوا المال .

وكان الوزير الجديد كثير الغفلة والاهمال ، تأتية الرسائل والحوالات والطرود فلا

يفتحها شهراً ولا ينظر فيها ، ولا يفك ختامها إلا الكتاب فيجيئون بما يعن لهم لا ما يريد الوزير ، بل كانوا لا يطلعونه عليه ، والأناكى من هذا أن هؤلاء الكتاب يهبون الأملاك والضياع والمال بدون أن يأمرهم أو يأذن لهم ، ولعلمهم كانوا يحكمون بقطع أو قتل أو مصادرة استغلالاً لغفلة الوزير الذى ترك لهم الأمر فوضى .

ومن غرائب ما يروى عن ابن خاقان أنه كان يولى ويعزل فى كل يوم بل فى كل ساعة بل فى دقائق - أحيانا - إن أراد ، ويقال إنه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة بعد أن أخذ من كل منهم رشوة ، واجتمع هؤلاء فى الطريق فقالوا : ما نصنع !! فقال أحدهم : العدل أن ينحدر آخرنا عهداً بالوزير إلى الكوفة فيتولاهما لأن ولايته صحيحة إذ لم يأت بعده أحد فتنقض به ، ومضى الباقيون إلى الوزير فقرعهم فى أعمال أخرى وقد هجاه الشعراء ومما قيل فيه :

للدواوين مذ وليت عويل وللمال الخراج سقم طويل
يتلقى الخطوب حين أملت منك رأى غث وعقل ضئيل
إن سئمت من الخيانة والجو ر فللارتفاع جسم نحيل !

وقيل فيه :

وزير لا يمل من الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعة
ويدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعة
إذا أهل الرشا ساروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

وكان إذا سئل عن شيء دق صدره بيديه وقال : حبا وكرامة ! فسمى داق صدره . وفى أيامه ضعفت أمور المال وأفلست الحكمة واغتنى بعض الافراد بمن رفعهم حظهم وأسعدهم بالاعطيات الجزيلة فقبض عليه وسجن . وتولى بعده على بن عيسى بعد امتناع لأنه كان رجلاً فاضلاً تقياً صاحب أمانة

ودين وقد فر الى مكة بنفسه وفضيلته تاركا بغداد والعراق لمن يطيب لهم الحرام والخبيث، وقد قال الصولي فيه : ما اعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه على بن عيسى في زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلم بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته ومبراته ، وكان دخله من ضياعه نيف وثمانون الف دينار ينفق نصفه على الفقراء .

ولكن رجلا مثل هذا لا يصلح في وزارة يسيطر عليها نسوة طائشات وخليفة مأفون لا يعرفون غير الهوى والكحل واللذة واقتناص المسرات ؟ وأخذ نساء القصر يدبرن المؤامرة للإيقاع به وطرده من منصبه وازاحته عن طريقهن ليسهل عليهن تنفيذ ما يردن ، فاتخذن من حل على بن عيسى لكثير من الممنوحات التي نفحها الوزير السابق الناس وسية لاقتناصه . وكان هذا أعظم ما ملأ الصدور حقداً عليه وكرهية له .

وفي قرب عيد الأضحى كان الوزير محتجبا فجاءت اليه أم موسى القهرمانه لتكلم الوزير في صرف مخصصات الحرم بمناسبة العيد فحجبها الخادم ، ولما درى سيده بذلك اعتذر لها فأبوت وولغت فيه لدى المقتدر وأمه حتى نفرتما منه ونكب الوزير الجليل بالعزل والسجن .

واطلق ابن الفرات وأعيد الى كرسي الوزارة وبذلك اعيدت اليه أملاكه ومخصصاته لأنه كان قد تعهد وهو في السجن أن يطلق على رجال البلاط ونسائه ما كان يطلقه من قبل ، وأن يعطى المقتدر ألف دينار وأمه خمسمائة دينار يوميا فوفى بعهده ولم يخلفه .

ولكن لم يمكث كثيراً فعزل وتولى حامد بن العباس وكان جاهلا لا يعرف سياسة المال وأمور الدولة وانتهى الى الوزارة عن طريق الوساطة بأحد خدم السيدة أم المقتدر الذي استطاع أن يدعو لحامد لدى دار الخلافة ويبنى من بها بالخير العميم إذا تولى الوزارة ووجدت هذه الدعاية آذانا صاغية ، فما كاد يحضر إلى بغداد حتى ولى

الوزارة وقبض على ابن الفرات وزج به في السجن .

واطلق له على ابن عيسى ليعينه على أعمال منصبه الجديد الخطير . فكان كالثائب له بل كان ييده الحل والربط والعمل وليس بيد الوزير غير الحتم أو الامضاء حتى قيل فيهما : —

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير !

وقيل أيضا : —

قل لابن عيسى قولة	يرضى بها ابن مجاهد
أنت الوزير وانما	سخرؤا بلحية حامد
جعلوه عندك سترة	لصلاح أمر فاسد
مهما شككت فقل له .	كم واحداً في واحد ! ؟

ونكب حامد ومات مسموما وسجن ابن الفرات وابنه المحسن وتولى عبيد الله بن محمد بن يحيى بن خاقان بعد أن تعهد بمصادرة ابن الفرات ألفي ألف دينار

أحضر ابن الفرات وابنه المحسن وعذبهما عذاباً شديداً وطلب منهما المال فرضا وعذب المحسن أشد من أبيه فقال . لا أجمع لكم بين نفسي ومالي .

ثم حملا إلى بيت الخلافة وذبحا فيه كما تذبح النعاج !

وعزل ابن خاقان لاخفاقه وسوء سياسته فتولى بعده أبو العباس احمد ابن عبيد الله بن احمد بن الخطيب وكان سكيراً لا يكاد يصحو ولا يرى إلا نشوان ثملا ، فضاعت الحقوق والتبست وساء الحال فعزل وقبض عليه وعلى ابنائه وسجنوا واستدعى على ابن عيسى للوزارة من مكة إذ كان بها . ولكن وزارته سقطت وسجن هو واخوه عبد الرحمن لأنه كان مصلحا ، والاصلاح بين هؤلاء القوم جريمة لا تغفر .

وتولى الوزارة بعده أبو علي محمد بن مقلة مضرب المثل في حسن الحظ وجماله
وابداعه ، كان بواباً ثم ما زال يرقى ويقفز حتى أصبح من أغنى الأغنياء واجتمع لديه
مال كثير من الرشاشم قفز فاذا هو وزير يدير سياسة الدولة ويدير أمر الخلافة
ويسأل عن الرعية ولكنه نكب وسجن ، فكتب إلى أحد أصحابه الذين انقطعوا عنه
خشية من أن ينحدر إليه .

تري حرمت كتب الاخلاء بينهم ! ابن لي ، أم القرطاس أصبح غالياً ! ؟
فما كان لو ساء لئنا : كيف حالنا ! ؟ وقد دهمتنا نكبة هي ما هيا !!
صديقك من رعاك في كل شدة وكلا تراه في الرخاء مراعيًا !
ففيك عدوى لا صديق فاني رأيت الاعادي يرحمون الاعاديا

ومن شعره وقد كتبه لابنه المريض : —

لقاك ربك صحة وسلامة ووقاك ربي من طارق الاهواء
ذكرت شكاتك لي وكأسي في يدي فزجتها دمعى مكان الماء !!

ومن شعره : —

لست ذا ذلة إذا عضنى الدهر ولا شائخا إذا واتاني

واستوزر ابن مقلة في حكم الراضى ولكنه نكب وقطعت يده اليمنى فكان ينوح
عليها ويعدد محاسنها ويقول : « يد كتبت بها كذا وكذا مصحفاً ، وكذا وكذا
حديثاً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت على شرق الأرض وغربها
تقطع كما تقطع ايدي اللصوص » .

ومن رثائه ليده قوله :

ما مالت الحياة لكن توثق بأيمانهم فبانتي يميني
ثم أحسنت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمين لذة عيش يا حيائي ، بانتي يميني فبيني !!
ويشير احد الشعراء الى ذلك قائلاً : —

لئن قطعوا إحدى يديه مخافة لاقلامه لا للسيوف الصوارم
فما قطعوا رأيا إذا ما أجاله رأيت الردى بين اللهى والغلاصم

وهكذا كان الوزراء يولون ثم يعزلون ثم ينكبون بالسجن والمصادرة والقتل
والعذاب، توليهم الحاشية وبطانة السوء من رجال البلاط ويعزلونهم وينكبونهم متى
عجزوا عن دفع مخصصاتهم.

عجزت الدولة عن حفظ كيانها واستقلالها وكرامتها فكانت معرضة للخوف
والذعر بين الفينة والفينة ، حيث تجول الأخطار والكوارث والفتن فوق بطاحتها
فلا تجد من يردّها أو يعارضها وبذلك سقطت هيبتها وأمسّت العوبة لادولة وحكومة
وشعباً ، حتى أن ألفاً وبضع مئات من القرامطة يرأسهم أبو طاهر سليمان الجنابي الذي
استولى أبوه على البحرين وهجر والقطيف والاحساء عنوة وانتزعها من الخلافة العباسية
وانفرد بالحكم فيها نشروا الرعب والفرع في قلوب العراقيين والحجاج وعاثوا في
الأرض فساداً .

نهض أبو طاهر سنة ٣١٤ في ألف وسبعائة رجل من القرامطة وهاجم بهم البصرة
ومكث بها سبعة عشر يوماً نهب في خلالها الأمتعة والأموال والأطفال والنساء ثم
قفل راجعاً الى بلده ثم انقل الى الطريق يقطعها على السفر والقوافل وانتظر الحجاج
حتى ينصرفوا من مناسكهم وأوقع بهم ونهب جماهم ومتاعهم وما كان لديهم حتى مات
أكثرهم جوعاً وفتيحاً .

ولما سار وفود بيت الله من بغداد خرج معهم بضعة آلاف من الفرسان والمقاتلين
لحراستهم من القرامطة ، ولكن أبا طاهر الجنابي هزم هذا الجمع شر هزيمة وتبعه

حتى دخل الكوفة وأقام بها ستة أيام يقضى الليل خارجها والنهار فيها ونهب المدينة حتى أنه لم يبق بها إلا ما عجز عن حمله .

وفي سنة ٣١٥ توجه الجنابي الى الكوفة فعلم به الخليفة المقتدر وسير اليها يوسف بن أبي الساج بجيش لجب ليحميها من القرامطة واعدت لهم النزل وما يحتاج الجند من طعام وشراب ، ولكن أبا طاهر سبقهم اليها واحتلها وأخذ ما كان معداً لهم من مؤن ، واغتر ابن أبي الساج بكثرته وقلة الغزاة وهزأ بهم وأراد أن يكتب الى الخليفة بالانتصار قبل الشروع في القتال استخفافاً منه بهم ، ولكنه أخذ أسيراً ومزق جيشه ، وسمع أهل بغداد بغارات القرامطة وانتصارهم خافوا وحاولوا الهرب . وسار الجنابي إلى الأنبار وقاتل جيش الخليفة وقتك به وقتل أسراه ومنهم ابن أبي الساج . فقال المقتدر : لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة .

وما زال أبو طاهر يغير على المدن والقرى ولا يجد مقاومة تذكر ، ونشر سلطان رعبه في الأقاليم والبلدان ، واتجه إلى مكة فوافاها يوم التروية سنة ٣١٧ وانتك حرمة البيت الحرام انتهاكاً لم يحدث مثله من قبل حتى يومنا هذا ، وندعو الله ألا يحدث أبداً حتى يرث الأرض ومن عليها .

قتل الجنابي الحجاج في المسجد الحرام نفسه فتطايرت أشلائهم في جوه الطاهر ورقدت جثثهم فوق أديمه المقدس ، وألقيت في بئر زمزم ودفن بعضها في الحرم بدون غسل ولا كفن ولا صلاة ، ونهب أموالهم وانتزع كسوة البيت وفرقها على أصحابه .

انتك حرمة مكة في الشهر الحرام في يوم حرام في بقعة حرام هي أقدس البقاع وآثرها عند الله واعتدى على بيت الرحمن فانتزع كسوته وانتزع الحجر الاسعد ، فأتاه فريق من الأشراف يتوسلون إليه في رده ويأخذ أموالهم فأبى فقاتلوه فقتلهم وقتلهم أجمعين ومضى به إلى بلده .

انتهك البيت الحرام وأودى وفود بيت الله شرايذاء ولقي كثير منهم حتفهم واستشهدوا في سبيله ولم يبال الجنابي قدسية هذا المكان الطاهر وشرفه عند الله والمسلمين ، فلمس أعز ما لدى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المقدسات لمساً عنيفاً مردوفاً ؛ فجعل من هذا المكان المقدس مجزرة ينحر فيها المسلمون نحرأ وتمزق جسامهم السيوف والارماح لا يمنعه ولا يصدده دين أو ضمير أو خلق .

رد الحجر الاسود إلى موضعه بعد ان بقي البيت بدونه مدة طويلة .

ولم تكن ثورة القرامطة وحدها تشغل الدولة بل كانت هناك ثورات وقتن في جميع الممالك الاسلامية وبما ذكرنا نستدل على أن الخلافة كانت شراً على الأمة ، والمناصب « شركة مساهمة » .

والوزارة كانت كمقاولة ؛ يسمو إليها من يستطيع أن يملأ الجيوب ويقدم الرشى ، ولا ينظر إلى الكفاءة والمقدرة ، وإنما المطلوب من الوزير أن يكون مجرماً له دربة على النهب والسلب والمصادرة والقتل وتقديم المال .

ولاشك أن هذا الحال البغيض يغني قوماً غني فاحشاً ، ويفقر الأكثرية فقراً مدقعاً ولا وسط بين الأمرين ، ففي الوقت الذي كانت فيه أقلية تنعم بالملاذات والاطايب كانت الرعية تعاني الأمرين .

فسدت الدولة ففسدت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والمالية ، ولكن نهض العلم واستوفى حظه من النشاط والرقى .

كان من نتيجة دخول الفرس والروم في الاسلام وهجوم العرب ونزوحهم إلى عقر دورهم واختلاطهم تأثير الأمم المغلوبة والغالبة في بعضها ، ومال العرب إلى الحضارة والترف والتملك والاستعباد ، فكان لهم عبيد واماء ماهرون في الغناء والرقص والعزف والصناعات ، يسمعون اليهم ويلتذنون بالنعيم الجديد فاطمأنوا إلى

رغد العيش وبلهنية الحياة ، وأكثروا من اقتناء الاماء وتسايقوا في الحصول عليهن بالاموال الضخمة الكثيرة طلباً للبتعة وتصيداً للذة وتركوا الجهاد واستكانوا إلى الخنول والدعة وضعفت فيهم معاني الرجولة والتضحية .

ودخلت إلى البلدان العربية علوم الفرس والروم والهند فتعلوها وأخذوا عنهم الفلسفة واطلعوا على أفكارهم وآرائهم وآدابهم واتخذوا طرق جدلهم في البحوث والمناظرات فاتسعت مداركهم وابتعدت أمداء أخيلتهم وخصبت ملكاتهم فنظموا في الوصف والحكمة واخترعوا معاني وصورا وأشكالا .

وأخذ الفرس يعملون على إضعاف الخلافة والروح العربية وتمكنوا من تحقيق مآربهم حتى صح في ذلك العصر قول المتنبي : —

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

اصبح السادة عبيدا والعبيد حكاما بيدهم الأمر والنهي والسلطان يولون ويعزلون . ولا نريد اعادة ما ذكرنا ، وانما نتخذ من هذا سبيلا إلى القول ان الوطن تمزق إلى دويلات كثيرة مستقلة ، وأخذ كل أمير يجمع حوله العلماء والشعراء والادباء يدعون ويعلمون محاسنه ومقابح خصومه وكانوا لهم أبواب دعاية ، كل منهم يغالى في المدح والثناء ويكيل بدون حساب .

ومن هذا كثرت مذاهب القول وتنوعت وبرز إلى الوجود شعراء كثيرون لكل أمير خاصته ونداماه من الشعراء يصوغون له المديح ويقلدونه الحمدة ويصفون مجالس الأانس والطرب وحياة الرفاهية والنعيم . ولم يحمد الشعر العربي عند هذا الحد بل تجاوزه إلى الحكم والفلسفة لأن ترجمة علوم الفرس واليونان والهند قد ازدادت وسهلت لهم الاطلاع عليها فأصبحت من أغراض الشعر بعد أن كانت تستعمل للتزلف والتظاهر بالمعرفة .

تنوعت هذه الأغراض فنظم الشعراء في الحكمة والفلسفة والعلم والتحكم والمجون والخلاعة ووصف الطبيعة والمعارك وميادين القتال والتهاني والتعازي ، وأفاضوا على الجماد الحياة والحركة وعلى الحيوان النطق فهزأ وضحك وسخر ؛ ولم تصدمهم المظاهر فتغلغلوا إلى البواطن والأسرار لأن ترجمة العلوم الأجنبية مكنت الناس من دراسة الفلسفة والفلك والطبيعات والهندسة والحساب ونظريات إقليدس وعلم الكلام ومعتقدات الفرق وآرائها ومذاهبها وغير ذلك حتى تناول المنطق البحث في العلوم العربية والدينية واستطال حتى أدرك الحكم في الإثبات والنفي والقدم والحدوث فاستحدثت فرق جديدة في الاسلام كالباطنية والحلولية والثنوية .

ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذا التطور بل انساقوا إليه قسرا ، فكانوا إلى تمكّنهم من الشعر ملهين بالعلوم العصرية الدخيلة وبعضهم يعرف لغات أجنبية ، وأصبح كثير من الأجانب مترجمين وكتابا وشعراء وفلاسفة مبرزين نسبوا إلى العربية لأن آثارهم الباقية مكتوبة بلغة الضاد ، ولهم عليها فضل جد عظيم .

ولا أدري ما الذي حال دون ترجمة الإلياذة والأوديسا لهوميروس وقصص سوفوكليس وشعر اليونان وقصصهم التمثيلية إلى العربية ودون الإشارة إليها وإلى ما تتضمن ! أزهّدوا فيها لأن لديهم شعراً وأدبا وقصصا وليس لديهم فلسفة ومنطق وفلك وهندسة !

آه لو ترجموا لنا مع كلفة ودمنة وألف ليلة وغيرها من مترجمات الفرس بعض كتب الأدب اليوناني والاقاصيص اليونانية ، لأفادوا أنفسهم في تنمية ملكاتهم كما أفادوا عقولهم بترجمة العلوم .

وبالجملة فقد أفادت الشعراء هذه النهضة الفكرية فامتد أمامهم مجال القول الذي كان قاصرا في عهد الجاهلية وصدر الاسلام والأمويين على أغراض الشعر الأولى التي

لا تعدو المدح أو الهجاء وتغلغل من الظواهر الى الجواهر والبواطن والاسرار وحاول
الكشف والاخراج وصور خوالج النفس وبواعث الهوى ودوافع الحياة ومواقفها
وما تشمل من قوة وضعف وحق وباطل وقبح وجمال .

كان هذا العصر غريبا في أحواله ومظاهره وطابعه وسيره ، فهو عصر استكملت
فيه النهضة في الادب والعلم والشعر وبلغت أوجا محمودا لا يمكن أن ترقى أكثر منه في
ذلك العصر ، ولا يمكن أن تصبو الى ما بعده ، وهو عصر فشا فيه النور والظلام .

إنه كان عصرا عجيبا اجتمعت فيه المتناقضات والاضداد !!



نسب المتنبي

كما يراه المؤرخون

أجمع المؤرخون على أن المتنبي وضع ينتسب إلى أب سقاء يدعى الحسين ويلقب بعبدان كان يبيع الماء بالكوفة على جمال له وكان جعفيا صحيح النسب ، وهو جعفي ابن سعد العشيرة بن مذحج بن ادريس بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، ويستدلون على ذلك بحديث علي بن الحسن بن علي التنوخي عن أبيه أنه قال : « اجتمعت بعد موت المتنبي بسنين مع القاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي وجرى ذكر المتنبي فقال : كنت أعرف أباه بالكوفة شيخا يسمى عبدان يسقى على بعير له وكان جعفيا صحيح النسب » ويستدلون أيضا بحديث التنوخي نفسه عن أبيه أنه قال : « حدثني أبو الحسن بن يحيى العلوي الزيدى قال : كان المتنبي وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء يسقى لنا ولأهل المحلة » ويستدلون بشعر أحد المرتزة إذ يقول :

أى فضل لشاعر يطلب الفضل ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينما يبيع الماء وحينما يبيع ماء الحيا !!

ويقول بن لنكك

متنيكم ابن سقاء كوفيا نى ويوحى من ... إليه
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

وأبو الطيب نفسه لم يذكر أباه بشيء . فلا يجد المؤرخ إشارة إليه في ديوانه ، فهو لم يرثه ولم ينتسب إليه ولم يفتخر به ، وهذا إما لأنه لا يعرفه وإما لأنه يعرفه ولكن لضعفه وحقارة مهنته لم يذكره ولم يفتخر به ! وكيف يفتخر بأب وضع كان يسقى لأهل محله على بعير له ومن شاهدوه أحياء يرزقون

وكأنما شعر أبو الطيب بهذا الحزى فرأى الأصوب كتمان اسم أبيه ونسبه وطفق
بغالط بقوله :

أنا من بعضه يفوق أبا البا حث والنجل بعض من نجله

ولما يذكر الجود لهم من نفروه واستنفدوا حيله

إن الكذاب الذى أكاد به أهون عندى من الذى نقله

ما هو هذا الكذاب الذى كيد به لدى أبى العشائر؟ أهو النسب ! لعله ذلك

ولم تكنى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

نخر الفتى بالنفس والافعال من قبله بالعم والاخوال

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الى جد همام !

ففى هذه الايات وغيرها يتخلص من الانتساب الى أب « محترم » ويعمد الى
الحيلة والمراوغة والغرور فيزعم أن المرء لا يفتخر بأبيه أن ينسب اليه وإنما فخره أن
يكون هو الماجد الخطير ، إذ الانتساب شأن من لا فضيلة له وشأن من نوفر ونفدت
حيله ، ولكن ما حاجة الشاعر الى ذلك وهو فخر قومه ؟

ويزعم أن الباحث الذى أشار اليه غبى الى حد بعيد لأنه لا يعرف أن المثنبى ابن
من بعضه يفوق أبا هذا الباحث اللعين ! ومن ابنه غيره ؟ فهو هنا يتملص أيضا ويفخر
بنفسه لأنه لا فخر لأبيه إلا أنه كان سببا فى وجود هذا الابن العظيم .

وهو فى كل شعره يلف ويدور حول نفسه يمدحها ويمجدها وينتسب الى المعالى
وما تمت اليها بصلة ، فهو ابن الضراب والطعان والسيف والقلم والقوة والمجد
وهو ذلك الفتى الذى لا حاجة له بالانتساب الى أب لأن له من مفاخره الشخصية

ما يغنيه عن هذا الانتساب .

وإذ لا يجد مفخرة يلصقها بأبيه فيذكره في شعره بالحمد والثناء يزعم لنا أنه لا يقنعه من كل فضل الانتماء إلى آباء كرام ، وإنما المجد كل المجد في أعمال الفرد نفسه لا أعمال أسلافه

ولعل نشره هذه الدعاوة حول نفسه والتعظيم بها ورفعها فوق المستويات وأقدار من ثبتت لهم العلي دليل على أنه أراد أن يخفي الحقيقة في جوف هذا التجميل إذ كان يشعر في أعماق نفسه بأنه لا يسعه الافتخار بأبيه الوضيع ذي المكانة المبعوضة في الحياة الاجتماعية ولا يسعه التطاول به على الناس ليعيب فيه

وقد روى التاريخ أنه لما دخل العراق لم يهبط الكوفة إلى جدته وإنما بقي ببغداد وبعث إلى جدته يستقدمها إليه فلما قرأت خطابه حمت لساعتها فرحاً وفاض روحها .

فلماذا لم يدخل الكوفة وبها أعز الأحياء عليه وأكرمهم واستأثر أن تمشي إليه وهي امرأة عجوز وأن يبقى هو ببغداد ؟ يجب بعض من كتبوا عنه أنه لم يدخلها لأنها موطن ذكرى أو ذكريات قديمة مؤلمة وتشعره بضعة نسبه وسقوط مركز أبيه الاجتماعي وهو الآن قد نال من المجد والشهرة وبعد الصوت ما لم يحلم به الأبطال ، وخشى أن يغمزه امرؤ لا حظ له من الذوق واللياقة يطعنه في كبريائه فتشفر عليه جراحه القديمة وتذيقه الألم .

ولماذا غادر بلده ولم يقطنه ؟ ولماذا لم يحن إليه بعد فراقه إياه ؟ ولماذا لم يغن بالكوفة حينما دخلها بعد فراقه كافورا ؟ ولماذا مكث بها مدة يسيرة ثم فارقه إلى فارس ؟

إن الكوفة بدت لأبي الطيب كخصم عنيد ساخر لا يني يشعره خياله بعيوبه فيفرق منه ويتجاشى ذكره لتلا يفتح أبواب الكلام عن بلده الذي ولد فيه فيمشي بالبحث

إلى نسبه وأبويه وأسرته ومعاشه ونشأته ، وذلك أمر يفر منه أبو الطيب ولا يأذن لأحد بالخوض فيه ويعمل على النأى عنه لئلا يصغر أمام منافسيه وحساده .

هذا هو التفسير الصحيح لنسبه لدى هؤلاء المؤرخين ، ولكننا نحن لا نتفق معهم في ما ذهبوا إليه ، وإنما درستنا للديوان نفسه — أولاً — ثم لبعض الشروح والتراجم ونقدتها — ثانياً — قد أوحى إلينا رأياً لا نقطع به وإنما نطمئن إليه فما هو ؟

إنه مشروح في الفصل الثاني .

نسب المتنبي (١)

وعداوة الشعراء بشس المقتنى ...

صدق أبو الطيب فقد اقمى من عدائه الشعراء قنية مرذولة أبقت طبعنا في نسبه
يلغ فيه من يلغ ، ويشك فيه من يشك ، ويغمره من يغمر ! ويقف أنصاره والمعجبون
به موقف الحيرة والحيدة حينما يرون « الروايات » تضطرب وتتفق على الاساءة إليه
بالتحقير من شأنه والتهزىء به وتشكيك الناس في نسبه .

ومن العسير أن نهتف مع الشاكين أو المنسكرين فنزعم أن أباه وضيع سقاء لنيم
المنبت والأرومة ، وما نريد — بعد — أن نرفع بالنسب الشريف رجلا رفعتة الحياة
مكنا عليا ، ورفع الشعر الحى الى ذرى الاولب ، ورفعته رجولته وعظمته وعبقريته
إلى منزلة سامية مرموقة يشار إليها ولا يظفر بالدنو منها أو الحيلول فيها إلا أفذاذ
نادرون ، ورفعته شهرته التى تطير وتذيع مع الاجيال وتخفى في طياتها غيره من الشعراء
وتلقف ما ينتجون ، غير محفلة إلا بالأنانية الصارخة ، حتى أن الزمن لتداول أنامله
مسمعه من دويها الصاحب الرنان فلا يستطيع ويتخطاه ولا يرده هذا التداول بالرغم
مما نشر خصومه الاقوياء الدعاوة السيئة عنه وعن شعره فى عصر استحكمت فيه الدسائس
واعتقلته الرذائل والخبث لا يزهدهمرو فى الزلفى الى الامراء والحكام بأيه وسيلة
ترضهم ، إذ كان أرباب الاقلام يطوفون ببيوتهم العامرة يرجون الندى والمكرمة

(١) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على عدد المقتطف الخاص بالمتنبي بقلم الاستاذ

الصدى محمد شاك

رجاء ولو يبيع الضمير والنيل من أقدار من ثبتت كفاءتهم وعبقريتهم ، فماذا تراه
فاعلين إذا طلب منهم أن يهجووه ؟

قد كان ذلك . فحينما استعداهم المهلبى على المتنبى أسرعوا وأخذ كل منهم يحتمل
ويفتري ويكيل التهم جزافا : اتهموه بالفسولة والرعونة والسقوط وضعة النسب وحقارة
الحسب ودناءة الخلق ، فتطاول بعض هؤلاء المرتزقة المأجورين بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضل ل من الناس بسكرة وعشيا
عاش حينما يبيع فى الكوفة الما وحينما يبيع ماء الحيا

وقال آخر وهو الحسن ابن لسكك : —

قولوا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهو وعوا
اعطيتم المتنبى فوق منيته فزوجوه — برغم — امهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم فى قفا السقاء تزدهم

وقال ابن لسكك أيضا : —

متنبىكم ابن سقاء كوفى فى ويوحى من . . . إليه

وتزعم الروايات أن السقاء لم يكن المتنبى وإنما كان أباه (عبدان) ولكن الشعراء
إذا هجوا لا يلمسون الحقيقة فينحتون منها وإنما يخترعون الأكاذيب ويصنعون التهم
ويطبخونها ويقذفون بها المهجوا إيلاماله وتشويه السمعة وحطها كبريائه وزعزعة ملكاته
فالصدق فى الهجاء بعيد ، وقوامه الكذب والاختراع .

وعلى هذا القياس فإن الأقوال التى تغنى بها خصومه ومن صدقوها من بعدهم لا تقيم
الحجة على الاتهام ولا تستوثق من المتهم ، ويكفى أن نعرف أنهم انساقوا انسياقا
لا عقل يفهم ولا بصيرة ترد جماهم وأنهم مرتشون على الشهادات التى يؤدونها أمام
التاريخ — والتاريخ صادق مع من يصطنع الكذاب عليه — ومتى ما وصل إلى أحد أركان

الشهادة وهن فهي منهارة مردودة لا تقوى على الاتهام وتوجيه الأدانة .

أمكننا أن نحكم على المتنبي بهذه الشهادة فنغمزه في حسبه ونسبه ؟

أما أنا فأرى أن هذه الشهادات مجروحة فردودة لا يوثق بها متى ما سردنا ما ينهض حجر عثرة في طريقها تعرق لها وتصفعها القرائن الناطقة التي قد تكون أقوى من الشهود ، وأنا بعد قانع بما أرى راض بما انتهت إليه دراستي ولو كان ما أراه وأذهب إليه لا يتفق مع آراء العلماء والمؤرخين .

إذا استنطقنا الديوان كله وحكمنا عليه بما جاء فيه فانه يخرج بنصيب الأسد من القسمة ثم يخرج نافرا غلابا إذا لا نجد مهما بدلنا النكيسة ما يشير إلى صحته ، ويحسن بنا أن نثر أمام القارئ مختارات منه اصطفيناها من صفحاته عفوا .

واني لمن قوم كان نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم

كذا انا يادنيا إذا شئت فاذهبي ويا نفس زیدی فی کرائها قدما

فلا عبرت بی ساعة لا تهزنی ولا صحبة تنی مهجة تقبل الظلما

ما بقوى شرفت بل شرفوا بی وبنفسي نفرت لا بجدودی

وبهم نخر كل من نطق الضا د وعود الجاني وغوث الطريد

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم

يستعظمون أبياتا نامت بها لا تحسدن على أن ينأى الأسدا

لو أن ثم قلوبا يعقلون بها أنساهم الذعر مما تحتها الحسدا

وجاء له يوم اللقاء تحيقي وإلا فليست السيد البطل القرما

فارم بي ما أردت فاني أسد القلب ، آدمي الرواء

وفؤادی من الملوك وإن كان لسانى — يرى — من الشعراء

إنما التهنئات فلا كفء ولمن يدنى من البعداء

سأطلب حتى بالقنا ومشائخ كأنهم من طول ما التشمرد!

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباسح والنجل بعض من نجله

وانما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله

نقرأ لعضب أروح مشتمله وسمهرى أروح معتقله

ويفخر الفخر إذ غدوت به مسريا خيره ، ومنقله !

أنا الذى بين الاله به ال أقدار ، والمرء حيثما جعله !

جوهرة يفرح الكرام بها وغصة لا تسيغها السفلة

إن الكذاب الذى أكادبه أهول عندي من الذى نقله !

فلا جبان ولا مداح ولا وان ولا عاجز ولا تكلة

ودارع سفننه نخر لقي فى الملتقى والعجاج والعجلة

وسامع رعته بقافية يحار فيها المنقح القولة

وربما أشهد الطعام معى من لا يساوى الخبز الذى أكله

ويظهر الجهل بى وأعرفه والدردر برغم من جهله

أفاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وهذه الايات وغيرها كثير تعطى دليلا قويا على أن قائلها ليس وضيع المنبت ،

لأنه يقول ذلك لمن ملكوا أعنة الفخر والجاه والسلطان والعظمة والثراء ، ويتعاضم

عليهم فى مجالسهم وهى تضم خصوما جد أقوياء لا يبالى بهم ولا يطأطأ رأسه المرفوع

لهم وانما بنفس عليهم ويكاد يحوهم بشخصيته القوية الجبارة ، فهو إذ يهين كافورا

يقول فى صراحة وبيان :

انما التهينات للاكفاء الخ

كأنما هو كفاء لكافور حاكم مصر . وهو بالطبع لا يريد هذا العبد الاسود شبيه
الامة ! وانما يريد المعنى العظيم « الملكية والامارة » في شخص كافور .

وأى حق انتزع منه حتى يطلبه بالقنا والمشايخ ؟ لاندري ولا يحدثنا الديوان أو
الشراح أو الرواة الثقة عنه بشيء ، فلنتحدث عنه تخميننا بعد ألف سنة مضت وهو
ثاو بقره .

لعل المتنبي اضطر الى كتمان نسبه أو هو مضطر اليه حقا ، فيروى عن علي بن
المحسن التنوخى — وولد في سنة ٣٢٧ وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ في أيام الوزير المهلبى
وهو من أصدقائه ونداماه — أنه سأل المتنبي عن نسبه فقال : فما اعترف له وقال :
أنا رجل أحيط القبائل وأطوى البوادي وحدى ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى
بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى انتسب اليها ، ومادمت غير منتسب الى أحد
فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى ، فان صحت روايته — وأنا أشك فيها — فان
كتمان نسبه لم يكن لضرمة فيه ، وانما كان طماعية فى المنفعة ودفعاً للضرر .

لكن الشك يتطرق الى رواية هذا التنوخى ولو انه تقلد القضاء فهذا لا يشفع
له لا ننارى فى زماننا كثيرا من اضراب هذا القاضى ملتوى القصد منزوع الأمانة
يتخذ الدين وسيلة لاغراضه وينهض مع الاغنياء والوجهاء فى وجوه حملة الاقلام
وقادة الرأى ويشهد عليهم كذبا وزورا ارضاء لسادته عباد المال . وكان التنوخى
أحد هؤلاء المرتزقة ، فهو إذ يزعم أنه سأل المتنبي فاجاب بما سلف ذكره لا يريد
الواقع والحقيقة وانما يرمى الى الطعن فى نسبه . والذي يشير إلى أن التنوخى اخترع
هذه الرواية اختراعا وجود نوافذ يتسرب منها اليها التجريح ، ولعل القارىء إذا
تلاها يسأل نفسه : —

أكان المتنبي وحده هو الذى يتخذ الليل جملا والنهار فرسا ويطوى الصحارى
ويهبط على القبائل ويختلف الى البوادي ، وانما كان فردا من آلاف الناس اتخذوا

سبيله فهو غير مبتدع فيه ولا متفرد ؟

أهو وحده يخاف على نفسه من بين هؤلاء الآلاف وليس بينه وبين القبائل عدا ، فلم يهجمها ولم يتعرضها ولم يغمزها ، ولو فرض أنه اساء اليها فما يجدى عليه كتمان نسبه ؟ ألم تنقطع بين القبائل الخصومات والترات .

أيعقل أن يخشى أبو الطيب من أن يأخذه بعض العرب بطائلة بينها وبين قبيلته وهو من هو في عزة النفس والكبرياء والطموح وتحديه الملوك والكبراء ونفسه عليهم وتساميه ومن لم ييال دسائس الناس وكيدهم له !

وماذا تفعل القبائل برجل وضع المنبت لئيم الأصل ؟ إن قتلته لم تنج من العار ، وإن نجا منها لم تسلم من الشنار .

هذه اسئلة وإن شئت فمسي القرائن المشيرة الى الحادث تتلع بأعناقها وتبرز لنا من رواية القاضي وتظعن في صحتها حتى لتلوح لنا انها مخترعة خانها الاتقان ، فهو لم يستطع صبها في قالب لا يدنو منه التند والتجريح لأنه كان في ريعان شبابه لم يجرب بعد الامور ، ويخون الشباب التروى والاناة إذ يندفع كالسهم لا يتلو العاقبة ولا يفكر فيها لأن السرعة من شأنها أن تطوى مالا يسايرها ، فالقاضي لم يفكر أن سيأتي يوم تنقد فيه روايته وتحك ، فاخترعها وأرسلها الى الناس فأخذوها بدون نقد أو تمييز .

وكأنى بأبي الطيب الشيخ وقد نيف على الحسين وبحضرة التنوخي الشاب وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وذلك متعاطف متكبر ، وهذا مقرفص في جلسسته كالمحدودب لا يتكلم إلا همسا مأخوذا بشخصيته القوية لا يجرو على أن يسأله سؤالا كهذا ، وليس المتنبي بالغافل المأفون حتى يهرب عن الجواب إلى جواب يجد فيه الخصوم — وهم كثير — مطبخا عظيما لا كاذبهم وحيالهم وسوقا نافقة اترويجها ويبيعها .

جاء في وفيات الاعيان لابن خلكان (١) أنه كان للمهلبى « جملة من الفقهاء والقضاة

ينادونه ويجمعون عنده في الاسبوع ايلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف
والخلاعة وهم : القاضي أبو بكر بن قريعة وابن معروف والتنوخي وغيرهم ، وما منهم
إلا ابيض اللحية وطويلها وكذلك كان المهلبى فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ
السمع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا في اعطاف العيش
بين الحفة والطيش ، ووضع في يد كل منهم طاس ذهب من ألف مثقال مملوءا شرابا
قطر بليا أو عكبريا فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب أكثره ويرش بها بعضهم
بعضا ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات ومخاق المنشور والبرم فاذا أصبحوا عادوا
كعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء .

هذه القصة تدلنا على أن التنوخي وأمثاله كانوا صنائع خصم المتنبي اللدود ، فهم
بطبيعتهم يريدون إخفات ذكره والقضاء عليه وإن لم يستطيعوا فقتلوه سمعته الشعراء
بالهجو المقذع ، والقاضي بنسج الروايات المكذوبة والكلام المزعوم المتهاافت ، يسند
تارة على المتنبي نفسه وتارة على من يوثق به فكأنما هو ينقل عنه ولا رائد له إلا
الحق في حين أن صنيعه الخصم يدعو له ويطلب معه ولا يتورع عن الكذب ارضاء
لمن له أياد عليه

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التشموا مرد

أى حق هذا الذى سيطلبه الشاعر الثائر ، ونحن لانعرف له حقا مهضوما لا نرى
عن طلابه فلا دين ولا وديعة ولا غيرهما يستحق وهو مطول فيه فيطلبه بالقوة
والسلاح .

وهنا ينفسح أمامنا مجال التخمين فلا نجد غضاضة في القول إن هذا الحق الذى
سينتزع بالمشايخ والقنا لا يبعد أن يكون هو النسب المكتوم المضطر الى كتمان

وما نذكر رجلا وضعيا يستطيع أن يقف امام ممدوحه ويصقع بصوت جهورى :

سيعلم الجمع من ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم

ولكن المتنبي استطاع أن يقف أمام سيف الدولة رافع الرأس وفي مجلس الأمراء والنبلاء والعلماء والشعراء منهم أبو فراس قريب سيف الدولة ويقول كالواثق من نفسه سيعلم الجميع انني خير انسان ويغمر خصومه الاقوياء فينهي بمدوحه أن يحسب « الشحم فيمن شحمه ورم » فينهض أبو فراس مغيظا محنقا ويرد عليه بقوله « ومن أنت يادعي كندة حتى تنال رجال الأمير في مجلسه الخ.. » فلو صح أن أبا الطيب ابن سقاء أو كان هو نفسه سقاء لعبروه به وهو أقتل له وادعى الى وقف طغيانه وجرح كبريائه ولكن أبا فراس لم ينزهه الا بتلك القولة التي أزجها الغضب وحب الانتقام والسخط ، ولم يذكر لنا التاريخ أن أبا الطيب ادعى لكندة ، وليست قبيلته ولم يشر اليها في شعره ، وإنما محلته هي كندة. فأبو فراس لم يقصد الى الحق والواقع وإنما رمى الى اهانة خصمه والنيل منه .

ولو كان وضيعا لما رجاء من له حول وطول أن يمدحه ، إذ ما قيمة مدح امرئ حقير !

كان الأمير أبو الحسن بن أبي عبد الله طغج يرسل أبا الطيب ، والاول بالرملة والآخر بطبرية يحسن له القدوم اليه والشاعر لا يجيب الى طلبه ، فألح عليه فغادرها سنة ٣٣٦ متجها إليه ، وفي طريقه بكفر عاقب — احدى القرى الواقعة على بحيرة طبرية — كمن له بعض السود من صنائع العلويين الادعاء ليغتالوه ، ولكنه نجا منهم ووصل أبا محمد ولبث عنده ضيفا محفوفا بالعز والتجلة ومدحه بقصيدته :

أيا لائمي إن كنت وقت اللوائم علفت بما بي بين تلك المعالم

ديار اللوائى دارهن عزيزة بطول القنا يحفظن لا بالتائم

حسان الثنى يشقش الوشى مثله إذا مسن فى اجسامهن النواعم

فمالي وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شروق الاراقم

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وإن ترد المساء الذى شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لايزاحم !

ومن عرف الايام معرفتى بها وبالناس روى رحمه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردي الجاري عليهم بآثم
 إذا صلت لم أترك مصالا لصائل وإن قلت لم أترك مقالا لعالم
 والا فحاشاتني القوافي وعاقبي عن ابن عبيد الله ضعف العزائم
 عن المقتني بذل التلاد تلاده ومجتنب البخل اجتناب المحارم
 قتي أعاديه محل عفاته وتحسد كفيه ثقال الغائم !
 ولا يتلقى الحرب إلا بهمة معظمة ، مذخورة للعوالم
 وذى لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
 تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
 إذا ضوءها لاقى من الشمس فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم
 ويخفي عليك البرق والرعد فوقه من اللع في حافاته والهائم

الخ...

روى الصبح المنبى : « حدث أبو عمرو بن عبد العزيز بن الحسين السلمي قال :
 سألت محمدا بن القاسم المعروف بابن الصوفي كيف كان سبب امتداح أبي الطيب لأبي
 القاسم طاهر بن الحسين العلوي فحدثني . أن الأمير أبا محمد لم يزل يسأل أبا الطيب في كل ليلة
 من شهر رمضان إذا اجتمعنا عند الإفطار أن يخص أبا القاسم طاهرا بقصيدة من شعره
 بمدحه بها ، وذكر أنه انتهى ذلك ولم يزل أبو الطيب يمتنع منه ويقول : ما قصدت
 غير الأمير وما امتدح أحدا سواه ، فقال له أبو محمد : قد كنت عزمت أن أسالك
 قصيدة أخرى في فأجعلها في أبي القاسم وضمن له عنده مئات دنانير فأجابه إلى ذلك .

قال أبو القاسم الصوفي : فضيت أنا والمطلي برسالة طاهر لوعده أبي الطيب فركب
 معنا أبو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من أهل بيته أشرف وكتاب . فلما أقبل
 نزل أبو القاسم طاهر عن سرير وتلقاه بعيدا من مكانه فسلم عليه ثم أخذ بيده وأجلسه
 في المرتبة التي كان فيها قاعدا وجلس بين يديه فتحدث معه طويلا ثم انشده .

« قال عبد العزيز وحدثني أبو علي بن القاسم الكاتب قال : كنت حاضرا بهذا المجلس وهو كما حدثك به أبو بكر الصوفي ثم قال لي : اعلم اني مارأيت ولا سمعت في خبر شاعر جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير أبي الطيب فإني رأيت طاهرا تلقاه ثم اجلسه مجلسه وجلس بين يديه وانشده :

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الحبايب
فان نهاري ليلة مدلهمة على مقلة من فقدكم في غياهب
بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كل هذب بحاجب !

وجاء في هذه القصيدة : —

وحسب أني لو أهويت فراقكم لفارقه والدهر أخبث صاحب
فياليت ما بيني وبين أحبي من البعد ما بيني وبين المصائب
تخوفني دون الذي أمرت به ولم تدر أن العار شر العواقب
ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعي بعده للنوادر
يهون على مثلي إذا رام حاجة وقوع العوالي دونها والقواضب
كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقى عيشه مثل ذاهب
إليك فاني لست بمن إذا اتقى عضاض الافاعي نام فوق العقارب
أتاني وعيد الأدعياء وإنهم أعدوا إلى السودان في كفر عاقب !
ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم فهل في وحدي قولهم غير كاذب
إلى لعمرى قصد كل عجيبة كأنني عجيب في عيون العجائب
بأى بلاد لم أجر ذوابتي وأى مكان لم تطأه ركابي
كأن رحيلي كان من كف طاهر فأثبت كوري في ظهور المواهب
كذا الفاطميون الندي في بنيانهم أعز أحماء من خطوط الرواجب
نصرت عليا يابنه يهواتر من الفعل لا فل لها في المضارب

واهر آيات التهاى أنه أبوك وأجدى مالكم من مناقب
إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الذى تغنى كرام المناصب
وما قربت أشباه قوم أباعد ولا بعدت أشباه قوم أقارب !
إذا علوى لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للنواصب !

ثم رجاء ابن العميد والصاحب ورغبة المهلبى فى مدح المتنبي إياهم وترفعه عن
هذين دليل على أنه ليس وضيعا .

ومن العجيب ألا يشيع الطعن فى نسب المتنبي واتهامه بضعته وامتهان أبيه بالسقاية
إلا بعد أن نيف على الخمسين وبعد أن فارق سيف الدولة وكافورا وقصد العراق
ولم ينزل الوزير المهلبى منزل بمدوحيه واستكبر عليه فاغرى به الشعراء والكتاب ينالونه
بقالة السوء ، فلو كان المتنبي وضيعا حقا لسجل عليه فى تاريخه من قبل ثورة العداوة
والبغضاء بينه وبين الوزير ومن اغراهم واستعداهم .

قال يهجو ابن كيغلغ :

أرفق بنفسك إن خلقك ناقص واستر أباك فان أصلك مظلم

فان كان المتنبي وضيعا لتحاشى كل ما يذكّر بضعته ولما استطاع أن يقول لابن
كيغلغ : « إن أصلك مظلم » .

ويزعم الرواة أنه جمعنى ولكن العكبرى يقول . « وأما أبو الطيب فقد قيل إنه
جمعنى ولم اتحققه »

وما نذكر أن رجلا وضيعا يقول قولاً هو محاسب عليه فيه منتهى الفخر فيزعم :

ما بقوى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى نفرت لا بجدودى
وبهم نخر كل من نطق الضا د وعود الجانى وغوث الطريد

الا إذا كان صادقا فيه . وتدل على صدقه هذه اللمحة التي نراها بعيدة عن الدعوى العريضة والفخر المنحول .

إن قومه شرفوا به وهؤلاء القوم فخر كل من نطق الضاد .

هكذا يزعم أبو الطيب فمن هم القوم الذين يعدون خير من نطق الضاد ؟

إنهم قریش ، ومن قریش محمد صلى الله عليه وسلم وذريته من ابنته فاطمة حرم الامام على كرم الله وجهه .

أنقول : إنه علوى (١) !

لعله يكون ذلك ، فيقال : إنه ادعى العلوية ثم ادعى النبوة ثم ادعى العلوية فسجن واستتب وكسبت عليه وثيقة ، فمن هنا لا نستبعد أن يكون أبو الطيب قرشياً علوياً حتى نستطيع التوفيق بين شعره وبين واقعه الذي يدل عليه لئلا نتخبط في الدياجر ونزعم مع الزاعمين أن مركب النقص هو السبب الذي جعله يزعم هاتيك المزاعم ويدعى الدعوى العريضة .

وبغير هذا لا يمكن تفسير كثير من أشعار المتنبي تفسيراً معقولاً لا تصطدم مدلولاتها مع واقعه .

وروى الاصفهاني : أن أبا الطيب « اختلف الى كتاب فيه اولاد أشرف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً في خير حاضرة » .

كيف تسنى له الانتظام في سمط مختلفة المدرسة العلوية وهو غير علوى وغير شريف على ما يزعم الرواة ؟

(١) اعتمدنا في هذا على ما كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر في عدد المقتطف الخاص بابي الطيب المتنبي . وقد صدر منذ سنوات .

ولم يكن عصر المتنبي عصر مفاخرة فردية ، يتطول فيه المرء بحسبه ونسبه فيذكرهما في شعره وإنما كان عصر صراع بين العرب والعجم ، يتمدح بمفاخر الجنس وخصائصه ومزاياه ! فالصراع بين الشعورية وبين أبناء الضاد عنيف أشد العنف ، يطعن كل فريق خصمه ، ويدفع التهم الموجهة إليه بتهم يلصقها بخصمه ، فلا داعي — والحال هذه — الى التفاخر بالآباء والاجداد ، والتطاول بالاحساب والامجاد الفردية .

وشعراء هذا العصر جميعا سلكوا سبيل المتنبي بل المتنبي أوفر حظا منهم في بروز اسمه واسم أبيه وجده ، ولا يطالب — هنا — بذكر أبيه واسم مهنته وقبيلته وأجداده ومفاخره ، ولو أراد إلى ذلك سييلا لما كان ثمة من حرج عليه ، إذ كان بوسعهم أن يذكر محامن أبيه ويجعلها ضمن مخطوطاته إن منع من نشرها واداعتها .

وليس بعيدا عنا افتخار جرير بأبيه البخيل القدر ومقارنته ثمانين شاعرا وتغلبه عليهم به وبمحاسنه المخترعة ، وأبو الطيب أرقى من جرير شعراً وتفكيراً ، وأكثر منه معرفة بالكلام وتصريفه وتعليقه وتأسيساً للبراهين ، فهو إن زعم أن أباه نحر العرب فلا يفتقر الى الدليل لأنه صاحب منطق وبدية ودفوق وتدليل وفلسفة أكثر من جرير المفاخر بالمخترعات ، ولكن عصر المتنبي لم يكن طابعه بالفرد كعصر جرير وإنما كان بالجنس أو النوع على الاصح .

إن استطاع جرير قهر ثمانين شاعراً بأبيه اللئيم في مجال المفاخرة فأبو الطيب مستطيع ذلك لما له من خصائص ومواهب حرمها جرير .

وأنا مطمئن الى أن المتنبي من أسرة نبيلة من قریش لما قدمت من العلل والأسباب .

أبوه وجدّه

ولد أبو الطيب في سنة ثلاث وثلاثمائة بالكوفة بمحلة تدعى « كندة » وهي التي ذكرها في قصيدته التي مدح بها التنوخي إذ قال :

أمنسى السكون وحضر موتا ووالدي وكندة والسيعة

وفي رواية أخرى .

أمنسى الكناس وحضر موتا الخ . . .

وهذه أسماء محلات بالكوفة كانت موطن القبائل التي نزلتها وسميت بأسمائها

ويعبر الشاعر أبو فراس الحمداني المتنبي بمجلس سيف الدولة فيقول له . « ومن أنت يا دعي كندة حتى تنال رجال الأمير في مجلسه »

فهو على هذا كوفي مولدا ، كندى محلة ، وليس هو من كندة قبيلة امرئ القيس وإنما نسب إلى محله التي ولد فيها ، وقيل بدى الشعر بكندة « يريدون امرأ القيس » وختم بكندة (أي أبي الطيب) .

هذا مولده فما اسمه ؟

انه يقول هو نفسه : —

تحمل المسك من غداؤها الريح ح وتفتت عن شبيب برود

جمعت بين جسم (أحمد) والسق م وبين الجفون والتسويد

أحمد ، هذا هو اسم شاعرنا العظيم الخالد الذي استطاع أن يصاول الزمن فيتناول عليه ويبقى دليلا قويا حيا على عظمته وجبروته طاويا تحت ضنبه الشعراء حتى ليوشك

ألا يسمع لهم إلا أنين خافت إن صمت عن الانشاد ، ولا تتلع لهم أعناق إلا إذا استطاب
الرقاد ، وأما إذا صحا ورأراً بعينه فلن تجد في الميدان إلا عدداً محدوداً من الشعراء
ومن عداهم ينزون

ولا تكاد تذكرهم العين مع أن فيهم من يفوقه في الوصف والفخر والهجاء والغزل
ولكن هذا هو حظه الذي كبا به في عالم الملك والسلطان ونهض به في دولة الشعر والبيان

فأحمد ، هو الاسم الذي سجله هذا الشاعر في ديوانه ورضى به وعرفه الشاعر
الحكيم أبو العلاء المعري التنوخي به فسمى كتابه عنه « معجز أحمد » شرح فيه مختارات
من ديوان أبي الطيب شرحاً جيداً ، وقد ذكره به ثابت بن هارون الرقي في رثائه إياه :
الدهر أخبث والليالي أنكد من أن تعيش لأهلها يا أحمد

فما اسم أبيه ؟

سمع أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المعتمد بن عباد اللخمي صاحب أشيلية وقرطبة
ينشد للمتنبي .

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أتاب بها معي المظي ورازمه
ويستحييه ويردده فقال ارتجالاً :

لئن جاد شعر (ابن الحسين) فأنما تجيد العطايا واللهي تفتح اللهيا
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى بأنك تروى شعره لتألها
« الحسين »

هذا هو والد المتنبي ، وتباين الروايات في اسم أبيه وجده وتزعم أنه :
أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي

(١) في العكبري « شنيب » . الشجر المتفرق على استواء . وفي البرقوق « شنيب » أي ثغر

أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الصمد الجعفي

أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي

أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي

ويكاد المؤرخون يتفقون على أن اسم أبيه ، الحسين ، ولكننا لا نعرف شيئا عنه وعن جده فهو لا يحدثنا عنه وإنما يحدثنا عنه خصومه فيزعمون أنه وضع المنبت إذ كان سقاء بالكوفة يسقى على بعير له ويلقب بعبدان السقاء ، وقد فقدنا هذه المزامع بما نراه بعد أن استنطقنا شعره فوجدناه يفخر بنفسه وبأنه من قوم هم فخر من نطق الضاد وأغاث الطريد وأعاد الجاني ، ولم يكذبه أحد في مزاعمه بالرغم من كثرة أعياده الذين تناول عليهم فلم يعيره بأبيه السقاء إلا نفر من المرتزقة أغراهم الوزير المهلب حينما ترفع المتنبي عن مدحه فتناولوه تناولا قاسيا ولم يتورعوا عن ركوب الفرية انتقاما منه على ترفعه .

والواقع أن الغموض محيط بنشأة المتنبي وحياته البدائية وهو نفسه لم يرد أن يجليه لنا فسكت عن تسجيل نشأته وأبيه وجده وأسرته سكوتا مطبقا . ونحن لم نجد من البراهين ما يكشف لنا هذا الغموض فنكتب عن تاريخه في هذه الفترة من حياته كتابة دقيقة تقودنا إلى الغاية المنشودة بحيث لا يكون ثمة مجال للحبس والتخمين ، ولهذا فاننا اكتفينا بذكر « العموميات » التي اقتبسناها من شعره وهي كافية للدلالة على نسبه .

ولم يحط الغموض حياة أبي الطيب البدائية ونشأته الأولى وحده ولعله أحسن حظا من كثير من الشعراء الذين لم تستطع البحوث أن تكشف عن غموض نشأتهم لأنهم لم يكونوا في عصر تنبأ في الأقاليم والأقوال وتظاهر بالأنساب والأحساب والقبائل وإنما كانوا في عصور أوشك أن يتلاشى فيها الفخر بالأنساب ونهض فيها الفخر بالجنس وفضائله لأن الصراع كان عنيفا بين الدعاة إلى العربية وبين الشعوبيين أو بين العرب والفرس الذين ملؤا البلاد العربية واحتلوا قصر الخلافة وجعلوا الخليفة آلة في أيديهم .

أسرته

أمه - جدته - ابنه

قد عرفنا الرواة شيئا كثيرا من حياة والد أبي الطيب، فاسمه معروف، وكاد المؤرخون يتفقون على أن اسمه «الحسين» وأنه كان سقاه وكان جعفيا صحيح النسب وهذه معلومات عظيمة إذا قيست إلى أمه التي أسدل الستار عليها وبقيت محجوبة بمجولة لا يعرف عنها قليل أو كثير، فاسمها وأخلاقها ونشأتها وكل ما يتصل بها يكتمه الغموض والجهل، ولعل أبا الطيب كان بارا بأمه أكثر من بره بأبيه إذ ذكرها في شعره في حين أنه لم يذكر أباه بشيء - وإنما تكلم عنه الرواة - وذكر أمه في موضعين

قال وهو ملق في غيابة السجن يستشفع الوالي ويستدر رحمته :

أو لأم لها إذا ذكرتني دم قلب في دمع عين يذوب

وذكرها في قصيدة له إذ يقول :

أمنسى السكون وحضرموتا «ووالدتي» وكندة والربيعا

لم يرو لنا التاريخ اسم هذه الأم التي يذوب دم قلبها في دمع عينها إذا ذكرته ، ولم يبين لنا المتنبي شيئا عن حقيقتها ، ولاندرى أهو يريد بأمه هذه المرأة التي ولدتها أم يريد جدته التي سماها «أما» أيضا في رثائه لها :

ولو لم تكوتني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي «أما»

علم ذلك عند المتنبي نفسه ، وهو لم يصرح لنا أنه أراد أمه أو جدته . وبحسبنا منه هذه الإشارة الساذجة إلى أمه فلنتقبلها منه صامتين ، ولنستقبل جدته فلقد أشار إليها إشارات كثيرة وإلى طبعها وخلقها وعواطفها نحو حفيدها

ويقال إن المتنبي فجع في أمه وهو صغير فكفلته جدته وعينت به ، ولما ترعرع ونبت عظمه نباتا حسنا بعثت به إلى مدرسة بالكوفة يتلقى فيها العلم مع أشرف أبناء العلويين ، واستطاعت هذه المرأة أن تجعل من حفيدها قتي تتوثب منه القوة والعظمة والرجولة ، ويسير على مشاهج الفضيلة فلا يجرفه تيار ذلك العصر الخليع الماخن فيصير مثل أولئك الخليعين المجان ، لا يسألوا عن الخير ، ويغازل الحسان ، وهتك أستار العواتك ويحضر مجالس الآنس والطرب وما يشيع فيها من فسق وفجور أقل ما فيها سبيل إلى خدش الكرامة والخروج عن الصفات الكريمة والدين .

ومن العجيب ألا تستطيع البيئة الخليعة الماجنة الفاسقة أن تؤثر في أبي الطيب وتفسد أخلاقه ، ولعل التربية المنزلية التي أحاطته كان لها الفضل الأعظم في تربيته وتهذيبه ، ولعل المدرسة التي تعلم فيها كانت تعنى بالتربية والتعليم والأخلاق

وهي نفسها كانت مثالا للخلق الكامل والسمة الحميدة ، حتى أن الرواة شهدوا لها بالصلاح والتقوى ، وهما جماع أكرم الصفات ، فصلاح القلب - قلب أي انسان - واتقاؤه المنكر والمحارم صغائرها وكبائرها ليس الا دليلا على انه ملتقى لأنبل المزايا فهما ينقيانه حتى لا تبقى فيه زاوية تحتلها الرذيلة أو تندس فيها ، وتقيا المحرمات درع لا تنفذ منه ، فيبقى ظاهره وباطنه نقيين صافيين .

كانت هذه الجدة العجوز الصالحة التقية امرأة ذات خلق ودين وصلاح وحزم حتى تمكنت من مقاومة تيار العصر والبيئة وتسيير ابنها على سنة مجيدة وتربيته تربية قوية لا يظفر بها إلا قليل من الناس

أفليس هذا عملا جليلا من امرأة ؟ إنها بذلك تستحق التجلة والتكريم ، وإني لمعجب بهذه المرأة العجوز التي قدرت على ذلك وأعدت ابنها للمجد والفخار ، فلم تكن كذلك لما تقابلنا مع أبي الطيب في هذا الميدان الذي لا يهبطه الشعراء إلا نادرا جدا ، ولتقابلنا معه في حانة من الحانات ، ولنظم مع الشعراء المتجان أمثال ابن مكرمة الهاشمي

وابن الحجاج (١) ممن ركبوا أمواج تلك البيئة المنحطة فتقاذفهم الخضم وهم لاهون عابثون .

(١) ابن سكرة الهاشمي أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد شاعر متسع الباع في أنواع الابداع ويقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت منها في قينة سوداء يقال لها « خرة » عشرة آلاف بيت ، ويقال في بغداد : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخرى جدا ، ومن شعره في رثاء الوزير المهلبى :

لا عذب الله ميتا كان ينعشنى فقد لقيت بضرى مثل مالاقي
طواه موت طوى عنى مكارمه فذقت من بعده بالموت ماذاقا
وقال فى غلام بيده غصن لوز منور :

غصن بان بدا وفى اليد منه غصن منه لؤلؤ منظوم
فتجبرت بين غصنين فى ذا قمر طالع ؛ وفى ذا نجم - وم

وابن الحجاج أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن أحمد بن الحجاج شاعر ماجن كثير السخف يقطر من شعره الفجور والخلاعة وأولع باستعمال الألفاظ البذيئة التي لا ينطقها سوقة ، ولكن هذا هو ابن الحجاج وهذا دور من أدوار الخلاعة فن المؤسف أن تميل اليه الخلفاء والوزراء والأمراء وتسمع له ولأمثاله وتجزهم على أشعارهم التي وإن كانت قوية في سبكها فإنها لا تستحق الا الإهمال لما تحتوى من الفحش وهجر القول ومن شعره السليم النظيف :

وليس العيش إلا شرب راح إلى بشرها الساقى يشير
وكأس يعدل الساقون فيها ولكن حكم سورتها يحور !

وفى يتيمة الدهر الذي نقلنا عنه ترجمة هذين الشاعرين شعر كثير لهما كله سخف ومجون وخلاعة .

وإذا استنطقنا أبا الطيب نفسه نجده يعترف لهذه الجدة الصالحة بالحزم وأصالة
الرأى فيقول :

فوا أسفا إلا أكب مقبلا لرأسك والصدر اللذي ملثا حزما

وقال أبو البقاء العكبري أحد شراح ديوانه : الدماغ مأوى العقل والصدر مقر
الرأى ، مشيراً الى الصدر والرأس اللذين ملثا حزما .

وديوانه خال من ذكر أى أحد من أفراد أسرته ماعدا جدته التى ظفرت منه
بالذكر والتجيد لأنها ربه وكانت تحبه حبا جما ، بكت لفراقه المضطر إليه وحزنت
عليه ويشتت من لقياه ، فلما أتاها خطابه بكت سرورا وبللت أسطره بالأدمع الحرى
وماتت لساعتها :

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فأتت سرورا ، فمت بها غما !

وتلثمه حتى أصار مداده محاجر عينيها وأنيابها سخما

لك الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

وكان هو أيضا يحبها ويحن إليها ويألم لنأيه عنها

وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

وكان رناؤه إياها وحى إحساس يقظ صادق وقلب مفجوع بفقد أكرم الناس
طرا عليه فما يستطيع بعد النوى الأبدى أن يلذ بسرور وأمست الدنيا لديه رزءا
ومحنة وألما ، وفزع إلى الفلسفة والحكمة يعزى بها نفسه فيقول :

إلى مثل ما كان الفتى يرجع الفتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى

ولما يرى أن هذا العزاء ليس بنافع يهتف صادقا :

أحن إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمشاها التراب وماضيا
حرام على قلبي السرور ، فإنني أعد الذي ماتت به بعدها سما
وكننت قبيل الموت أستعظم النوى فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

وما حيلته وقد ملكت سبيل الاحياء الى الآخرة وجمعت بتاتها وانتقلت اليها إذ
أدركها الفناء الذي يتعقب كل حي ويقبضه متى استوفى نصيبه من الحياة .

ليصبر وليدع لها :

فأصبحت استسقي الغمام لقبرها وقد كنت استسقي الوغى واقفا الصبا
يقول ابو الطيب .

هبنى أخذت الثأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثأر فيك من الحى
لئن لذ يوم الشامتين يومها فقد ولدت منى لأنفهم رغما

من هم عدى هذه المرأة العجوز الصالحة ؟ وما هو الثأر الذى يأخذه منهم ؟ ولم
هذا الثأر ؟ ومن هم الشامتون يومها ؟

لا جواب عند المتنبي على هذه الاسئلة !

ويظهر لى ان للتنبي ولاسرتة خصوماً أقوياء اساءوا اليه واليه . لهذا لم يستطع
الشخص الى الكوفة وانما آثر أن يستقدم جدته اليه ببغداد حيث نزل وأقام ،
ونستنتج من هذا ان الغموض الذى يكتشف أسرتة فلا يكاد يبين شىء من أمرها حق
لاشبهة فيه ، لأن خصومه ارادوا ذلك وزاحموه ووقفوا فى وجهه فلم يشخص الى جدته

هؤلاء الخصوم أقوياء بالطبع . اساءوا اليه والى أسرتة . والذى يفسر لنا هذا
ويؤكد كده زعمه أن له خصوما وأن له ثأراً لديهم ، فان لم تكن ثمة إساءة لحقته منهم
فعلام يأخذ بالثأر ؟

ويقول :

كأن بنيتهم عالمون بأنني جلوب إليهم من معادنه اليتما

فألى من يرجع الضمير في « بنيتهم » و « عالمون » و « إليهم » إن لم يكن على أبناء هؤلاء الخصوم الألداء ، فلو لم يعد إلى قوم عقلاء لاستطاع أن يقول « بنيتهم » إن أراد الدنيا ولكنه لم يرد إلا أبناء خصومه . ولكن من هم ؟ لأجواب ولا تفسير لهذه الرموز فلتقبلها راضين ، إذ يكفيها من هذا التلميح الصريح إلى « العداوة » القائمة

لأنجد غير هذا بديوان المتنبي من أسرته الأدميين إلا إشارة عابرة إلى أنه لم يعيش عزبا وإنما بنى بامرأة لم يشر إليها ولا إلى قبيلتها ولا أبيها أو أسرته وإنما يعلم منه أنه كان له ابن لانه صار أبا . ولا نعرف أن يدعى الإنسان (أبا) إذا لم يكن له ولد .

وترى المروءة والفتوة (والأبو) (ة) في كل مليحة ضراتها
هن الثلاث الما نعتاتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

هذا ما يزعمه الديوان ، ويزعم الرواة أن اسم ابنه « محمد » وكان معه عندما انصرف من عند عضد الدولة ميمما العراق واشتبك معه في المعركة التي نشبت بين المتنبي وبين فاتك الأسدي وقومه حتى قتل الابن مع أبيه وقتل من كان معهما من الغلمان ؟

بأشياء من الشعر
بأشياء من الشعر
بأشياء من الشعر
بأشياء من الشعر
(١) بأشياء من الشعر

بأشياء من الشعر

بأشياء من الشعر

الفتى العربى

اختلط الاعاجم بالعرب وأصبحوا مواليتهم وخدمهم وقيامهم فنبغ منهم
كثير في علوم الاسلام ، ولما ألفوا أنفسهم مبرزين في العلوم والفنون والآداب
تطاولوا على العرب وغرخوا عليهم بالأحساب والأنساب ، واستنقصوا أقدارهم
وأظهروا لهم التحقير فسموا (شعوبين) نسبة الى شعوب ، وأضافوا الى الجمع لغيبته
على الجيل الواحد كقولهم : (أنصارى) وهو منسوب الى قوله تعالى (وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

وكان الصراع عنيفا بين العرب والشعوبين . كل منهم يحمل على الآخر ويستنقصه
واستعملوا المنطق والسفسطة في الجدل والمناظرة حتى امتلأت الكتب والأسفار
بهذا الصراع الذى دام طويلا ولا يزال حتى العصر الحاضر يحمى ويطيسه تارة ويفتر
تارة اخرى .

ومن أبطال دعاة العروبة القدماء الجاحظ وابن قتيبة والزنجشري ، فتواليفهم
مشحونة بالرد على الشعوبية ولهؤلاء أشعار كثيرة منها .

إنما سمي الفوارس بالفر	س مضاهاة رفعة الانساب
فاتركى الفخر يا أمام غلبنا	واتركى الحق وانطق بالصواب
واسألى ان جهلت عنا وعنكم	كيف كنا فى سالف الاحقاب
اذ نربى بناتنا وتدسو	ن - سفاه - بناتكم فى التراب (١)

وقال شعوبى يدح صاحب ابن عباد :

(١) لاسماعيل بن يسار النسائي

وعن عنس عذافرة ذمول	غنيينا بالطبول عن الطلول
لتوضح أو لحومل فالدخل	فلست بتارك إيوان كسرى
بها يعوى وليث وسط غيل	وضب بالفلا ساع وذئب
وإن ذبحوا ففي عرس جميل	إذا نحر وافذلك يوم عيد
هراشا بالغداة وبالأصيل	يسلون السيوف لرأس ضب
على ذى الأصل والشرف الأصيل	بأية رتبة قدمتموها
نجار الصاحب العدل الجليل	ألا لو لم يكن للفرس إلا
وجيلهم بذلك خير جيل !	لكان لهم بذلك خير عز

فقال له الصاحب : قدك ! وأشار إلى بديع الزمان ليرد على الشعوبى

فقال ارتجالا :

بما أودعت رأسك من فضول	أراك على شفا خطر مهول
متى احتاج النهار إلى دليل ؟	طلبت على مكارمنا دليلا
وإن الجزى أقعد بالدليل !	أسنا الضاريين جزى عليكم ؟
متى عرف الأغر من الحجول ؟	متى قرع المنابر فارسى ؟
أكف الفرس أعراف الخيول	متى علقت وأنت هنا زعيم
على قحطان والبيت الأصيل	نشرت بملء ماضيتك نفرا
وذلك نخر ربات الحجول !	نشرت بأن ما كولا ولبسا
وضرع من مفارقة وسيل !	تفاخرهن فى خد أسيل

فطرد الصاحب الشعوبى وتوعده بالقتل إن وجده فى بلده (١)

ولسنا بسبيل البحث فى الشعوبية وإنما هذه إشارة متواضعة إلى الصراع

(١) انظر القديم والحديث لمكرد على

العنيف بين الفريقين ، ومن أراد البسط فليتلسمه في مظانه ، وفي البيان والتبيين للجاحظ
دفاع عن العروبة ورد على هجمات الشعوبية وتفنيد آرائهم ومزاعمهم :

فمن أى الفريقين شاعرنا العظيم ؟

يجيب ديوانه ببعض ما يأتى :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى كمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفقى « العربى » فيها غريب الوجه واليد واللسان

وإنما الناس بالملوك ، وما تصلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود ولا ذمم !

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

رفعت بك العرب العماد وصيرت قمى الملوك مواقع النيران
أنساب فخرهم اليك ، وإنما أنساب أصلهم الى عدنان

لى منصب العرب البيض المصاليات

ومنطق صيغ من در وياقوت

هام القواد بأعرابية سكنت

بيتا من القلب لم تمدد له طنبا

من الجاذب فى زى الأعراب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

ما أوجه الحضرة المستحسنات به

كأوجه البدويات الرعايب

عدوية بدوية من دونها سلب النفوس ونار حرب توقد

في مقتل رشأ تديرهما بدوية فتنت بها الحال

يصف نفسه بأنه « الفتي العربي » ولا يكفيه هذا بل يزعم أنه غريب في ديار فارس ولا يكفيه هذا بل يزعم أن من بالشعب أحوج إلى البيان من الحمام لأنهم عجم لا يفصحون لأنهم مصابون بالعي والعجز والقصور ، فهم إلى الإفصاح والتعبير أحوج من الحمام لكنهم عجم غريبة لغتهم ، فلو اجتاز سليمان عليه السلام ببلادهم لما استطاع أن يفهمهم بالرغم من معرفته وتعلمه — منطق الطير والبهايم والحشرات والآدميين ولاحتاج إلى ترجمان .

إنهم أدنى من الحيوان .

يقول ذلك بحضرة عضد الدولة وهو غير عربي ، وإنما هو فارسي الأصل ، وليس غرور أبي الطيب في هذا الموقف تكلفا واصطناعا . وإنما هو طبيعته التي ما يستطيع أن يجانبها وينفك عنها ، فهو إذ يهتف به أمام ملك فأنما يهتف عن صدق وإيمان ، ولهجة تفصح عن الصدق ، فاسمعه وهو ينشد :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

إذا غنى الحمام الورق فيها أجابته أغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام - إذا غنى وناح - إلى البيان !

فصاحبنا المتنبى متعصب للعرب ، يمتدح مفاخرهم ويحتقر الأعاجم حتى يزعم أن العرب لن تصلح مادام هؤلاء سادتهم وملوكهم

لماذا ؟ لأن أفعال من تلد الكرام كريمة ، ومن هم الكرام غير العرب ، وأما غيرهم فطباعهم لا تستقيم مع المكارم لأنهم ينتمون إلى أصل عجمي عثرت بهم آدابهم وأطباعهم

وأحسابهم وأنسابهم ، وديدهم لا يرعون عهدا ولا يخفرون ذمة ولم تترك العرب لغيرهم من المكارم ما يستطيعون به التفاخر والتظاهر ، بل ليست لهم من المحاسن ما يشفع لهم في ميادين الحمد والثناء والرجولة .

ولعل ازدراء المتنبي لغير العرب وازراءه بهم وغيظه وحنقه مرده الى سيطرة الاعاجم وانتزاعهم السيادة وإذلالهم العرب وافسادهم لعاداتهم وطبائعهم المفطورة على المكارم بما أدخلوا عليها من عادات بغيضة لا تستوى مع صفاء العنصر العربي وكرامته .

ولنما الناس بالملوك وما
تصلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب
ولا عهود ولا ذمم

ونعد هذا مغالاة من أبي الطيب في حملته التي شنها على العجم وتجاوز الحدود في الغمز واللبن والنقيصة والازراء . فلم تذهب العرب بالفخر كله ولم يكن نصيب العجم من الصفات الكريمة الحرمان والاصفاء فرضوا بالأم الصفات وأخزاها فالقسمة بين الأمم في الخصائص والمواهب والمحاسن قسمة ضيزى ، في كل أمة خصائص قد تبرز بها الأخرى ، ولا تفلس أمة منها ولكن تختلف في المقدار والنصيب .

ولكننا نعذر المتنبي في صيحته ونكرانه وثورته لأنها صيحة المحروم الحاسد إذ يرى ما يحب ويتمنى في يد غيره ، وهذا (الغير) عجمي قعدت به الأحساب والأنساب وهو يرى أنه أكفأ منه وأقن بما تحت يده .

ولاندرى أكان المتنبي يحب امرأة حقيقية ويتغزل بها أم يلعب بالقول فيزعم أنه يحب كذبا ، ولا يهمنا أن يصدق أبو الطيب في هذا أو يكذب فلذلك فصل خاص أفرد للكتابة عن حبه ، وإنما نقصد الى القول بأن العروبة تطل من عواطفه وشعره فحياته عرييات بدويات لم يفسدهن التصنع الذي أدخله العجم وإنما يبدون في مظهرهن الأصيل حيث لازيف ولاصنعة .

ما أوجه الحضرة المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فالصنعة وجلب الحسن واستعارته مهنة المرأة المتحضرة لأنها محرومة من الحسن
الطبيعي الذي أخذت منه البدوية نصيبا موفورا

تلك متاع مشاع ، ودون هذه قوى مستبسلة ، دونها سلب النفوس ، ودونها
وقد الحروب .

وهو كعادته لا يريد مجرد الوصف وإنما يرمى إلى أن البدويات مطبوعات على الفضيلة
والمروءة والشهامة فلا سييل إليهن ، وبهذا يثبت لهن العزة والكرامة اللتين فقدتهما
الحضرية المستسلمة لنساء الاعاجم والمتبعة آثارهن في التكحل والتجمل ؟

عبقريّة المتنبّي

في اللغة العربيّة وفي كل لغات العالم أيضا كلمات رمز تحتوي صوراً وأشكالاً ومعاني لا ينضب ينبوعها الفياض منها : الحب والجمال والشعر والأدب والفن والفلسفة والحق والخير والعبقرية .

ولعل التعسف الذي يركب متنه العلماء متى أرادوا حل رموز هذه الكلمات واختلافهم في التفسير والشرح والمذهب والتعليل دليل على عظمتها واستغلاقتها كأنها قصور سحرية تعجب وترهب وتفسح للخيال المجال فيتصورها مليئة بالأعاجيب زاخرة بالتهاويل ، فإذا فكّت طلاسمها تلاشى ذلك السحر العبقري الذي كان يشده العقل ويترك الذهن في تصورات وخيالات ما ينتهي منها إلا ليبدأ في رحلات تصويرية رجاء أن يدرك بعض عظمتها وكنهها .

فتعريف هذه الكلمات الرمز بعديد من الكلمات باطل الأباطيل ، ومن يحاول ذلك فأنما يحاول أمراً فوق طاقته وجهده ، لأن العقل الذي يريد فكّ طلاسمها يتعثر في خطاه على سبيل انتشار فيه الشوك فما يستطيع أن يمشي أو يقف ، فأهون الأمرين شرهما وأقساهما .

يحمل بالعقل أن يعترف بقصوره فلا يهتك بمخالبه الأستار الشفافة ذوات الألوان المختلفة الجميلة ولا يرض بقسمته من هذا الجلال والروعة فذلك خير له من الانطلاق في متاهات وصحارى لا يسعه أن يحير الى المنطقة التي بدأ منها رحلته بعد أن ضل السبيل ! فلا الصوى تدله عليه ولا الرجعى مكفولة له ، وإن وسعه أن يرجع فأنما يرجع في حال من الأعياء والالين لا تضمن له الراحة والاطمئنان .

وأنا لا أستطيع أن أعرف العبقريّة أو أحصر معناها في جملة أو ألف جملة أو أكثر

من ذلك ، فهي كالشمس أنأى ماتكون بجرمها وأدنى ماتكون بنورها الوهاج ، فلتنفع منها بهذا الضياء وما له من فضل على الحياة والاحياء ، ولنترك جرمها حتى تنزل إلينا فنذكرها أو نخرج إليها فتتجرد لنا عن الأوهام المضافة عليها وتبدو لنا على حقيقتها المفطورة عليها ، ولهذا فلا نريد أن نسأل : ما العبقريّة ؟ وما كنهها ؟ ولكن نشير إليها كما يشير أحدنا إلى القمر ونستمع بنوره الفضى وما يضيئ على الدنيا من سحر وجمال .

ونقصد من هذا أن نزعّم أن العبقريّة لفظ سحرى مستغلق الكنه لاسيّل إلى تفسيره بالتعريف الضيق المحدود وفهمه لأنه كالحيّة في رحابتها وعمقها وسموقها بل أعظم من هذه الحياة الدارجة لأن العبقريّة حياة رفيعة سامقة فهي في القمة ولا قدرة لكائن ما أن يحيط بما فيها من حقائق وأسرار وهو في السفح القصي ، وانما ندرك بعض خصائصها وصفاتها بمن أسعدهم الحظ أو أشقاهم — لا أدري — فكانوا عباقرة أفذاذا .

إن هذا الفريق من خلق الله يمتاز بالشذوذ في حياته وآرائه ومذاهبه إذ هو يقطن ذروة الحياة العليا حيث تنزوى له الدنيا بمن فيها وما فيها فيضعها في كفّه كالدرهم بين أنامل الصيرفي ينتقده وتكشف له المساوئ الخبوء ويلقى عليها نظراته العابرة فاذا هو قد أدركها إدراكا قويا ، ويسبر الأغوار النائية التي يحجم عنها غيره ويسترسل إلى ما يبعد عن الأذهان فيجعل بين الحدود ظاهر المعالم فتصنق له الأكف حتى تدمى وتضج له الحناجر بالهتاف حتى تبج لأنه استطاع أن يرى ما ليس في استطاعتنا أن نراه إلا بدليل نستعين به .

هنا لك نقف مشدوهين حيارى أمام هذا النضج الذي لا يظفر به إلا أفراد معدودون من أبناء الحياة تتكشف لهم عن كنوزها وذخائرها فيأخذون منها وينفحوننا بها راضين مطمئنين أريحين ، فنهتف لهذا الصنع هتافا عاليا لأنه فوق مستوى الناس . مثل هذه الوثبة مخوفة بالشروع ، ودون هذه الأعماق ما يذود عنها ، ودون

جهاده لتغيير العادات والنظم السائدة والتعاريف الشائعة أفكار وآراء وقلوب وقوى
عمى مستبسلة ، لأن الجديد يلذع ويسخر ويتهم ويصول ، ولا قدرة للنفوس على
احتمال السخرية ولا صبر لها على من يركبها بالدعابة المريرة والتهكم اللاذع فتثور بالعبرى
لمس مقدساتها وعاداتها وأخلاقها وتناولها بالتمزيق والتجريح وقلب كيائها علوا وسفلا ،
ولها الحق في ذلك لأنها رميت بشيء جديد لا عهد لها به من قبل .

لا عهد لها بهذا التدفق لا تقف في وجهه السدود والحواجز ويتخطاها إلى ما وراءها
في شموخ وكبرياء ليهبط دنيا تزخر بالمعاني فيأخذ منها ويجود على الاحياء بخير ما تهب
الدنيا لا يخاف فاقة ولا افتقارا ولا خسارة ، لأن في نفسه عالما حيا بموج الوفرة
والنشاط والقوة ، عالما ممتلئا بالمصانع ، عالما لا تنفذ ينابيعه لأن ما يهب العبرى ليس
إلا فيضاً يزيد على كفايته وحاجته ، ولكنه يكتفى كثيراً غيره .

أخذ ما لدى الناس من ذكاء ووفرة وقوة واختزنها لنفسه ثم رد اليهم ما أخذ منهم
أضعافاً مضاعفة . أخذ منهم معادن رخيصة فأحاطها معادن نفيسة بما أضاف اليها من
مواد ليست ميسورة إلا للعبرى نضج تكوينه .

التدفق والتجديد والابداع والطفوح طبيعة العبرى ولا يظفر بهذه الخصائص أحد
غيره ، فهو على هذا مصاب بتضخم في العقل ووفرة في الاحساس ، وطفح في الذكاء ،
ولدى غيره ما لا يفيض عن الكفاية إن لم يقل عنها ، والزيادة الطاغية في العقل
والاحساس والذكاء إخلال بالتوافق والتوازن . وهذا مادعى بعض العلماء إلى
التصريح بأن هنا لك آصرة نسب وواشجة رحم بين العبرية والجنون ، فكما أن
العبرى شاذ منكور ، كذلك المجنون شاذ مهجور ، والطغيان من شأنه ألا تستقيم معه
إبرة الميزان فتساوى الكفتان .

والحد الفاصل بين العبرية والجنون أدق من أن يدرك ، فأيسر ميل إلى أحد
الجانين يحيل المرء إما عبقرية تحتفل به الدنيا أو مجنوناً يجر إلى المستشفى .

ولكن المتنبي لم يجر إلى المستشفى وإنما ارتقى إلى الاولمب حيث أطل على الدنيا من علوائه ، فاحتفلت به العصور تلو العصور ، وأخذ يسائر الحياة والانسانية ويمشي معها فإن سارتا صعدا لم يك من المتخلفين وان تقهقرتا ألفتيه متقدما عليهما

وهذا - ولا شك عندنا - مرده إلى نفسه المستوفزة الموهوبة الممتازة بالوفرة والتدفق والتجديد والحيوية ، فهو في كل مراحل حياته لم يكن إلا قوى الحس صادق الشعور أرمحي التعبير غني الرجاء ، ييأس ولكن يأس المحروم الراغب لا يأس المكروب الزاهد فهو - دوما - يرجو ويطلب ويعمل لعله يدنو من مثاله أو يدركه.

وليست ميزته مقصورة على الصفات المسرودة . فالذي يفحص ديوانه يجد هذا المينوع الفياض المتدفق قويا في منبعه قويا في مصبه قويا في مجاريه وله فروع كثيرة تستمد منه قوتها واندفاعها . فإذا رأينا في بعض أبياته كدرة فهي ناجمة عن القوة والدفوق .

ومن أعظم مزاياه التعدد والاحاطة والتنويع والكثرة . فما من خالجة استوفزت في نفس إنسان إلا ارتعشت بها نفس أبو الطيب وتنبه لها عقله فإذا هو يسجلها مستريح القلب :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

والحكم المتدفقة من قلبه أدل على عبقريته المبكرة ، فهي في حدودها الضيقة والفسيحة معا تظهر لنا عقله الكبير وإحساسه المرهف وعلمه بالحياة ودروسها وعبرها وسخفها وعظمتها وقبحها وجمالها ، تظهر لنا سعة هذا الدماغ الجبار ، وحسبه أنه اتفق مع أفلاطون وأرسطو في كثير من الحكم وسبقه إياهما بالأحكام والتحديد والشمول حتى زعم بعض خصومه كالحاتمي أنه انتحل حكمه من فيلسوف أثينا وأتوا ببعض أمثلة على مزاعمهم تجد من يدرسها ويوازن بين مرامي أبي الطيب ومراميهما مدى غير قريب

أن لشاعرنا فضل الاحكام والتجويد وبلوغ الغاية ، هذا إذا فرضنا حقيقة مزاعمهم
ولكننا مطمئنون إلى أن المتنبي أبعد ما يكون عن الانتحال لأنه لم يخلق للسطو على
الآثار وإنما خلق ليبدع ويهب .

وحكمه حصاد حياة خاصة وتحارب متعددة الجوانب ودراسات للحياة نفسها في
جميع حالاتها وصورها ، فكلما صدمه الواقع وحصره في مجاله الضيق المحدود وفجعه
في آماله الطافرة واضطر إلى الهبوط من قمم العالية إلى دنيا الأحياء لم يجد بدا من
التصريح بما يحس والتعبير عما في نفسه الكبيرة .

وإننا لنجيز لأنفسنا القول بأنه ما من فكرة تجول في نفس إنسان وعقله وما من
موقف يقفه إلا وفي شعر المتنبي ما يدل على جولان تلك الفكرة في نفسه وعقله ووقوفه
مواقفه ، وكان له في جميعها رأى جمع إلى التسديد والإصابة الخبرة والتجربة والمعرفة
إن لم نزع أنه بلغ المنتهى فيه فكاد ينجو من الخلط ويقرب من العصمة والكمال

وليس المتنبي بالعبقري الذي يدرك في يسر وسهولة من بيت يتلى له أو خاطرة أو
خالجة أو بدوة من بدواته نظمها في قصيدة وإنما يدرك بمجموع ما أنتج أو أكثره
ليرى هذه الدنيا العجيبة وما يموج فيها من أحياء ونبات وجماد .

نعم إنه دنيا لا يمكن إدراكها بسهولة كما لا يدرك عظمة الدنيا من عاش في قرية أو
مدينة لم يرمها إلى الأقطار الأخرى ليرى بعينه عجائبها ومشاهدها وصورها المختلفة .

أمامنا دنيا رحيبة فيها كل ما يشتهي وما يمتق وما يغيظ ويحنق وما يرضى ويسر
لأنها دنيا الأحياء لا دنيا الملائكة .

أمامنا رجل كامل النضج موفور الشعور له في كل ميدان من ميادين التعبير فتح
وعمران ، وله في كل قطر جولة وجولات ، وله بكل قمة من قمم الشعر علم ، وله في كل

صحراء صوى ، وله في كل متاهة دليل ، فما تريد وقد حرمت منه فإنك واجده لدى
المتنبى يحدثك عنه حديث العارف الخبير المجرب لا حديث العاجز المعجل فتلبسه وتراه
وتحسه كأنك انتقلت معه وصاحبه في رحلاته وحياته .

كان في اللغة حجة دامغة ، شهدله بالفضل فيها أبو على الفارسي فكان قد سأل المتنبى
عن الجوع على وزن فعلى فأجابه في الحال : حجلي وطربي ، فقال أبو على : فطالعت
كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لها ثالثا فلم أجد .

وحسبك من شهادة تأتي من أبي على .

وكان في الشعر عبقريا وفي الحكمة عبقريا وفي اللغة حجة دامغة ، وكان في كفاحه
وجلاده ومصابرته للزمن والأحداث قليل النظير أو منقطعة ، فكان لكل ذلك أوفر
حظا من غيره في الخلود والبقاء .

ويسع الباحث أن يرد ما أنتج المتنبى وخلفه من آراء وحكم وشعر بالرغم من
بعد أمدائها واتساع آفاقها وتعدد جوانبها واختلاف نواحيها إلى خليقة شهيرة قوية
تركزت عليها خلائقه الأخرى فكانت كأنوارا وماعداها كالشجرة وما تحمل منها من
ثمار وأوراق وأزهار وبراعم ، وتلك هي الانطلاق والحرية في الفكر والتعبير والاحساس
والانطلاق اندفاع والحرية اندفاع موزون مقيد ، وكلاهما لا يعدو القوة الطاغية التي
أطلقت مواهبه واستعداده من الأسر ، فمضى في سبيله ينشئ ويبنى ويهدم ويدرس الحياة
ولأحياء دراسة قوية أثمرت حكما قوية لا يستطيع البلى أن ينسج عليها ثوب الخمول .

للمتنبى صور نقطع بأنها مخترعة أو حاشا إليه النظر الثاقب والخاطر المتيقظ ووقدة
الحس المستوفز للتلق والوعب والتبع للحركات جمهرها وهامسها ، وما تلقى من ظلال
وما تصنع من شكول ، وكلها تظهر لنا شخصيته التي لا تتغير في كل مواقفها وأطوارها ،
فالمتنبى يطل من كل قصيدة من قصائده ويعلن عن ذلك الدوى والقوة وذلك الطابع
الذي يتميز به المتنبى دون الشعراء لأنه طابع شعر قوى لا يصدر إلا عن نفس متفتحة

وطبع سليم وذوق ممتاز ، وقوامه الصدق ، فهو لا يستطيع أن يكذب ويحتال لأن له نفساً مطبوعة على الصدق تعبر عن حقائقها ومراميها وآمالها وآلامها وما يتعقبها من مفاجئات وكوارث بدون معازلة أو مداخلة .

ليس في الشعر العربي شاعر ينم عليه أثره نسيمة شعر أدي الطيب على شخصيته لما فيها من خصائص لم تتوفر لظهورها إلا في بعض الشعراء والممتازين كابن الرومي والشريف الرضي .

عاش مئات من الشعراء في عصره ولكنهم لبشوا مغمورين لا يكادون يذكرون عند الخاصة إلا بفضل شخصيته التي طوتهم وأخفت نأمتهم فرضوا من نصيبهم بهذه الإشارة المتواضعة اليهم .

أصبحت للمتنبي مدرسة ذات خطر ، ورفرف عليه الخفاق في المشرقين وتدارس شعره النقاد والكتاب والشعراء من ذوى المذاهب المختلفة لأنه انبثق في الآفاق كما ينبثق الفجر المنير .

هذه الشخصية الفريدة بمطالبتها وميولها ونزواتها وبدواتها وشطحاتها ظاهرة من بين الشخصيات الممتازة ظهوراً تاماً ، لأن لها « خصوصيات » كانت علامته الفارقة من استيفاء الاشكال وابتداع للمعاني من زحمة الحياة واستيعاب ما فيها وطبعه بطابعه القوى المبين لا يخطئه قارئه أو يضل عنه سائر ، فهو أبعد ما يكون عن شعراء الظواهر العائشين على السطوح والهوامش والحواشي والذين لا يجدون من القوى ما ينفذ بهم إلى الحياة الباطنة فلا يعرفون بنتائجهم إلا إذا دلت عليها أسماؤهم ، لكن المتنبي يستصفي الظواهر ويحتفي بها حفاوة من يتخذها وسيلة لغاية ألا وهي الانتهاء إلى الأعماق والبواطن فيحس بما خفي عن الأعين ويدرك ما استبهم ويلتفت إلى ما كمن في الضمير فيظهر بخصائصه ومزاياه ويعرف أثره بما يحتمل من قوة وعمق وفسحة تخطي آلاف الشعراء ولا تسمح (١) إلا لأفذاذ نادرين شاذين .

(١) تسمح : تطوع

يدافع بعض العلماء عن المتنبي حتى لكانهم يريدون أن يحشروه في زمرة القديسين والرسل ويلبسونه مسوح الرهبان والقسس إذ يجردونه من النقص ويغالون في مدحه وكأله ، حتى أن أبا العلاء وهو من هوى عليه واتزانته وفلسفته انحدر إلى التعصب للمتنبي تعصبا لا نحمده من عبقرى كآنى العلاء حتى زعم أنه لا يسع أحدا أن يغير كلمة وردت في شعره بكلمة خير منها ، ويهاجمه قوم فيسكرون عليه الجودة أو الدنو منها .

نحن في الشرق مغالون مسرفون ، نسرف في المدح إذا وددنا أو تملقنا أو استجدينا حتى لكان الممدوح ينازع الانبياء العصمة والمكانة ، ونسرف في الذم ، إذا كرنا حتى لنجعل المذموم شيطانا مريدا لعنه الله بل أكثر من شيطان ، لأن هذا سوءته كفر العناد ، وعقابه على الله وطالما يتفكك به ، وذلك مدحور ينال عقابه من المجتمع ازدراء ومذلة وتشريدا ، وابتلى المتنبي بكلا هذين النوعين من الراضين المعجبين والساخطين الكارهين .

أما أنا فلا أريد من المتنبي أن يكون قديسا معصوما أو شيطانا ملعونا ، إنما أريد منه أن يكون إنسانا يرى نفسه بدون تزييد أو تزييف ، أريد منه أن يكون مزججا من القداسة والشيطانية حتى نظفر بإنسان له فطرته وطبيعته وغريزته الجانحة إلى الخير والشر يفعل الخير حينما يكون مضطرا إليه ، ويركب متن الشر إذا لم يكن إلا إياه مركبا .

والظلم من شيم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم

فأدمننا لا نشك في إنسانية أبى الطيب فيجب علينا أن نتقبل منه ما يأتي من أعمال وأقوال ولا نطالبه بإرضاء الخيال فيكون مثالى النزعة حلما من الاحلام الآبقة ، فلنتقبل منه ما كان من نبع نفسه العارمة وحسه الطاغى ، ومن عمل الإنسان الحى ، وكل كائن يرضى أحيانا ويتمرد أحيانا ولنسكن وسطا بين المادحين المسرفين والجاحدين المغرضين .

من يزعم أن العبقري معصوم من الخطأ ؟

فاذا صح أن العباقرة يخطئون ويصيبون لأنهم آدميون فلتنظر أأخطأ المتنبئ أم حمته عبقريته عن ركوب الخطأ ؟ وهل كان خطؤه من رقدة الحس وغفوة النفس ودنو الغور وفسولة الرأي أم كان من كبرياء النفس وسمو الفكر ونفاذ البصيرة وانفساح الخطي .

لعل زاعمنا يظن أن نفاذ البصيرة يقي صاحبها من الخطأ ؛ فليعلم ان الآدميين بما ركب فيهم غرائز وميول لا يسلمون منه مهما حاولوا البعد عنه ، لأنهم ليسوا رسلاً أو ملائكة عصموا من الزلل ، كان لبعض الرسل أخطاء لم يعرفوها إلا بعد أن أبانها الله لهم فاستغفروه وكادوا يبخعون أنفسهم حتى غفر لهم .

وإن دلت أخطاء المتنبئ على شيء فلا تدل إلا على أنها أخطاء يقع فيها المستغرق في التأملات أو المنهمك في زحمة المجتمع وغمرة الحياة يصارع الأهوال الزاحفة ، ويستقبل النكبات الرادقة ، أخطاء من يسابق المستقبل ويريد اختراق حجبته ونشر المطوى ، أخطاء النفس العبقرية .

السائر في السبيل يعطيك تفصيلات عما رأى في أوله لأنه شاهده ، ولا يمكنه أن يعطيك عما في آخره لأنه لم ينته إليه ، فيعتمد إلى الفراسة والتصور واستملاء الذهن فإن أخطأ فإنما يخطئ لأنه يستوحى الغيب المجهول ، يخطئ لأن بصره لا ينحصر بما يرى من الظواهر وإنما يستملئ الذهن الملهم لعله يعينه على استكشاف المجهول ، ويتغلغل إلى ما وراءها من عوالم وصور ، فهو في شغل عن الظواهر لأن الناس في إدراكها لا يبعدون عن الواقع الملموس وهو أرفع منهم وأكثر عمقا واتساعا وحفولا ، إنه سائر معجل مطرد عدوه ، ومثل هذا لا يضيره إن مر ولم ير بعض ما في السبيل .

ولا يستطيع أن يزعم أنه وقع في الخطأ لعجزه عن إدراك الصحيح يقعد به التأمل كما يقعد به القصور عن النفاذ إلى البواطن والأسرار .

شخصية المتنبى

ما الشخصية ؟ !

هى مجموعة الأخلاق والصفات تميز فردا عن آخر ، وهى العلامة الفارقة بين إنسان وإنسان سواء أكانت فى الخلقة أم فى الخلق ، وهى تتربى وتنمو حيث توجد الحرية سلطنة أمرة لا مذولة مقيدة . وتنعدم حينما تعطل الملكات والمواهب والتنويع والابتكار لأن الناس يصبحون نسخا مكرورة متشابهة — إن لم نقل متحدة — لا يمتاز أحد عن أحد بالمنازع والأهواء والصفات إلا فيما لا يحصى الاختلاف فيه ، ولكن متى كانت الحرية ملكا مشاعا بين الأفراد والجماعات لا يحتكره حاكم مستبد غشوم تنشأ الشخصيات أو ينشأ أناس مختلفون فى المشارب والاحساس والتعبير والتفكير ، لكل فرد منهم نظرة خاصة إلى الحياة والأحياء وإحساس خاص بالمعاني والأشكال . وطريقة خاصة فى الحديث والافصاح عما يحس ويرى لأنه إنسان له إرادته الخاصة وخلقه الخاصة وطابعه الخاص .

إنه يختلف عن أخيه وأمه وأبيه وصديقه وتربته خلقيا فيجب أن يختلف عنه خلقيا وإلا فما حاجة الدنيا إلى صور مكرورة وأشباه ونظائر لا تتفاوت فى شيء ، وما قيمة المجموع البشرى إذا كان كله على غرار واحد كالدنانير المطبوعة المصكوكة ؟ هذا مثل الآخر فى الحجم والوزن والثقيل والدرجة والصورة والشكل لا فرق بين بعضها فى شيء .

لم يخلق الناس متحدين فى الخلقة والخلق ، فهناك الاختلاف بين الألوان والأجسام والملبوس والحديث والمشى والأكل والشرب ، وهناك تباين فى الصفات والميول ، ليكون كل إنسان جزءا مكمل للآخر لا مكررا أو جملة مترادفة .

ونقصد من هذه التوطئة أن نقول : إن الشخصية هي مميزات الإنسان الخاصة وعلامته الفارقة عن غيره ، فهل كان المتنبي صاحب شخصية في الشعر العربي لا تندغم في الشخصيات الأخرى ، وإنما تظهر بسماتها الخاصة وطابعها الخاص وماركب فيها من غرائز وميول لا تقف في غيرها .

نستطيع أن نصرح أن أبا الطيب من أولئك الشعراء القلائل الذين تطل شخصياتهم من بين أقوالهم وأفعالهم فلا تطفئ عليها البيئة وتدغمها وإنما تحتفظ بكيانها المستقل لأن لها خصائص تجعلها من الفناء في الشخصيات الأخرى ، فما هي هذه الخصائص التي تفردها وميزته عن غيره وكانت علامته الفارقة ؟

قلنا في الفصل السابق إن عبقرية المتنبي تظهر في الحرية والانطلاق . وشخصيته هذه عبقرية أيضا في مذاهبها ونزواتها ومراميتها وصفاتها مستقلة في طابعها ، لأنها ليست صفات عادية أو عادات عامة . بل طبعها المتنبي بطابعه فبدت موسومة بوسامه الذي لا يخطئه النقاد والباحثون .

* * *

أنا آسف جدا للأسف على أن لم أتصل بالمتنبي إذ كنت أرجو أن يتأخر مولده فيولد في أيامنا هذه أو أتقدم إلى ذلك العصر فأولد فيه حتى يتصل بيننا جبل الود فكنت أستطيع أن أشاهده عن كسب وأكشف الغموض الذي يكتنف حياته وسر التناقص العجيب في أخلاقه التي تحدث عنها الكتاب والمؤلفون ، وكنت أستطيع أن أراه وأبجل أخلاقه وصفاته الخلقية . ولكن لم يتأخر - هو - ولم أتقدم - أنا ! - فمن لي بمن يعطينا معلومات عن بنيانه الجسمي ؟ !

لم أجد في الكتب القديمة والحديثة التي اطلعت عليها من قبل تسجيلات لهيئته وشكله فلا بأس - إذن - من استملاء الخيال .

أنا - كما قلت - لا أعرف سحنه وهيئته وإنما أتخيله رجلا نابت العظم لا فضول

في جسمه ولا إفراط في طوله ولا إسراف في ضخامته ، ربة القوام ، متماسك البنيان ،
حسن الوجه ، مصفور الشعر ، جذاب الحديث ، سريع البديهة ، قوى الخاطر ، تياها
بمواهبه ، مغرورا كثير الصلف ، عظيم العناية بهندامه ، يرتدي مافاض من الثياب ،
وله حفاوة بالمظهر ، حتى لا كاد أتصوره « جنتليانا » ولا يخطئ تصويري إياه على
هذا النحو .

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على قتي معتقل صعدة يعلمها من كل وافي السبال !

ففي هذين البيتين دلالة نفسية على إثبات تلك الصفات التي تخيلتها ، وفي الوقت
نفسه أراهما يدلان على سرعة بديته وتيقظه إحساسه وتنبيهه وحيويته ووفرة بسالته
وانطلاق آماله وعرامه .

يعجب أحد الفتيان بشعره فلا يحجبه بالشكر له على إطرانه وإنما يرد عليه رداً
قويا غنيظا لا يدع للمعجب الفرصة حتى تتداعى خواطره فيقرن بين شعره وشعر المرأة ثم بين
الخلقين والهيئتين بل يقطع عليه ذلك ويصدمه بالبيتين اللذين ذكرناهما . ويزعم له أن جمال
وفرته لا يروق له إلا إذا نشر صفائرها الريح في ميادين البطولة والكفاح ، واعتقل
رحمه وأرسله إلى نحر من استرسلت لحيته حتى تعل من دمه الفوار ، هنالك تحسن هذه
الوفرة وإلا فلا قيمة لها ولا جمال لأنها تصبح دليلا على الانوثة في صفات الرجال .

قال هذين البيتين وهو في مدارج صباه حيث ينزع الفتيان إلى اللهو والمرح ولكنه
« أحمد » صاحب العزيمة المستوفزة للوثوب ، الطامح إلى مقاعد الملوك والأمراء ، الراغب
في حياة الجلاذ والصراع والرجولة .

كان طموحه جنونيا أدنى إلى الخيال الجامح منه إلى الاتزان المرموق ، ذاهبا في
الاعتداد بنفسه مذهبا كريها في بعض شعره محبوبا في بعضه الآخر ، ومن سخفه في
المبالغة والادعاء قوله :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله (م) وما لم يخلق
محتقر فى همى كسفرة فى مفرقى !

وفى أياته الثلاثة لا يعبر عن طموحه وتطرفه بل يقرن ذلك باحتقار ما خلق وما لم يخلق ، لأنه لم ير أحدا يسمو إليه أو يدنو منه ، فهو لهذا براهم كسفرة فى مفرقه لا قيمة لها ولا خطر ، تلك جرأة منه قد يعاقب عليها الشرع أو يأثم فى حدوده ولكنه فى نجوة عن الإثم والعقاب فى دنيا « الشعر » لأن الأدب لا يلقى به إلى حكومته لخروجه على الدين فلماذا سلطان ولذا ميدان يبيح له أن يقول ما يريد ، ولنا أن نأخذ منه الدلالة الواضحة على شخصيته .

أنلتقى بهذا الطموح الوثاب فى نفس جبان أورده حبها إياها موارد التقي ؟ أم لا نألمسه إلا فى نفس رجل شجاع مقدم أورده افتتانه بالبطولة الحرب والتوى !!

أما أنا فلست أنكر شجاعته مع من جحدوا وإنما أعتقد أنه كان شجاعا مغوارا ، ودليلنا على هذا حضوره عديدا من الوقائع مع سيف الدولة سواء أكان شاهد عيان يراقب المعركة من بعيد ويسجلها أم كان يلقى بنفسه فى الميدان بين أمواج الموت المتلاطمة فيضرب ويظمن ويقتل ! لأن الجبان كثير الحذر لا ينزل هذه المنازل المشروومة لأن الحرب عمياء لا تبصر ولا تميز حتى تترك غير المقاتل والجبان وتختار الشجاع والباسل والمقدام ، فلو صح أنه جبان ما كان يضيره التخلف عنها وباب المعاذير مفتوح على مصراعيه ، وسيف الدولة لا يضيق بالعذر ولا يغضبه تخلف جبان خوار .

ويعجب بعض الناس من أنكروا شجاعته لبخله من التقاء هاتين الخلتين فى نفس ، مع أن اجتماعهما أمر عسير إذ لا يمكن أن يجتمع متناقضان وضدان فى آن واحد ، فالشجاعة ينبوع كثير من الصفات الكريمة ، والبخل ملتقى الرذيلة والطمع والخلق

الفاسد . فأنى لهما أن يجتمعا ؟

هذا ما يذهب إليه بعض السكاتيين ، ولكننا نرى ألا تناقص بين ذلك إن صح أن
المتنبى بخيل كز ، فأنا أعرف كثيرا من الشجعان المشهورين بالبطولة والبسالة في
الحرب ولهم صفات جد كريمة ولكنهم مع هذا بخلاء يكاد يجود أحدهم بقلبه ويضن
أشد الضن بدرهم في جيبه !

وأما بخله فأنا لا أسميه بخلا ولا أفهمه كما يفهمه بعض من كتب عنه ، أرى أنه لم
يكن بخيلا وإنما كان حريصا على المال ليستطيع أن يجعله وسيلة الى العظمة والسلطان
ونحقيق الأمانى .

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فالأمران مرتبطان وثيقان . لا المجد طائع لفقير ، ولا المال آت لوضع مذلول ،
فيجب والحال هذا أن يجتمع الزميلان الكريمان — المجد والمال — لينال المرء ما يتمناه
ويظفر بأحلامه .

إنه يرى ذلك لأنه يريد أن يصنع ملكا !

فالبخل سواء كان بخلا بمعناه المعروف أو كان حرصا على جمع المال للجد والسُلطان
كما يزعم هو لا يرضى به الرجل الكريم لأنه يضيق بمثل هذه الخلال التي إن اعتذرنا
له فإنما نلوم على صدورها منه . فهو أولى بها واللوم أدنى منه لأنه استهجن البخل
وندد به : —

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر ، فالذى فعل الفقر

فكيف به إذا حرص عليه حتى ضاقت بأمواله ظهور أنعامه وفيها صنوف الأحجار
الغالية والذهب والفضة وغيرها

وكان شاعرنا أبعد ما يكون عن الاتزان الخلقى والفكرى حتى ليشبهه الابل المهيومة لا يستقيم على حال كأنه الحياة نفسها فى تطورها الدائم وانتقالها من حال إلى أخرى .

فالمتمنى راكب رأسه أبدا ، راكب رجله أبدا ، لا يغنى لدى أحد إلا رحل عنه وفارقه فراق كاره موتور ناغم ، وهو نفسه سعى بعض هذا الفراق غدرا منه :

وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طراً لا لأهم طرا

فعاقبني المحصى بالغدر جازيا لأن رحيلي كان عن حلب غدرا

وطورا يتهم سيف الدولة بالغدر فيزعم فى مدحه كافورا :

حببتك قلبى قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكأن أنت وافيّا

فإسرافه فى أحلامه وإسرافه فى آرائه ومدائحـه وفى حبه وبغضه وإسرافه فى كل شأن من شؤونه وعدم اتزانه غيرت وجهة أخلاقه ومزاجه تغييرا تاسا وزادت فى جفوة الناس له وجفوته إياهم حتى أنه لم يختار له وطنا ولا منزلا ولا بلدا ولا مذهبا ، كأنه عابر سبيل لا حاجة له بهذا ، أو كأن الوطن العربى كله مشاع له ، إن همس له شيطانه أن يغادر مدينته ويفارق ممدوحا أنصت له وولى إلى حيث أشار . وإن أوحى إليه قولا لم يزنه ، سبان لديه إن وافق الدين أو خالفه ، والتأم مع المجد أو أفترق عنه . أو رضى به الخلق أو سخط منه . أو حجب الناس أو أغضبهم .

ولكن هذا الانتقال من بلد إلى بلد . وقطع الصحارى والقفار ، وعدم الرضا بحال رتيبة ، وفراره من الأذى والمهانة والضميم بالرغم من الوفرة والغنى والنعيم الذى كان يلقاه لدى من يفارقهم ، واستهدافه للأخطار وصبره عليها ، وبلاءه بالمنافسة والصراع والحسد دليل على أن للمتمنى رجولة تتكسر عند صخورها أمواج الحياة المزيدة وهى شاحخة تهزأ بها تستقبل الليل باسمه وتحجى الشمس عندما تطل من السماء والأمواج عند أقدامها يطاير نفيانها ثم يذوب فى الخضم العميق .

كذلك كان المتنبي قويا كالصخر ، عميقا كالبحر ، تياها عنيفا كالريح .

وأما الضعف في بعض أخلاقه فلا أراه ضعفا طبع عليه وورثه عن أسلافه ، وإنما هو ضعف حمله عليه ما لقي من مكاره وخطوب وحسد الناس إياه وافتقاره إلى الود الصادق وابتلاؤه بالكيد والدس والتجسس .

لم ينكب نكبة صدمته ونهنت من قواه مثل نكبته بالحسد والبغض والشماتة ونسيان الجليل . فلم يجد قلبا يعطف عليه ويرعاه ويحن إليه ويذكره غير قلب جدته الحنون الحازمة ، حتى أنه كان يرى أن الحسد ليس من طبيعة الإنسان وحده وإنما هو طبيعة غيره من المخلوقات .

وفي تكراره هذا اللفظ في قصائده ومقطوعاته على صور مختلفة وصيغ متباينة إشارة قوية إلى هذه الظاهرة العجيبة وما وراءها من دلالات نفسية

ابتلى بالحسد وأذاقه الحساد آلاما مبرحة أصابته بجروح لا تكاد تندمل إلا وهي
أخذة في النفور

فالشمس من حساد ممدوحه لأنها ترى أنه أكثر منها نفعا للكون والحياة ، حتى الخيل يحسد بعضها بعضا إذا اختار أحدها ، حتى الجراح تحسد الجرح المطبوع أثره في وجهه لشرف المكان الذي ينزله ، حتى الأيام تحسد يوم « عيد النيروز » لتقدير الفرس إياه وإعلان البشائر والأفراح فيه ، والسماء تحسد الأرض لأنها خلعت عن الممدوح ، والبلدان لم تنج من الحسد لأنها تود أن تكون البلد الذي شرفه بإقامته فيه ، والسحاب حاسد ، لأنه عجز عن أن يجود على الناس بالخير والبركة والنماء كما جاد المحسود :

الشمس من حساده ، والنصر من قرنائته ، والسيف من أسمائه

وتغبط الأرض منها حيث حل به وتحسد الخيل منها أيها ركبا

فاغتبطت إذ رأت تزينها بمثله والجراح تحسدها

عظمته بمالك الفرس حتى كل أيام عامه حساده
 أكارم حسد الأرض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس
 تحاسدت البلدان حتى لو أنها نفوس لساار الشرق والغرب نحوكا
 والذي ريب دهره من أسارا ه ، ومن حاسدى يديه الغمام
 وتمشى أعاديه محل عفاته وتحسد كفيه ثقال الغمام
 وهانحن نورد أبياتا شكنا فيه الحسد على صور مختلفة، قال:

تطيع الحاسدين وأنت مرأ جعلت فداءه وهم فدائي
 غدتك نفوس الحاسدين فإنها معذبة في حضرة ومغيب
 وفي تعب من يحسد الشمس نورها ويجهد أن يأتي لها بضرب
 وللحساد عذر أن يشجوا على نظري إليه وأن يذوبوا
 فإني قد وصلت إلى مكان عليه تحسد الحقد القلوب
 ولا رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب
 فليت سيوفك في حاسد إذا ماظهرت عليه كتب
 يريد من الحساد ما الله دافع وسحر العوالى والحديد المذرب
 وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب
 عواذل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخلود منى لماجد
 أزل حسد الحساد عنى بكتبهم فأنت الذى صيرتهم لى حسدا
 قطعهم حسدا أراهم ما بهم فتقطعوا حسدا لمن لا يحسد
 يحدث عن فضله مكرها كأن له منه قلبا حسودا
 ويحتقر الحساد عن ذكره لهم كأنهم فى الخلق ما خلقوا بعد
 فلازلت ألقى الحاسدين بمثلها وفى يدهم غيظ وفى يدي الرد

حسم الصلح ما اشتته الأعادى
أنا رب الندى وترب القوافى
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
إذا سمع الناس ألفاظه
فاغتنظ بقوم وهشوذ ما خلقوا (١)
وقد منيت بحساد أحرابهم
فلو أنى حسدت على نفيس
ولكنى حسدت على حياتى
ولأنال من حساده الغيظ والأذى
فأبلغ حاسدى عليك إنى
فإذا مر بأذى حاسد
لأكبت حاسدا وأرى عدوا
أعادى على ما يوجب الحب للقتى
سوى وجع الحساد داو فأنى
ولاتطمعن من حاسد فى مودة
ومن فر من إحسانه حسدا له
يا افخر فإن الناس فيك ثلاثة :
وقد يلقيه المجنون حاسده
إن كان سر كم ما قال حاسدنا
أطعنك طوع الدهريابن ابن يوسف

وأذاعته السن الحساد
وسمام العداء ، وغيظ الحسود
أنى بما أنا بك منه محسود
خلقن له فى القلوب الحسد
إلا لغيظ العدو والحاسد
فاجعل نذك عليهم بعض أنصارى
لجئت به لذى الجد العثور
وماخير الحياة بلا سرور
بأعظم مما نال من وفرة العرف
كبا برق يحاول فى الحاقا
صار بمن كان حيا فهلك
كأنهما : وداعك والرحيل
واهدأ والأفكار فى تجول
إذا حل فى قلب فليس يحول
وإن كنت تبديها له وتنبيل
تلقاه منه حيثما سار نائل
مستعظم أو حاسد أو جاهل
إذا اختلطن ، وبعض العقل عقال
فما لجرح إذا أرضا كم ألم
بشهو تننا والحاسدوا لك بالرغم

(١) « وهشوذ ، أصلها وهشوذان منادى مرخم

إني وإن لمت حاسدي فما أنكر إني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم

بلا الله حساد الأمير بحلمه وأجلسه منهم مكان العمائم
ويوما يغيط الحاسدين بوصله أقيم الشقا فيها مقام التنعم
قليل عائدى سقم فؤادى كثير حاسدى صعب مراى
غضب الحسود إذا لقيتك راضيا رزء أخف على من أن يوزنا
وعاش عيشة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان

واسمع منه الود على نغمات أوتاره المختلفة :

ما الخل إلا من أود بقلبه وأرى بطرف لا يرى بسوائه
كفى لصفاء الود رقا لمثله وبالقرب منه مفخر للبيب

ولا ذكرت جميلا من صنائعها إلا بكيت ، وماود بلا سبب
إذا لمت منك الود فالمال هين وكل الذى فوق التراب تراب

سالم أهل الوداد بعدهم يسلم للحزن لا لتخليد
أقصر فلست بزائدى ودا بلغ المدى وتجاوز الحدا
أبليت مودتها الليالى بعدنا وقسى عليها الدهر وهو مقيد
فما تركوا الإمارة لاختيار ولا انتحلوا وداك من ودا
ألوم به من لامنى فى ودا وحق لخير الخلق من خيره الود
أود من الأيام مالا توده وأشكو إليه بيننا وهى جنده
صار ما أوضع المخبون فيه من عتاب زيادة فى الوداد
ضع الود والرعاية والسود د وإن تبلغا إلى الأحقاد

إذا لم تجزهم دار قوم مودة
كفتك المروءة ماتتقى
ولقد منحت أبا الحسين مودة
لساني وعيني والفؤاد وهمتي
بأبي من وددته فافترقنا
جواد سميت في الخير والشر كفه
وكل وداد لا يدوم على الأذى
فلم أر ودهم إلا خداعا
سقاني الخمر قولك لي بحقي
مالي لا أمدح الحسين ولا
ولا تطمعن من حاسد في مودة
لم تر من نادمت إلا كا
ولما صار ود الناس خبا
يقر له بالفضل من لا يوده
إني بليت بود مثل ودم
هو الوفي ولكني ذكرت له

أجاز القنبا، والخوف خير من الود
وآمنك الود ماتتقى
جودي بها لعدوه تبذير
أود اللواتي ذا اسمها منك والشرط
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
سموا أود الدهر أن اسمه كف
دوام ودادي للحسين ضعيف
ولم أر دينهم إلا نقا
وود لم تشبه لي بمذوق
أبذل مثل الود الذي بذله
وإن كنت تبديها له وتبذل
لا لسوى ودك لي ذا كا
جزيت على ابتسام بابتسام
ويقضى له بالسعد من لا ينجم
فإني بفراق مثله قن
مودة فهو يسلوها ويمتحن

فشاعرنا محسود بما قد بكى منه مفجوع في الأوداء ، حتى أصبح من ديدنه تكرار
هذا النغم الذي ألفه ، فهو ما برح يشكو ويألم من فجيعته الكبرى حتى أنه سمي ابنه
« محسدا » .

هذه ظاهرة خاصة في شعر المتنبي التفت إليها الأستاذ العقاد وأشار إليها ولا توجد
في شعر غيره ممن نكبوا بهذه الأمراض الاجتماعية لأنهم لم يبلغوا مبلغه من فقدان

الأصدقاء وكثرة الحساد والظالمين ، فهو لاشك عندى مغرور إذا اشتد حذره وزادت
حيطة وحرص على ماله واختار العزلة والانتقال والشدة لأنه لقي من شر الناس
وعنتهم ما يكفي بعضه لأن يجب إليه الموت ، ولكنه كامل الرجولة جياش العاطفة قوى
القلب ، لم تخنه قوته ورجولته في لحظات الخطر والأذى ، بل كان مثال القوة العمياء
الطاغية .

عاش خمسين سنة وبضعة شهور عيشة جلاد وكفاح لم يصب في خلالها إلا بمرض
الحصى حينما كان فى مصر وسجلها فى قصيدة له .

وهو إذ نيف على الخمسين لم تنكسر فيه صرامته وتهوره ولم يخفت صوت حماقته
الجمهورى بل كانت نزوات الفتوة وشطحات الصبا واندفاع الشبيبة والقلق والاضطراب
تكبر كلما كبر ونما . فإذ غادر الخمسين لم تفتر فيه عواطف الشهوة والتمرد بل كان
مشبوب الضرام وقاد القريحة ظامنا إلى الحياة مرهف الحس لم يبلده مر الغداة طوال
هذه السنين بل كانت رجولته كشيئته صراعا وصيالا وارتحالا ومفارقة إلى غير رجعى
وركوب أخطار وامتناء ليل ، بل أشد خطرا عليه من شبابه لأن الأعداء كانوا
يكثرون كلما مر يوم ، فبالطبع أن « قائمة » أعدائه قد امتلأت بأسمائهم لكثرتهم
وتناولت الدعاية له وعليه ولبس خصومه وأنصاره لاماتهم ونزلوا الميدان يحترقون
ويختصمون . ولكن المتنبي وحده هو الذى انتصر عليهم وهزمهم وهو وحده خلدهم
فأصبحوا يذكرون إذا ما تناول الدارس حياة الشاعر بالحل والدرس وما اعتور حياته
من خطوب وكوارث .

فالعصر الذى ولد فيه كان عصر شك فى الأديان وعصر تنافر وخصام وتدافع
ونقار بين المبادئ والمذاهب والعقائد من ناحية ، وبين المسلمين وغيرهم من جهة
أخرى ، وبين المسلمين وبعضهم من جهة ثالثة ، فهو لاشك منعكس فى هذه البيئة آخذ
من أخلاق أفرادها . فكان مزاجه مزاج الرجل الواقعى الذى لا يريد إلا
ما يدرك بالحواس أو تشترك فى إدراكه الحواس المادية مع القوى والملكات الذهنية

أو ما روى الغرائز من رغبات وشهوات عارمة . منطلقة لأنه لم يخلق للرخاوة والنعومة بل كانت يئسه وعصره خشنين إلا ما ندر ، ولهذا فنحن لا نجد في شعر المتنبي الغزل الذي نجده عند بشار أو كثير أو عمر بن ربيعة أو ابن الرومي .

والمتنبي يمر كعابر سبيل بدنيا الحب وإن كنا نوقن بأنه أحب ولم ينزل في حاناتها ولم يحضر مراقصها لأنه يريد الدنيا الصاخبة حيث تتناحر المبادئ والشهوات وترفع الرغبات رموسها كالحيات ويصول الناس صيال الذئاب السبعة على المال والبين والحكم والملك والسيادة والشهرة ، على لقمة خبز يلقيها في جوفه فلا يرتاح إلا إذا استقرت فيه فهو يريد أن يعيش في دنيا الحياة بما فيها من قوة وضعف وخشونة ونعومة وآلام وأفراح ومصائب وسعادات وبشائر ونذر . هذه الدنيا الحية التي تجتمع فيها المتناقضات والمختلفات في اللون والشبه والوزن والهيئة في كل شيء .

دنيا الواقع التي ينتزع منها حكمته وتجاربه ويستمد منها إلهامه ويستوحى منها آراءه ويغذى بها قلبه وعقله .

ولم يكن المتنبي بدعا بين الشعراء أو بين طلاب المجد والشهرة وإنما كان كأفراد عصره الممتاز بالمنافسة والحسد والبغضاء ، إذ استشرت هذه الأرزاء بين الملوك والأمراء والقادة والشعراء فكان في كل قطر ملك أو أمير ينسأوى أمير البلد الآخر ويبغضه ويتمنى أن تزول عنه نعمته إليه ، وكان الشعراء يتنافسون في الزلفى وإرضاء أرباب المناصب حتى يفوزوا بأعطياتهم ، وكان المتنبي أحد طلاب الشهرة والمجد . طلب الملك في أول أمره بوسائل شتى غلابا وصيالا ، ثم لما فشل تألمه رجاء وسؤالا ، لأنه كان ينظر إلى نفسه فيجد أنها ليست أدنى من نفوس الحكام والقادة والمسؤولين عن مصائر الشعوب ، وربما رآها أفضل من تلك النفوس المريضة المنخورة المسالمة ، بل كان يراها ذلك حقا ، ولقي في سبيل أحلامه آلاما جساما وركب أخطارا يكفى بعضها إلى إرساله إلى الهاوية ولكنه نجح حتى يستوفى ما كتب عليه في صفحات القدر .

ولا ينتظر القارىء أو الباحث منه طبائع رخوة ناعمة ولا يلتمس لديه إلا ما يلتبس من بطل ينزل إلى المعركة الحربية يستره الحديد وتحميه النار ، لا يريد إلا الفسك والانتصار والتملك .

هكذا كان المتنبي وأعظم ، لأن نهاية الحرب سلام وطمأنينة ، ولكن حياته الأليمة لا تنتهي من الحرب والمصائب إلا ويدركها صراع جديد ، كأنها حلقات يجذب بعضها بعضا .

ولم تكن هذه النفس القوية ولم تكن ولم تطرحها الكوارث أرضا بل ثبتت وصارت حتى كان حتمها مخبوءا في إحدى وثباتها الظافرة .

كان شريفا هماما شجاعا مقداما ، لم يؤثر عنه أى خلق فاسد مكروه من الأخلاق الاجتماعية الفاسدة التي شاعت في عصره ، فلم يكن من عباد الشهوات البغيضة المردولة ولم تفتنهما اللذات ولم تمتلكه هواه الخمر ولا النساء ، ولم ينحدر إلى الحلمات المسترذلة التي انحدر إليها أبناء عصره ، بل كان بعيدا عن هذه الدنيا ، وإنما أثر عنه أنه لم يصل ولم يصم ولم يقرأ القرآن ، ولكن ورد أنه صلى العصر ذات مرة ركعتين . وليس هذا كما نرى ويرواه غيرنا من القدماء والمحدثين — ابتداء منه وضلالا ، وإنما هو اتباع للدين فاعله كان في سفر قصر من أجله صلاة العصر الرباعية إلى ثنتين ، والقصر مباح بل واجب في الأسفار ، ونحن نجزم أن المتنبي إذا غفل عن قراءة القرآن ما استقام شعره ونبل ، بل للأسف واضطرب ، لكنه إذا لم يقرأ القرآن عبادة وتدينا فمن المؤكد أنه قرأه التذاذا ببلاغته وجودة معانيه وقوة أسلوبه وعظمة إيجازه ، وتقوية لثقافته رتمية للمسكاته بالقرآن الذي تحدى البلغاء .

وأثرت عنه هذه القصة المسرودة في (الصبح المنبي ص ٥٠) وموجزها أن رجلا من أهل الشام كان يتوكل للتنبي يدعى أبا سعيد قال : « إن المتنبي دله على غلام وسيم الطلعة كان يجلس بأحد جوانيت حلب وطلب منه أن يأتيه به فضى إليه وجاء به وبات

الليل بدار أنى الطيب وأبو سعيد ثالثهما حتى إذا أصبح أمره أن يمنحه ثلاثمائة درهم فتعجب المتوكل وزعم لموكله أنه غلام سمح القياد ويحب باليسير وهو لم ينل منه حظا فكيف يسمح له بهذا القدر من المال ، فنهزه أبو الطيب وأمره أن يعطيه المبلغ وقال : أتظنني من أولئك الفسقة ؟

وأنا لا أطمئن إلى هذه الرواية ولو أن أبا سعيد يرى أبا الطيب أخيرا ، وإذا اعتمدنا عليها فهي لا تصغر المتنبي بل تكبره .

وخلاصة القول في شخصية أبنى الطيب انه كان رجلا موفور العزة والكرامة والشهامة والمروءة كأخلاق طبيعية ، نقول كأخلاق طبيعية لأن المتنبي اضطر إلى التنازل عن بعض عزته لكافور طمعا في السيادة والتملك لا لأنه كان يراه أهلا لهذا التنازل له عن بعض كرامته فنحن لم نتعود منه ذلك أبدا ، إذ ألفيناه شديد الإحساس بعزته كثير الدعاية لأنانيته وفرديته حتى أن خصامه مع رجال سيف الدولة وذوى قرباه وتطاول الجفوة بين الشاعر والأمير لم يكسرا من حدته وصلابته فقال في مجلسه :

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم

« أنا الثريا وذان الشيب والهرم ،

« كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ،

هذه غضبة الفنان إذا أصيب في كرامته وهى غضبة العبرى الجبار إذا خدشت عزته ، أما تنازله لكافور فهو مدفوع إليه دفعا لأنه يروم خداعه والاستكانة له حتى يظفر بتحقيق أمله الطافر .

إن مامنى به المتنبي من عصره أقامه وأقعده وحمله على أن يشكو الزمن ويتشاءم ويتبرم تبرم من يبنى بحمية الآمال لا تبرم من يسأم الحاضر لأنه يريد واقعا أرقى منه وأفضل ، إنما تبرمه لأنه لم ينل مأربه ، فلو نال المتنبي مأربه لرأيت هذه الحياة الظالمة الغشوم ولرأيت هذه الدنيا التى تسترد ماتهب ولرأيت الدهر الذى ناسه ناس صغار

ولو أن لهم جثنا ضخاما تتحول في نظره عادلة محبوبة محترمة تستحق التقدير والإجلال لأنها حققت أحلامه وأمانيه .

ولعل فشله في دعوى النبوة — على بعض الأقوال المروية — كان مدعاة استخفافه بالدين لأنه لم يجد فيه وسيلة تقوده إلى غايته وتظفره بمطلبه ، إذ كان ينظر إلى عظمة هذه المعاني والمعتقدات عن طريق منافعها المادية ولما ألفاها غير مجدية إياه نفعا ففرت فيه العقيدة ولم تبق للدين أية سيطرة عليه فخرج عن سياجه وانطلق من عقاله ، وشعره ينطق أنه لم يكن متدينا أو يحفل بالدين ، وليس هذا وحده هو سبب ذلك بل هناك أسباب أهمها أن العصر الذي ولد فيه كان عصرا مشهورا بالشك والإلحاد والزندقة والتطرف وكثرة الفرق والمذاهب والنحل .

إن نفسا عبقرية كنفس المتنبي لا تنهم بالنضوب والأعوجاج ، فهي دنيا حافلة بما نرى ونحس في دنيانا من متناقضات وأضداد ، فالدنيا أوالحياة لا تطالب بأن تكون نعما وسعادة ورحمة وشبابا وجمالا وخيرا ولو طولبت لما لبث النداء لأنها ليست مدينة لأحد حتى تنزل على رغبته وإرادته . فهي تحتفل بهذه المعاني المحبوبة كما تحتفل بنقيضها فهي على حد تعبير المتنبي :

أبدا تسترد ما تهب الله يا فياليت جودها كان بخلا

فنفس العبقرى — ونفس كل حي — دنيا بها السعادة والشقاء والنعيم والبؤس والأمل واليأس ، والاختلاف بين النفسين منظور لأنهما ليستا على غرار واحد ، وتباينان في العمق والبعد والإحساس والنظر والإدراك .

ولحن على هذا القياس لا تطالب المتنبي بأن يهبنا كل جديد جديد مستساغ ، بل نريد منه أن يهبنا نفسه بما فيها من طيبات وخبائث ، ومن حقائق وأباطيل ، لأننا نرى فيها حياة نفس إنسانية تعيش في عالمنا الأرض يختلف عليها ما يختلف على الأحياء جميعا وقد وهبنا المتنبي مالم يهبه غيره إلا قليلا .

انتم الشعراء

« نقد »

لفيلسوف الفريكة أمين الريحاني كتيب تحت عنوان « أنتم الشعراء » يقع في ٩٢ صفحة حمل فيه على أدب البكاء حملة قاسية ضروسا ، وكان بوسع الأستاذ أن يضم كل ما فيه في مقال واحد بدون أن يخسر شيئا من المعاني أو يترك شيئا من الدلالات.

ف مقالات الكتيب كلها في الدموع والحملة عليها والتنديد بها ، ونحن نوافقه إلى حد ما ونفترق معه في كثير مما يراه الأستاذ ويذهب إليه.

فهو يريد من الأمة أن تكون كالصخرة لا ينبجس لها دمع مهما فدح الألم واشتد الخطب ، لأن الدمع دليل الضعف والخنول ، ويضرب الأستاذ مثلا فيزعم أن الأفريقيين كثيروا البكاء بقوله : « الرجال في الشعوب الحمجية والمتأخرة في التمدن هم أسرع إلى ذرف الدموع والنحيب من الرجال المتمدنين » (١) ، ويزعم أيضا أن ذلك منشؤه الوراثه والتقليد.

ونحن نقدر للأستاذ صراحته وإخلاصه ، ولكننا لا نريد أن يندفع وراء هؤلاء المتمدنين - في زعمه - فينكر على الشعراء الدموع لأنها من الحمجية بمكان مرموق.

ومن الخير أن نبني نقاشنا على أساس منطقي عامي ، فالأستاذ يعترف أن ذرف الدموع منشؤه التقليد والوراثه وهذان طاغوت جبار قاهر لاسلطان للفرد عليه إلا بمرور الأجيال حتى يستطيع التحرر من نيره وليس كل التحرر ، فشعراء الشرق

معذورون - والحالة هذه - إذا ذرفوا الدموع لأن آباءهم وأجدادهم الذين ابتلعتهم
الآجيال الغابرة وطوتهم كانوا ييكون، فهم على آثارهم مقتدون وعلى طريقهم سائرون.

وماذا يعملون والوراثة تقيدهم والتقليد يكاد يكون غريزة متفتحة عارمه لا يستطيعون
محوها أو كبتها والزمن يقسو عليهم أشد القسوة ويحطم كل سيف وكل رمح بأيديهم ،
و، بحق كل جهد متجدد مكرور ، ويغزوهم بالآلم المبرح ، ويفجعهم في أحلى آمانيهم
وأغلاها ، وأفضل آمالهم وأزكاها.

إن قاموا في وجه الزمن المستبد العنيف صدمهم وتابع صدماته إياهم حتى يقعوا
في السبيل تحت قدميه العاريتين القويتين ذوات الوطأت الشديدة .

ماذا يعملون ؟

إن الانتقال من دور إلى دور جد صعب على النفس له خطره ، فكيف بها إذا
أرادت الانفلات من مرض يلازمها كالظل .

إن المريض لا يداوى بإرساله إلى القبر حتى يبعث يوم القيامة ، ولكن يعالج
بالدواء على يد طبيب ماهر

فالحال الأول سبيل العاجز اليائس والأخرى وسيلة الحاذق الذي يحب الإنسانية في
شخص أحدهم ينتسب إليها فلا يدخر كل ما لديه من مهارة وحذق في سبيل شفائه وتهذيبه .

والأستاذ الريحاني هاجم الشعراء الذين ييكون - ولو في مواضع لا يحسن فيها إلا
البكاء - وكان الأخرى به أن يعالج داء البكاء المصطنع ويحارب الدموع المسفوحة
كذبا ورياء .

وكما أن الأستاذ أنكر على هؤلاء الشعراء التقليد لمن سلف من آباءهم ورفع
عقيرته بالصراخ في وجوههم تنديداً بهم فإنني أراه مقلداً إلى حد بعيد أسلوب الحياة

الغربية الحديثة ، لأن طابع الغرب أو من تلقى عليه علومه من الشرقيين إنكار الشرق وتراثه الفكرى واتهامه بالتقليد ، وهو فى الوقت نفسه مقلد .

ومن العجيب أن ينكر امرؤ داء هو مصاب به ، ويهزأ بخلق هو بعض صفاته .

ولعل قراءنا ممن يدينون للحضارة الحديثة بحياتهم الأديبة وتراثهم الفكرى يزعم أن كثيرا من أبناء الغرب ينصفون الشرق ويحترمونه ويقدمونه ، فكيف أزعج أن من طبع الغرب إنكار حضارة الشرق الفكرية ؟

وهو أمر فيه نظر - كما يقولون - فنحن نعرف جيدا أن بعض أبناء الغرب إذا تجرد من رغباته وهواه يقدر الشرق ولكنّه إذا ارتدى ثوبه الإقليمى فضل بلاده وثقافته وحضارته أنانية وتعصبا .

ونعرف جيدا أن من أبناء الشرق نفسه من ينكر عليه حضارته ومجده وكفاحه أكثر من أبناء الغرب الظالمين .

وقد اعترف الأستاذ أن الدمع متنفس العاطفة إذا أظلمت ورائت عليها الويلات والكروب ، وضرب مثلا بالسيدة التى حدثته أنها كادت تختنق من الغيظ والكمد ، وحاولت حبس دموعها المنهمرة فما استطاعت إليه سبيلا بل استسلمت لها ، وحينئذ شعرت بأن « شيئا ثقيلا متجمدا فى صدرها أخذ يذوب فذاب بالبكاء فانفجرت » (١)

ولكنه علق على هذه الحادثة بقوله : « ولكن الرجال يفرجون كربتهم بغير الدموع » يفرجونها بالصبر والتجلد ، وإما بالقوة ، وإما بحسن التدبير »

لماذا ؟ .

يجيب الأستاذ الريحاني قائلا : إن الرجل يحكم العقل والمرأة تنقاد للعاطفة !

ومادام مناط الأمر « العاطفة والعقل » وهما في المرأة والرجل فلماذا لا ننكر الدمع من المرأة ونستقيحها من الرجل ؟ أليس كلاهما ذا عاطفة ؟ وهى في الإثنين أشدرا أما وسلطانا من العقل ، وهى التى تركبنا مطايا الخطر للمجد والعظمة والخلود .

الرجل ذو عاطفة ، فالبكاء غير منكور أو مقبوح منه لأن لديه ما يعقل الدمع فى مكانه ألا وهو الصبر .

ونحن هنا بين أحد أمرين : إما تجريد الرجل من العاطفة — وهذا محال —
وحينئذ يمكن أن يعاب إذا أرسلت عينه قطرة دمع ، وإما أن نعرف بوجودها فيه ،
وهنا لا يمكننا أن نغيب عليه أمرا طبيعيا .

ويبرر الأستاذ الريحاني دمعة سيدنا المسيح إذ يقول : إن المسيح فى تلك الساعة لم يفكر فى العالم ، بل فى نفسه إذ قال : إلهى ، إلهى ، لماذا تركتني . تباركت فى كل حال دمعة المصلوب ، وهى القصيدة الأولى والآخرى منه ، أما شعراؤنا فهم لا يصلبون ولا يهانون . وإنما يكون .

ونحن لا نرى فرقا بين دمعة السيد المسيح وبين الشاعر فى الوقت الحاضر

فذلك مصلوب — كما يزعم اليهود قاتلهم الله — وأما شاعرنا فهو أشد من المصلوب والمقتول والمحجوس ، إذ هو يلاقى ما هو أنكى من الصلب والقتل والحبس ، فالأمة العربية منكوبة بالاستعمار والتأخر والجمود ؛ فإن لا يبكى شعراؤها هذه الصفات البغيضة ويوقظون فيها النبل والمجد والعظمة فمن ذا يؤدى رسالته وقد انقطع الرسل بعد خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

وجملة القول في هذا الأمر ان البكاء ككل شيء في الدنيا حسن ومعيب ، حسن إذا كان الباكي صادقا يفرج عن كربته ويعبر عما في نفسه ، حسن إذا كان في أوانه ، ومعيب إذا كان زيفا وخداعا أو ضعفا واستخذاء ، وليس البكاء حراما في كل حين بل أحل الحلال يحرم في بعض الأحيان ، فالبر يقال حلال أكله ولكن حرام أكله على من سرقه .

وأنا أخطيء الأستاذ الريحاني في عده البكاء حراما على الرجل بدون استثناء .

الأسلوب والفكرة

الأسلوب القوي — أو الأسلوب أيا كان نوعه — دليل على الفكرة ومعنى واضح يظهره لنا في أشكالها المختلفة وشتى صورها . ولتوثق العلاقة بينهما يصعب علينا أن نجد كلا منهما على حدته مفرغا في قالب خاص لأنه لا يبدو للحس وحده دون الآخر، وكل صفة فذة إذا أريد إلصاقها بأحدهما وجدناها هي الأخرى تمتاز بها . فكيف والحالة هذه نشيد بالاطراء للفكرة دون الأسلوب أو للأسلوب دون الفكرة ؟

لنفرض أن لدينا كأسين ملتئما ماءً زلالا بارداً ، وكلتاهما في الحجم متساوية إلا أن إحداهما رديئة قبيحة المنظر من الأدراة العالقة بها . والأخرى تتجلى رائعة فنية ، أيهما تختار ؟ لاشك الجميل النظيف .. لم كل هذا وما في هذه الكأس موجود في تلك ؟ ألعلة الظهور الفني في الكأس الصافية ؟ وما الظهور الفني إلا البروز الظاهري في جمال وإبداع . ولنفرض أن الكأس عبارة عن الأسلوب ، والماء عبارة عن الفكرة أيهما كان له الفضل في مجال السعة وعدم الضرورة الملحة ؟ بالطبع الكأس الصافية .

وتطبيقا على هذا يكون الأسلوب الإبداع الظاهري في التعبير عن الخصائص والمفردات دالا على الفكرة ولباب الموضوع . والفكرة من غير دليل - أي من غير أسلوب - لا قيمة لها ، ولو كانت هي الكل الأكر . فاذا لم يكن - ثم - ما يرمز إليها أو يدل عليها ، فأحر بها أن تنعدم جدواها . وأسد الآراء وأصوب الفكر ماتخطى عالمه إلى عالم آخر يدل عليه ، والكاتب والفنان يابهم التوفيق بسجيته والملاءمة بين أجزاء الفكرة وإبرازها في صورة مثلى من الجمال تساعد على الظهور .

كما أننا لا نتغالي في تقديس الأسلوب إلى حد نجعله يشغلنا عن الفكرة ويلهينا عن الدخول في لبابها وفهم معانيها ، بل نريد أن نكون وسطا بين الإسراف والتقتير في تنميق الألفاظ التي تؤدي بها ما يعتلج في نفوسنا حتى لا نشط ونبعد عن الحقائق .

وهناك مقالات تنشر في الصحف أو الكتب على طراز الشعر الحر (المنثور) لا لباب فيها ولا فكرة...! وكل ما يوجب أسلوب خلاب، وأما عداه فسراب، وأصحاب هذه المقالات يعنون بالأساليب بغية خفاء عيوبهم وقصورهم الفكرى واشغال القارئ بظواهر الجمال الزائف وأعراض الفن الكاذب، ويمكننا أن نحمل شدة اعتنائهم بمحلا حسنا فنزعم أنهم من المخالين والمسرفين في تقديس الأسلوب، وعلى كتمان الحاليتين فعملهم هذا أسلوب كتابى فى الغش والتدليس جدير أن يتدحرج إلى هاوية الإسفاف والسقوط.

أما تقديم الفكرة على الأسلوب من ناحية الوظيفة الطبيعية فنحن موافقون ومن رأينا أن الوظيفة تخلق العضو، فالمرئيات أوجدت الباصرة. لأن الأولى وظيفة، والثانية عضو أو أداة للنظر أما الفكرة فهى المعبر عنها تلك المرئيات. وتقوم فى الوقت نفسه بوظيفتها بأن توصل إلى الناس الفكرة. والباصرة عضو لإدراك المعانى المتغلغلة فيها وانتزاع الصور المختلفة منها، وهذا هو الأسلوب الفنى الذى ليس هو مغالاة فى التقديس والزخرفة بحيث تضيع ميزته وبواسطته يمكننا إدراك المعانى، وبقدر اعتداله فى الجمال والفن نقرب من اللذة الروحية والمتعة العاطفية.

والفكرة لا تكون العلامة الفارقة بين كاتب وكاتب لأن عناصر الحياة وما فيها من سعادة وشقاء، وخير وشر، وجمال وقبح. يشترك فى فهمها كل الناس على السواء ويتعمق فى تحليلها وفهمها بدقة من وهب عقلا راجحا يستطيع الجلد والصبر للبحث فى الحقائق والحياة فهى على هذا ملك مشاع بين أفراد النوع الإنسانى. نعم، نقول هذا فى صراحة وبيان لأن الأصل فى النوع المساواة فى الحدود والقوانين الطبيعية وما ندر من ذلك فهو من الشذوذ بمكان عظيم، فالفنان الموهوب والأديب الممتاز، والعبقرى والغدو المثرى وغيرهم ممن على شاكلة هؤلاء شاذون لأنهم فوق السواد الأعظم.

كثير من الناس يتحدثون فى الفكرة ومشاربها، وكأنهم رسوم يطابق بعضها بعضا من

من ناحية الخلجات النفسية والصور العاطفية . ولكن المقدرة كل المقدرة والإبداع كل الإبداع إظهار الشخصية الفردية في الكتابة والحرية الإستقلالية في التفكير بحيث يدل على نفسية الكاتب وروحه ، ولن يكون هذا غير الأسلوب .

فالأسلوب - على هذا - ملكة فنية تعين الكاتب جد العون على إظهار شخصيته والطابع الخاص الذي يميز بين المنتوجات والآراء . فهو يدل على الفكرة كما تدل على الأشخاص الأسماء ولو كانوا في الخلقة سواء .

وجماع القول في الأسلوب انه كساء الفكرة . وجماله دليل على غنائها وثروتها لأن الغنى - في الغالب - يتجلى متأنقا في مظاهره ، جميلا في ملابسه وظواهره ؟

كيف نحفظ بعروبتنا

للأستاذ القلالي نزعة حبشية إلى الوطنية والعروبة ، وموضوعاته ترتكز عليهما دائماً ، وفي أسلوبه الكتابي في المحاضرات والمقالات التي اطلعت عليها مسحة من الأساليب العربية القديمة حيث الرنين في اللفظ الغنم ، والسجع المنظم ، إذ لا تسكف فيه كسجع المقامات وخطب المنابر ، وإنما هو سجع يهز القارئ بقوة اللفظ ورنينه وليست كتاباته كلها سجعاً ، ولكنها لا تخلو منه .

وأحسب أن ذلك مرجعه إلى افتتانه بالأدب العربي القديم ، وتعلقه بدراسته . ولعله فتح عينيه - كما يقال - أول ما فتح على دراسة البيان والتبيين ومقدمة ابن خلدون ، والأمالى ، وأدب الكاتب (وهذه أركان الأدب القديم كما يزعمون) دراسة دقيقة ، كما درس كتب الجاحظ وابن عبد ربه وابن المقفع وغيرهم من أعلام الأدب العربي القديم ، فالتهم ما فيها في غير رافة ، فالأستاذ القلالي . كما عرفت ، جائع لهم لا يشبع من الغذاء الفكري ، وصاد لا يرتوي من المنهل ، الأدبي .

ولم تقف دراسته على النشر فقط . بل انكب على دواوين الشعراء أيضاً فصاحب المتنبي وعاش معه في العراق حيث نشأ ، وفي الشام حيث علا به المقام إلى سيف الدولة نصير الأدب والشعر . وفي الفيافي حيث الوحشة والقلق والاضطراب تغزوه في غير إشفاق حيث الألم الممض مستقر في قلبه الحى النابض بالحياة ، وفي مصر وفي فراره من « كافر » وفي الميدان الذي قتل فيه حتى دفنه ! وسامر شيخ المعرة في محبسه أو في غيابة سجونته الثلاثة كما ارتأى لنفسه حيث قال :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النيث

لفقدي ناظري ، ولزوم يتي ،

وكون النفس في الجسم الخبيث !!

وأشفق عليه وقدره وأعجب به إشفاقه وتقديره وإعجابه بصديقه « ابن الرومي »
ونادم أبا نواس وبشار وابن زيدون وتأخى مع الشريف الرضي .

ويقال إنه مضى إلى امرئ القيس ثم حضر سوق عكاظ وتحادث مع حسان رضي
الله عنه ، وناقش النابغة الذبياني في حكومته للخنساء بأنها أشعر من حسان لأن النابغة
نقد بيت حسان :

لنا الجففات الغر يلعن في الدجي

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ويقال إن الأستاذ أغضب الخنساء حينما ضم صوته إلى صوت « حسان » وناقش
نصيرها في حكومته ولم يرض بها .

قال حسان : وأسيافنا يقطرن من نجدة دما ، فقال النابغة معترضا ، لو قال
« سيوفهم يسلم » لدل على الفخر الضخم لأن أسيافا جمع قلة ، وسيوفا للكثرة ، والسييل
أعظم من القطر ، ويروى أن الأستاذ الفلالي قال في رده على النابغة لا يمكن أن يسيل
الدم من السيف ، ولكنه يقطر منه ، فقول حسان أشد صلة بالحقيقة وأعظم نفرا
وأما أن الأسياف جمع قلة فالكرام قليل كما قال السموأل .

وجملة القول أن الفلالي شارك كثيرا من الشعراء حياتهم ودرس شعرهم درساً عميقاً
وقضى الليالي الطوال في مسامرتهم ولم يدع مؤلفاً حديثاً عن أصحابه الأدباء
والشعراء الأقدمين إلا التهمه التهاماً .

ودرس التاريخ القديم ورأى أعمال مجاهدي عرب الحجاز وبطولتهم في فتح الأقاليم

وتحطيم عروش الملوك من أجل الدين الحنيف ، ونشر الحضارة الإسلامية في كل صقع وتربة ، وامتداد سلطة « القرآن » في الشرق والغرب ، وغزوه العقائد والأفكار ، فامتلك إعجابه ذلك العمل التاريخي الخالد ، وامتزج بدمه تقديس الدين والعروبة ، فألى على نفسه أن ليعلمن أمته وبلاده وتاريخه بإعلان محاسنها وأعمالها ، والبحث في صفحات التاريخ المشرقة عن أسباب تقدم العرب والنواحي التي برزوا فيها فكانوا مصاييح العالم وقادة النهضة ، فألف كتابه « رجالات الحجاز » رديفه كل فضل إلى العرب ، عرب الحجاز ، صحابة النبي العربي الكريم .

إن في هذا الكتاب النفيس سحراً وجلالاً ، وفيه ثقافة وأدبا ، وفيه عسارة فكر حتى يستلهم التاريخ عبره وكنوزه وذخائره ، وفيه تاريخ رجال عباقرة خدموا الدين ، والخلق ، والأدب ، والفن ، والطب ، ولكن هؤلاء الرجال ليسوا إلا من سكان بلاده الحجاز .

ولعل مادعا السيد الفلالي إلى تأليف هذا الكتاب وطنيته الملتزمة وإخلاصه لدينه وأمه ووطنه ، وغايته من ذلك تصوير الأمة التي كانت فيما مضى مباءة كل فضل وتقدم وعمران ، وشحذ الهمم الراكدة حتى تتحرك فتعمل في سبيل إعادة مجد العرب القديم .

ولقد طغت على السيد الفلالي فكرة الوطنية فكانت شغله الدائم . يفكر فيها ويتحدث ويكتب عنها ، وانطبعت نفسه بطابعها ، ولم يقف عند هذه الحدود بل أخذ على نفسه بأن يدعو الناس إليها دعوة صادقة حارة .

وهذا مادعاه إلى كتابة محاضراته القيمة الممتازة وإلقائها على رجال هذا البلد الكريم بندوة جمعية الاسعاف تكلم فيها عن العرب قديماً وحديثاً .

ووازن بين حاضرهم وماضيهم وتناول كل مرافق الحياة بالكلام والنقد وأبان

لنا بالدليل الذي لا ينقض ضعف العروبة واستحالة ألوانها وتغير عادات العرب الأصلية بعادات دخيلة قضت عليهم وأخرتهم وسرد الأدواء ثم تناولها بالتشخيص والعلاج ، ودعا دعوة حارة إلى الوطنية الصحيحة حفظا للكيان والاستقلال .

* * *

ما الوطنية . . ؟

يجيب الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عن ذلك في كتابه «ساعات بين الكتب» قائلا : «إن هناك شيئا مشتركا في كل وطن نعلمه وهو الشعور بفخر واحد وإهانة واحدة تميز كل وطن عن سواه . كيف يأتي هذا الشعور ويتغلغل في الأفراد ؟ أياقي من اللغة أو وحدة المكان أو اتفاق العقيدة أو ذكريات الألم والفخر ؟ هذا شيء يقع فيه الاختلاف على التحديد والتمييز ولكنه لا ينفي الحقيقة الأولى وهي أن الشعور موجود وإن تعددت أسبابه وعوامله .»

ويقول أيضا :

« الوطنية دائما هي للآدم بمثابة الشخصية للأفراد — بها يناط الواجب في الحياة وعليها تفرض الحقوق — فمن كان يبتغي عند أمة من الأمم خيرا تؤديه في هذه الدنيا أوحقا تساهم به في ثقافتها وعمارتها فلن يكون ذلك إلا بشخصية قوية تفرض عليها الأعباء وتطلب منها الحقوق .»

ونحن نتفق مع الأستاذ في هذا التعريف غير أننا قد قلنا عن الوطنية في مقال لنا «إن الوطنية لا تعدو اشتراك شعب أو أمة أو فئة من الناس في المصالح والمنازع وتبادل الشعور واتفاق النظرة إلى الحياة وما فيها من حسن وقبح ، وحق وباطل ، وفضيلة ورذيلة ، واتحاد في اللغة والتاريخ والدين والبلاد ، وهذا يتفق ورأى الأستاذ الكبير العقاد .

هذا هو المعنى الذى يجب أن يفهمه العرب والمسلمون أجمع على أنه المعنى العلى والأدى للوطنية الصحيحة إذا راموا تحقيق الأمانى وبلوغ الغايات .

وليست دعوة الأستاذ الفلالى إلا استحثاثا لهمة الشعب ليعمل فى سبيل الشخصية القومية ، تنتظمها وحدة شاملة فى المظهر والجوهر ، فيجب أن تتلشى هذه الفوارق وتنتشر المساواة التى أمر بها الدين بين الأفراد فى العادات والمظاهر كما سادت فى الحقوق والواجبات بل وفى العبادات أيضا ، فذلك أدعى للحزم ، وأجمل للمظهر ، وأدل على الوحدة وفى ذلك تنمية الشخصية القومية ، وتقويتها بمبادئ الإسلام والعروبة وفيه إظهار لقوة الوحدة وعظمتها ، وتمجيدها لماضيها المجيد فى إحياء تراثنا التاريخى الخالد ، والتصرف فيه بحكمة واتزان وبصيرة ، وتحطيم لهما كل البدع من العادات الدخيلة التى غللت طبعنا الأصيل فكادت تقضى عليه وتمسح لونه طابعنا العربى ، الجميل ليمسى لونه باهتا كاليا .

ولشد ما يؤلمنى أن نغفل عن تقوية حاضرتنا وتعزيزه بالافكار والأقوال والأفعال إخلاصا لهذا الوطن الكريم المقدس حتى يسترد مجده المنهوب وتكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، بفضائلها وخصائصها وصفاتها الكريمة كما كانت فى عصور الإسلام الأولى .

يجب أن يوجه الإصلاح إلى الحياة الاجتماعية فينبغى منها الخبث أولا ، ثم إلى النواحي الأخرى فصلاحها — ولا شك عندى — صلاح لغيرها من نواحي الحياة ومرافقها . وفى إصلاح الحياة الاجتماعية على أساس الدين والعروبة إصلاح لمرافق الحياة الأخرى .

هذا ما أراده الأستاذ الفلالى فهو مشكور ومحمود على دعوته وعمله .

ومن العدل والانصاف أن نعلن أن الأستاذ الفلالى قد أجاد فى لمس النواحي الاجتماعية الوطنية إجابة تامة يحسد عليها فوجه قلبه إلى مشكلة المهاجرين باحثا ناقدًا

حاكما في أتران وحكمة ، وعالجها معالجة قوية معتدلة لاتغضبهم ولاتحفظ المواطنين ، ويتجلى في لمسه تلك النواحي : سداد الرأي ، وزكاته العقل ، واعتدال العاطفة ، وحسن الأسلوب .

يقول الأستاذ الفلالي في محاضراته : « إنني لا أريد منع الهجرة إليها (أى البلاد المقدسة) أو إجلاء المهاجرين عنها فإن بلادنا — ومكة على الخصوص — هى مباءة المسلمين وبلد الله الأمين ، مكن لعباده فيها حرما آمنا وقال لنا فى حقه : سواء العاكف فيه والباد ، ومكة والمدينة لاتضيقان ذرعا بمن يؤمهما من المسلمين » ثم يستطرد الأستاذ إلى القول :

« إنما الذى يخيفنا من هذه الكثرة أو الموجات الجارفة من المهاجرين أن تفقدنا ميزتنا وتطفى على طابعنا العربى وفى النهاية تفقدنا أعز ما تحتفظ به وأكرم ما نرثه عن آباءنا وندخره لأبنائنا وأخلاقنا من بعدنا ؛ تلك هى القومية العربية التى هى قوال هذا القطر فى حياتنا الأدبية والمادية » ويختم هذه الفقرة بقوله :

« فالدعوة إلى الاحتفاظ بالقومية العربية والذود عن كيانها إنما هو ترسم لتلك التعاليم النبوية ، ونأس بتلك الأعمال العمرية »

فالمحاضر الكريم بعد أن يترك القول عن الهجرة ، والمهاجرين ويصف ما يتجم عن هذا السيل من الأضرار إذا لم تتغير أخلاق المهاجرين وتقاليدهم بلادهم المهجورة ويرحب بهم ولكنه يطلب إليهم فى إلحاح ورجاء أن « يتعربوا » أى يكونوا عربا فى الأخلاق والصفات ، عربا فى التعابير واللهجات ، عربا فى حياتهم الخاصة والعامة ، أما الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم وأحاديثهم كعنصر من عناصر الحياة وتراث تقليدى مذكور فذلك مايؤلم البلاد وأهلها ، إذ هى مهبط الوحى ومصدر الإسلام

ومهد العروبة وعرين « الضاد » فلا يصح أن يكون مهد العروبة « بابل » يجمع الألسنة المختلفة والأشكال المتباينة والمظاهر المتغيرة .

ولا يصح أن يكون عرين الضاد مأرزاً للعجمة واللكنة .

مادامت البلاد قد استقبلت الوافدين الذين يغادرون أوطانهم يريدون الإقامة فيها واعتبرتهم ضيوفاً ونزلاء ومجاورين وإخوة فيجب عليهم ألا يستغلوا هذا الترحيب فيجمدوا ويحتفظوا بموروثاتهم وبما اكتسبوا من العادات في بلدانهم بل يجب أن يقلعوا عنها ويدعوها في أمواج البحر أو الصحراء وينسوها نسياً ليكونوا جميعاً إخوة في الله ثم في الوطن تجمعهم وحدة الدين ووحدة المظاهر والفضائل والصفات والمكرمات .
وحسبنا أن نستدل بمظهر من المظاهر التي تضعف الروح الوطنية ألا وهو « الملايس » !!

إن المهاجرين — من جميع الأجناس — غادروا أوطانهم وغنوا بهذه البلاد المقدسة ، وانتقلت معهم عاداتهم وتقاليدهم وملابسهم فلم يغيروها بل لم يفكروا في تغييرها — ويا للأسف ! — كأنهم لا يرغبون في الاندماج في سكان البلاد .

لماذا يحتفظ المهاجرون بملابسهم التي كانوا يرتدونها في مسقط رؤوسهم ؟

ألم ينشأ من ذلك اختلاف الأزياء وتباين المظاهر .

ألم ينجم عنه ضعف الروح الوطنية في الأمة ؟

لأجد سبباً لهذا الجمود وهذه المحافظة ، وإننا نرجو المهاجرين المجاورين الأخذ بكل ما هو من شأنه الاندماج في المواطنين والظهور بمظهرهم حتى يكونوا جميعاً كآسنان المشط ، وحتى تنتشر المحبة والمساواة بينهم .

سمعت محاضرة الأستاذ الفلالي وتألمت من مشكلة الهجرة والمهاجرين ، وضحكت من تصويره لبعض المهازل الناجمة عن اختلاف مظاهرهم ، وخطر لي — ذات مرة —

أن ألقى نظرة من نافذة سامقة أستطيع منها أن أشاهد مهزلة إختلاف الأزياء !
أهو من القبح والبشاعة والمهزلة بمكان كما يصوره الفلاي ؟ أم هو التصوير البياني
— فقط — ينفث السحر ويفتن القلب بجماله وقوته ؟

ماذا رأيت ؟
رأيت منظراً عجيباً فيه من فكاهة الواقع ما اضطرني إلى التأمل والتفكير ثم إلى
الحقيقة والابتسام.

ألقيت على الجماهير نظرة يلتقي فيها خيال الشاعر وسخرية الناقد فشاهدت على
هذه المشاجب الآدمية المتحركة بالملايس المختلفة الألوان والأشكال و « التفاصيل »
كأنها « فاتورات » بالية تعرض في سوق عامة.

فأعلاج هذا؟

نرى أن من الأوفق أن يكون مظهرنا — كعرب — ممتازا بالعباءة والعقال
لانهذه الأزياء المختلفة المضحكة تأسياً بمظهر مليكننا — وهو العربي الصميم —
ليكون مظهرنا — ملكاً وقادة وشعباً — مظهرًا تميزه الوحدة والانسجام والمساواة
ألم يأمر الإسلام بالتوحيد توحيد الله عز وجل.

ألم يأمر بالصلاة جماعة في أوقات ومواعيد محددة مقرررة ؟
ألم يأمر معتنقيه — جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها بصيام شهر واحد من الزمن.
ألم يأمر بالحج في وقت محدد من السنة.

ألا يدل كل هؤلاء على أن فكرة المشرع الأعظم ترمي إلى إظهار قوة الإسلام
وعظمته وكماله بهذه الوحدة التي تنظم كل أفراد المسلمين

ليس الأمر مقصوراً على الناحية الدينية وحسب ، بل يمتد إلى النواحي الاجتماعية
ففي أركان الإسلام كالصوم والحج والزكاة والصلاة منافع وفيها عناية كبرى بحياة
الإنسان الاجتماعية ، وأن الفقه الإسلامي ليس إلا إصلاحاً ودستوراً للحياة
الاجتماعية والفردية .

فلماذا نقصر عن معالجة الأزياء وقد دوى صوت الأستاذ الفلاني حول الأزياء
أيضاً في الأفق وارتد صدها إلى الأسماع كما دوى من قبل صوت الأستاذ ابن عبدالمقصود
وغيره من الأدباء ثم تلاشى كما تتلاشى الأصوات المدوية وغير المدوية .

لم يحن المصلحون — في بلادنا — بالفشل في دعواتهم ؟

لعل الجهل وعدم ثقة المثقفين بأنفسهم كانا من أهم الأسباب التي تقف في وجه
تقدمنا ونهوضنا .

أما بعد ، فثمة مسألة بناء البيوت وأشكالها ومظاهرها الكاريكاتورية — وتضاف
إلى اختلاف الأزياء في « القائمة الحسائية » — فلمهاجرون والتابعون لهم يبنون بيوتهم
على الطرز والشكول التي ألفوها وعرفوها في بلادهم ، والتي انطبعت صورها في مخيلاتهم
فإذا بنى كل جنس من المهاجرين بيتاً أو كوخاً بناء على الطراز المفهوم لديه والمألوف
من نفسه ، وهكذا دواليك ، ومن هنا كانت مناظر البيوت والأكواخ والعمارات
لا انسجام فيها ولا ذوق بها .

وإذا تخطينا البيوت والأكواخ وسرنا في الطرق أو حضرنا المجالس أو الحفلات
فتصطدم باللغات الدخيلة واللهجات المتكسرة المنقولة إلى بلادنا والتي استطاعت على
مر السنين وبكثرة المتكلمين بها وكثرة ناقلها أن تغطي على اللغة العربية الأصلية فتصبح
اللغة العامية التي تضطرب بين العجمة والفصاحة لغة الجميع ، وصارت للبلاد لهجات
متباينة ! . . .

نريد أن يتناول العلاج كل مرافق الحياة ونبدأ فيه من يومنا هذا ، ويجب أن

يشارك الجميع في هذا الإصلاح وفي هذا التوجيه ، فلعل الجيل الآتي يجني ثمرة كفاحنا الوطني ، وأنا آمل الخير فيه إذا أريناه السبيل اللاحب ، ولعل الله سبحانه وتعالى يحقق آمالنا ويسدد خطانا جميعاً .

هذه بعض الأدواء التي تكلم عنها الأستاذ الفلالي في محاضرته فما العلاج ؟

العلاج الوحيد في التعريب : تعريب العادات ، تعريب الأزياء والمظاهر ، تعريب كل شيء يتصل بنا ونتصل به ، وإحياء الأسماء العربية القديمة كاسامة ، وزهير ، ومعاوية وطارق ، وزباد ، لنذكر أعمال من يتسمون بهذه الأسماء التي صنعت التاريخ لنكون عرباً لنا شخصيتنا القوية

ويرى الأستاذ الفلالي أن حكومتنا قد خطت في سبيل الإصلاح الاجتماعي وإنماء الشخصية القومية خطوات مباركة فوفقت لضبط الأمور وإحكامها ونشر الأمن والطمأنينة في المملكة .

وفق الأستاذ الفلالي في محاضرته وفي الفكر التي تناولها بأسلوبه العربي الرصين ونقدر له غيرته الوطنية على الإسلام والعروبة فناصر خاتمه المدويات ومادعواته الصالحات إلا نضجاً من إخلاصه وحسن نيته وطيب عنصره وكرم صفاته « وكل إناء بالذي فيه ينضح »

ونحن بدورنا نهنته بهذا التوفيق ونشكره هذه الفوائد التي أتاحها لنا محاضرته فما في هذه المقالات ليس إلا صدى لمحاضرته الوطنية ؟

رجال الحجاز (*)

هذا كتاب من الكتب القيمة للأستاذ الفلالي قصد منه أن يجمع شتيت الشخصيات التي تنتهي بأصولها إلى القبائل الحجازية، في سفر يعرض على الناس « نماذج » من خيرة الرجال المبرزين في كل ناحية من نواحي الحياة ، وهو مظهر من مظاهر الوعي القومي .

ومن يعرف الأستاذ الفلالي يجد أن كتابه — هذا — صورة من نفسه وخليقة من خلائقه الفاضلة ، فهو من المتحمسين للعروبة والاسلام ، بل هو أشد الأدباء في بلادنا تحمسا وإخلاصا ويكاد ينتفض كلما ذكر مجد العرب ، ومرد هذا إلى أصله وبيئته وثقافته .

والكتاب الذي نحن بصدده أثر من آثار حماسه أملأه عليه حب بلاده .

والدافع له على تأليفه — كما قال الأستاذ النليل السباعي : « روح حساسة تتحرك غيظا على هذا الماضي المبعثر الخ » .

أما الأسلوب فقوى ينبض بالحياة وينم عن شخصية المؤلف القوية .

غير أن التراجم موجزة مختصرة ، وبالرغم من توفيقه في رسم الحدود وإقامة معالم الشخصيات وبيان « علاماتها الفارقة » فإن القارئ يريد أن يلتذ بمعايشة هذه الشخصيات التي أحبا وألفها وقرأ عنها وصاحبها، إلا أن الاختصار حرمه هذه اللذة الفنية

الماتعة ، وعتبي هذا عتب على نقص من قادر على التمام .

والشخصيات المترجمة في هذا السفر تشبه « الصور ، الشمسية الصغيرة . ولكنها — على صغرها — بارزة الملامح واضحة السمات ، ويستطيع القارئ إدراكها في غير جهد .

والكتاب أثر نفيس يستحق التقدير والإعجاب والدرس لأنه معرض لأعظم الرجال الذين أدانوا العالم بما لم يدنه به أحد في التاريخ كله .

ولم يمن الأستاذ في كتابه بالتحدث عن الرجال الذين لهم أبلغ الأثر في ناحية واحدة بل كتب عن أبطال الحجاز في ميادين الحرب وعن رجال السياسة والديبلوماسية والقواد والظرفاء والشعراء وأرباب الفنون وأئمة المذاهب والزهاد والثقافة مبتدئا بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الراشدين والمبشرين بالجنة .

وأظن أن الكاتب لم يقصد إلى الحصر بل إلى المثال وهذا ما يبرر إغفاله كثيرا من الأقطاب ، إلا أن عزمته القوية على إصدار أجزاء أخرى تلي هذا الجزء تطمئننا على أنها ستكون ثبنا جافلا بالرجالات الأفذاذ .

والكتاب في جملة من خير الآثار الفكرية في بلادنا ونحن نستعجل الأستاذ في إصدار الأجزاء الأخرى .

وإذا أنفذ الأستاذ عزمه فسيكون من أجل من خدموا البلاد ثقافيا وأديبا واجتماعيا ، وحسبه تذكير الخلف بالسلف الصالح حتى يجد في هذه المتاهات طريقا يشقه إلى قمة الحياة .

وحب العروبة يستولى على مشاعر المؤلف وعواطفه كلها فهو يهدي الكتاب إلى شخصية عربية عظيمة تعد في الرعيل الأول من أبناء العرب ألا وهو أميرنا المحب العظيم (فيصل) الذي يخلص له المؤلف ويخلص له كل أديب وكل سعودي ويلقبه

المؤلف — بحق — نصير العلم وحامى الآداب .

ويكفى أن يكون الكتاب مصدرا بكلمة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ليكون له أثره فى عالم الفكر والتاريخ ، وليأخذ طريقه إلى الذبوع .

غير أن الكتاب حفل بأخطاء أردتها إلى القلم أو المطبعة مثل : (عماترا) فى ص ١٤٣ وصوابها (عمائر) بدون تنوين و (شفوفا) فى ١٤٢ وصوابها (شفيقا) و (كان فى حياتهما كعبة يحج إليهما الناس) فى ص ١٤٧ وصوابها : (يحج إليها الناس) لأن مرد الضمير إلى الكعبة لا إلى الضمير الدال على التثنية فى « كانا » و « السمحاء » ص ١٤٩ وصوابها (السمحة) و (شعبانا وعريانا وغضباننا) فى ص ١٣٥ وصوابها بدون تنوين أى شعبان وعريان وغضبان و (النوايا) ص ٣٧ والصحيح (النيات) و (طبيب حجازى — غريبا عنهم —) ص ١٣٣ والصواب (غريب عنهم) و (من الشجرة وبعد الصيت التى نالهما) ص ١٢٩ والصواب (اللذين نالهما) و (الهاشميون وأشياهم منبثون هنا وهناك متبرمين بالحكم الأموى ساخطين عليه) ص ١٢٣ وصوابها (متبرمون بالحكم الأموى ساخطون عليه) و (هاته) ص ٢٢ وصوابها (هذه) وليس فى اللغة العربية « هاته » وإن كان لها معنى كقوله تعالى (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) أما هاته فلا وجود لها بالافراد . وكل أدبائنا يستعملها فهى خطأ مشهور .

وهناك خطأ فى التعبير أنه الأستاذ الفلانى إليه وهو قوله فى ص ١٥٣ (ألقى به عصا التسيار بمصر) وما أظن أن العصا تلقى بصاحبها بل هو الذى يلقيها ، ويستقيم التركيب بهذا الوضع (ألقى عصا التسيار بمصر) ومعذرة إلى الأستاذ الذى أعترف له بأنه أعلم منى بهذه التعابير العربية القديمة التى جرت مجرى الأمثال .

وبعد هذا فالكتاب دليل يقظة عقلية ومظهر من مظاهر الوعى القومى فى بلادنا .

رحلة إلى بيع (*)

سبق أن حيث كل أديب عامل وكتبت عما أصدر من مؤلفات ووعدت القراء في أحد أعداد المنهل بالكتابة عن المؤلفات التي ظهرت حديثاً ، وقد أنجزت شيئاً من وعدى فكتبت عن مؤلفي الأستاذين : الأنصارى والفلالى وأكتب اليوم عن «رحلة الربيع» للأستاذ فؤاد شاكر الذى لم يأل جهداً في خدمه الثقافة في البلاد بقدر مايسعه جهده ونشاطه وقد وفق في ذلك توفيقاً طيباً .

إن الأستاذ فؤاداً صحفى قدير ، وقد اشتغل في مصر قبل رجوعه إلى وطنه — الحجاز — بالصحف المصرية الكبيرة وزامل زعماء الفكر والأدب والساسة بمصر أمثال العقاد وطه والمازنى وعنان وهيكى وغيرهم وقد أخبرنى الأستاذ محمد السوادى الصحفى المعروف وصاحب مجلة الخبر ثم السوادى والناقد البرلمانى لصحيفة البلاغ المشهورة أنه كان زميلاً لصديقنا الأستاذ شاكر فى كوكب الشرق وغيرها من الجرائد . واشتغال الأستاذ بالصحافة جعل لأسلوبه طابعاً يميزه عن غيره ألا وهو الخفة والرشاقة والحسن والسهولة ، فكتاباتة كلها تمتاز بهذه الصفات ، والمرانة الطويلة جعلته — فوق تلك الصفات — قوياً رصيناً ، ومؤلقاته القديمة ومؤلفه الجديد « رحلة الربيع » خير دليل على ذلك .

وهذا الكتاب الذى قدمه الأستاذ إلى قراء العربية من الكتب النافعة التى نحن فى حاجة إليها لأنها حلقة فى سلسلة كتب الرحلات التى لم يعن بها من الكتاب المعاصرين إلا القليل .

وهو ليس كتابا يسرد الرحلة سردا جافا بل كتب بأسلوب مشوق يستروح معه نسيم الراحة والسكينة ، وعنى فيه بالدراسة والوصف وأعطانا « معلومات » قيمة في التاريخ والاجتماع والأدب والجغرافيا ، وعرف الناس بالخرج وبنجد وبكثير من البلدان والقرى والمحاط التي مر بها أو نزلها مع رفاقه ووصف لنا المشاهد الجميلة وصفا شعريا جميلا خالبا واستعان بريشة المصور الفنان عندما وصف لنا الروضات التي وقف عندها طويلا متأملا يلتهم ما فيها من جمال ومعاني وفن ويتملاها متفردا حينما ومع رفاقه حينما .

وسجل في رحلته هذه كثيرا من خواطره وأحلامه ، وأفرد قسما من كتابه لحياة صقر الجزيرة الغلاب حلل فيه شخصيته وأبان لنا نواحي عظمته وكتب فصلا عن الأمراء السعوديين وأجاده.

وأسلوبه كما قلنا أسلوب سهل خفيف وهذا نموذج منه يدل عليه ولم نتخير له قال : « أصبحت مكة فجر يوم الاثنين ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠ على حركة غير عادية وإذا كان هذا الاطلاق غير جائز فلا أقل من أن بضعة أحياء من أحياء مكة ومئات من أهلها قد أصبحوا في فجر ذلك اليوم أصباحا غير عادى ولم لا يكون ذلك كذلك وهذا الوفد الملكي يز مع السفر في أصيل ذلك اليوم إلى نجد .

وقال : « هذه العشيرة ! وهذا نورها المضيء قد بدا فأربنى على نور القمر الخافت الذى لم يزل وليدا فى مهده ، فنحن فى الليلة السادسة من الشهر والهلل لا زال يتدرج من مهد الطفولة وقد اختفى وهو فى طريق الاختفاء وراء الجبال المحيطة بنا ، وبعض الرفاق هوم فى السيارة من سهر الليل وتعب النهار المضى ولكن ما كاد ضوء عشيرة يلوح من بعد أن كنا نترقب الوصول إليها وتطلع إلى نورها حتى انبعثت فى الرفاق روح المرح وهبت فى أنفسهم عاصفة النشاط .

وما لنا وللقول فى هذا الكتاب وقد توجه الأستاذ عباس محمود العقاد كاتب

العربية الأول بكلمه من كتاباته البليغة جاء فيها :

« والاستاذ فؤاد شاعر ناثر فقد استعان في وصف الرحلة بمنظومه
ومثوره ، واعتمد فيها على مسموعه ومنظوره ، فأحسن الوصف إحسانا لا تغض منه
هفوة هنا وهفوة هناك ، وأجاد تصوير الركب والزملاء ، كما أجاد تصوير الضيافة
الملكية في القصور وفي الصحراء وقد رأينا مصداق وصفه فيما نظرناه وسمعناه من
حفاوة الملك الجليل وصراحتة ودوام سهره على شئون رعيته وشئون ضيوفه ، ونعتقد
أن هذه الرحلة الملكية الرياضية ستلقى من عناية الشعراء كل مالقيته أنباء مكة والرياض
في تاريخهما القديم وتاريخهما الحديث فهي حلقة موصولة من حياة « أمة مؤرخة »
نرجو أن تظل أبدا في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظام الآثار ، تشترك فيه من
حفاوه السابقين واللاحقين ، إلى ما شاء الله .

وموجز القول أن المؤلف يمد القارئ بممتعة يلتذها بمشاركته في رحلته المانعة
أما الكتاب فهو من الكتب التي تحتاج إليها المكتبة السعودية التي أمدتها الأستاذ
من قبل وما زال يمدّها على قدر جهده ونشاطه فهو جدير بأن يقرأ ويقتنى لأنه مفيد ،
وأدنى فوائده أنه ينقل قارئه إلى موكب حافل من مواكب الفطنة والجمال والشجاعة والكرم
والنبيل ، ويرينا شخصيات حبيبة إلينا نود أن نلتذ بمعاشرتها والإصغاء إليها وتبج
حركاتها وأعمالها ، ويزودنا بالمعارف التي لا غنى عنها للثقاف .

الاستاذ السرحان (*)

رد على نقد

ما كنت مريدا طبع ديوانى « الهوى والشباب » هذا العام ، لأن كثيرا من قصائدى لم تضم إليه ، إلا أن إلحاح أصدقائى من شعراء مصر وأدبائها هو الذى جعلنى أدفع بالديوان إلى المطبعة .

وأسفت — الآن — على أننى لم أحتفل بطبعه ولم أقف عليه فكان فيه من الأخطاء ما أسخطنى . نعم ، لم أحتفل بطبعه بل تركته ومضيت إلى الإسكندرية أتمتع بالبحر ، وأبيع لنفسى أن تلتذ بالراحة وتترك القلم الذى حملها من الأعجاء والآلام ما حمل .

وما كدت أعود إلى القاهرة وأرجع إلى المطبعة حتى ألفتها قد انتهت . من طبعه ، وأسفت لوجود أخطاء لا يفهم بعض القراء أنها من الطابع لا الناظم ، وقد يفهم بعضهم ولكنه يحاول أن يظهر بمظهر الناقد البصير الفطن إلى مواضع الخطأ فيبدي ويعيد .

وقد استعددت لإلحاق وريقة بالديوان تهدى القارىء إلى الصواب ، ولكن خطئى كان فى تعجلى إظهاره إذ أهديته الجريدة قبل التصحيح ، ولكنى أحمد الله — أيضا — على ذلك إذ لو صححت لما كان لصديقى السرحان أن يكتب مقالا نفيسا عنه

في العدد الماضي من البلاد السعودية ، ولحرمتم القراء من متعة هم في حاجة إليها.

تناول صديقي الفاضل الأستاذ حسين سرحان ديوان شعري بالنقد وأحسن الظن به فله الشكر على ذلك ، أما الأخطاء التي سردها فمردها إلى المطبعة ، ولا أقول هذا اعتذاراً ، فما أنا مدع العصمة والكمال لنفسى في شيء ، وأنا أول من يرحب بالنقد ويهتف باسم الناقد وينتصح بالارشاد سواء أكان الناقد منصفاً أو غير منصف ، فكيف بالناقد إذا كان صديقاً وإذا كان منصفاً ؟

وما أظن أن الصديق السرحان من القوم الذين يحبون أن يتظاهروا بسعة الاطلاع وغزارة العلم فيغالبون وهم الغالطون ، ولكنه أراد هذه المرة أن يلبس ثوباً غير ثوبه للتجربة — فقط — ويستغل غلطات الطبع فيتهمني بالاخلال في وزن أبيات معدودات ، ويزعم أن جمعي « نهاراً » على « أنهر » خطأ والصحيح « نُهْر ». في حين أن مرد معظم ما سرد من أخطاء هو التطبيع .

وقد أريت كثيراً من الأصدقاء نماذج من هذه الأخطاء المطبعية قبل أن ينشر الأستاذ السرحان نقده ، بل اطلع الأستاذ نفسه على هذه القصائد والمقطوعات التي وجد بها ما سماه إخلالاً بالوزن فألفاها مستقيمة .

أما جمعي نهاراً على أنهر فهو الأصح الأفضل ، ولو رجع الأستاذ إلى كتب اللغة وأقربها المنجد الذي يحمله في جيبه — وأظنه في صدره — لوجدني مصيباً ووجد نفسه على الخطأ ، لأن من يغلط الأصح بصحيح فهو خاطئ ومغالط والجمع الأول لنهار هو أنهر ثم نُهْر ، وما ثم من بأس أن يشترك النهار والنهر في الجمع وقد اشتركا في معظم الأحرف واتحدا في بعض الصفات :

أما زعمه أن هذين الشطرين :

وينتهي إلى الجنون محتدها

أين الليالي اللواتي نعمت بها

مختلا الوزن فصحيح ، والأصل ينطق بأنهما فيه هكذا : (نكالا)
ويتهى للجنون محتدها
أين الليالي التي نعمت بها
وكذلك هذه الأشرطة :

« الذي يخشى بأس قوم آمنوا »
« إذا أدك الدهر بهذا النكال »

« جاء إليها ذووا القربى ضحى »

« سقط الطيار من سربه »

« وفضل مبسمها الزائن »

فهى مكسورة وضواها :

« الذل يخشى بأس قوم آمنوا »

« إذا الدهر آد هذا النكال »

« جاء ذووا القربى إليها ضحى »

« قد سقط الطيار من سربه »

« وقتنه مبسمها الزائن »

والخطأ من المطبعة لا منى وقد اطلع السرحان على أصول هذه القصائد والمقطوعات
قبل سنتين وقبل سنة فلم يجد هذا الاخلال .

أما زعم الناقد (أن الفتي المتفهم لا يقنع بما يرى) فذلك صحيح ، ولكن التي تخاطبه ترغب إليه أن يعمل ، ولكن تهديدها إياه اعتقل إرادته فلم يستطع أن يتهم وآلمها — بالطبع — ذلك منه فأرادت أن تشعره بالتفهم ليجرؤ ولئلا ياتمر بأمرها ولئلا يخشى وعيدها وليقدم على فعل ما يريد ، وما أتت له بهذا اللفظ — دون غيره — إلا لتذكره بما يجب أن يفعله في هذا الوكر الجميل .

والأستاذ السرحان من خير من يعلمون طبيعة المرأة ويعلم أنها تطلب الشيء وتحرص عليه وتتمناه ولكنها لا تفعله بل تغرى الرجل حتى يطلبها ، وفي هذا تعويض لها عن ضعفها المشهود ، ولا وجه هنا لمؤاخذه الناقد البصير .

وانتقد هذا البيت :

فاستبسوا فالنصر في أيديكم واستأسدوا ، فلا تتم من يحكم

وقال : « ولأنتم من يحكم هذه خليفة بالألا يحكم صاحبها » .

وأظن الصديق الناقد لم يفهم المعنى فأخطأ من حيث أراد التصويب ، فغنى هذه الكلمة : « فلا تتم الحاكمون » وليس في هذا من بأس ، وكل قائد يضرم الحماسة في أتباعه بمثل هذا الكلام ، وقد نجح طارق الذي قيل على لسانه هذا البيت ونجح جنوده البسلاء .

وقد جاء في القرآن الكريم ما يشبه هذا وهو قوله تعالى : (وأنتم الأعلون)

أما الإيطاء فما أظن أنني وقعت فيه ولا يعد إيطاء إذا كررت لفظة القافية بعد عشرة أبيات أو تسعة أو ثمانية ، وإنما العيب أن تتكرر بعد بيتين أو ثلاثة أو أربعة وهذا لم يقع في ديواني .

أما ثلاثة الأخطاء المطبعية التي فطن إليها الناقد وقال : إنها من المطبعة ثم تطوع

لتصحيحها فإنني أشكره وأقدم له إعجابي بفطنته.

أما زعم الأستاذ الناقد أن قصيدتي « بل ربيع العمر في هذا المكان » مشعشة بروح الشاعر الأستاذ على محمود طه فغير صحيح ، إلا أن صدور ديواني متأخراً جعله يظن ذلك مع أن هذه القصيدة نظمت منذ عشر سنين وأكثر ، أي قبل صدور ليالي الملاح التائه وما بعده من دواوين لهذا الشاعر المصري الكبير .

ولدى الأستاذ السرحان نفسه ولدى غيره قصائد لو نشرت لكانت لها مشابهة . ولقال ناقد من النقاد إنها منتحلة ، وهذا راجع إلى تأخرنا وتقديم شعراء الأقطار الأخرى في طبع دواوينهم .

أما قصيدة « أخي » فهي تفريع من رباعيات شاعر سوري ، وفيها مشها ما يصرح بذلك وفي الوقت نفسه فهي تفريع من قصيدة ميخائيل نعيمة — لانسيد عريضة كما تخيل الأستاذ الناقد — التي مطلعها :

أخي إن ضج بعد الحر ب غربي بأعماله

وإني لأشكر الأستاذ الصديق نقده لأنه كان منصفاً فيه كما أظن ، وأعده وأعد القراء معه بأن الطبعة الثانية ستكون خيراً من هذه الطبعة ، ولن يتعب السرحان في تعقب أخطاء المطبعة والتشهير بها مرة أخرى .

انا والسرحان (*)

ما يزال النقد في بلادنا مهاترة وتشهيراً ، والأستاذ السرحان — كما ظهر لي اليوم — قد بعد عن النقد وقوانينه وما أبعد روحه الخفيفة عن النقد الذي يفيد ويضع الأشياء في مواضعها ، أما أنا فليس كما ذكر السرحان ، بل أفهم النقد وأفهم التشهير ، ولن تطغى مدلولات الألفاظ بعضها على بعض في موازيني كما تطغى عنده ، فإذا سميت النقد نقداً والتشهير تشهيراً كنت جاهلاً بالنقد وأصوله ، ولكن عند من ؟ عند السرحان وحده !!

وما ذا أسمى استغلال الغلطات المطبعية استغلالاً معيباً بعد تجاهلها إن لم يكن التشهير ؟ أأسميه نقداً فأظلم الفن والأدب وأرضى الصديق ؟ لا ، لينغضب السرحان اليوم ولا يرض الفن والأدب ، فسيأتى اليوم الذى يثوب السرحان فيه إلى رشده ويعلم أننا أغضبناه فأحسننا إليه .

وأراد الأستاذ أن يتظرف وأن يتجنى ولكنه أكثر التجنى حينما نهد إلى عامل المطبعة مستهزئاً مستأسداً وهو يريدنى أنا — لا عامل المطبعة — ليكيدنى ويغيطنى — على طريقة النساء — وما أنا ممن يبالون هذا اللون من الإغظة وإن كان الأستاذ يهتم به كثيراً .

ومن المضحك أن ينكر الأخطاء المطبعية المحدودة في ديوان في حين أنه هو نفسه ابتلى بشيء من أخطاء المطبعة وكادت روحه تزهق لإغاظتها إياه إذ نشرت له الكاتب

المصري قصيدة لاتعدو خمسة عشر بيتا ، وبالرغم من ذلك فقد أقامت الأخطاء احتفالا عظيما في قصيدته ولا أدري أهى من عند السرحان نفسه أو من عند غيره ؟ ولكن السرحان يقسم أنها من المطبعة وهو — كما نطن — صادق ، واليهين تزكى غير الصادق .

وهذه القصيدة كما أذكر عنوانها المشيب ونشرت في عدد فبراير . ومن الأخطاء التي يزعم السرحان أنها مطبعية هي هينا ، كموودة ، لجبني ، أعلاثا ، الصائف ، حزب ، نفر ، وهذا عدا أخطاء فنية وأخطاء مطبعية أخرى في الشكل .

فإذا كانت دار الكاتب المصري التي يرأس القسم الثقافي منها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين والتي تحتشد فيها عدد من علماء الأزهر للتصحيح تخطيء مطبعتهافي أقل من سبعة أبيات سبعة أخطاء فلا بأس أن يكون في ديواني هذه الأخطاء النافهة ، وهو يساوي مائة ضعف هذه القصيدة .

ولو كنت ممن يستغلون الأخطاء المطبعية للتشفي والتشهير لأخذت عليه طريقه ولأريته كيف يكون التشهير لا النقد ، ولكني رجل لي طريق لا أعدوه إلى غيره .

الخطأ هنا من الأستاذ السرحان مطبعي ، أما مني فغير مطبعي فاضحكوا أيها القراء قليلا .

أما إصراره على تخطئتي في أمر الفتى المتقحم ، وفي « فلأنتم من يحكم » فذلك يدل على أن السرحان ما يزال يحبو في مدارج النقد ، ولندعه في ملاحيه ينفخ « البالون » الذي ارتضاه لنفسه .

وماذا أقول في رجل ينقد البيت وحده لأنه لم يفهم معناه فإذا فسرته له في ستة عشر سطرا عد ذلك عيبا كأن التفسير يجب أن يكون بالسك ، فإذا كان البيت عشر كلمات وجب شرحه في كلمات عشر .

وما كنت أرتضى لصديقي السرحان هذا الفهم الغريب ، فالبيت الذى ورد فيه
(الفقى المتقحم) لم يقصر لفظه عن معناه ولا معناه عن لفظه ، بل رأيت الأديب لم
يفهم بعض طبائع المرأة فتوليت الشرح ليفهم المعنى الذى أريده وفى القصيدة نفسها
الشرح الذى ذكرت .

ولكن الصديق السرحان أراد أن يكون ناجحا فكان ناجحا نجاح ذلك الروسى
الذى أنكر أدب تولستوى وشيكوف وجوجل وغيرهم من الأعلام ليعرف ويشتهر .

ثم يذهب السرحان — بعد اعترافه بجهل الموازين والبحور — إلى أن هذه الأبيات
مكسورة وهى :

ثم دعنى أهم فى جوه الحما

لم ، لا أشكو شقوتى أو غبنى

لا أطيق الحياة إلا مع الحما

بوب ، مرموقا بين سفرى ودى

مرتديا من نسج الربيع حلى

وما أدرى كيف يبيح رجل يعترف بالجهل نقد ما يجهل إلا إذا كان غير محتفل بالقراء
ساخرا بالعلم والموازين والقواعد ، وهذه الأبيات مستقيمة ولكن شهوة التشهير
استبدت به فجعلته يلتقى القول فى غير هدى . ولولا ذلك لما غلطنى وهو الغالط ، كما
غلطنى من قبل فى جمع نهار على أنهر فى حين ثبوت الحق معى .

والبيتان الأولان من الخفيف وهذا الميزان :

ثم دعنى	أهم فى	جوه الحما
فاعلاتن	متفعلن	فاعلاتن

لم لا أشك كوشقوتى أو غبنى

فاعلاتن مستفععلن مفعولن

لا أطيقل حياة إل لامع لمح

فاعلاتن متفععلن فاعلاتن

بوب مرمو قن بين سف رى وودنى

فاعلاتن مستفععلن فاعلاتن

أما « مرتدياً » من نسج الربيع حلى ، فهو من المنسرح وهذا ميزانه :

مرتدين من نسج يبع حلا

مفتعلن مفعولات مفتعلن

وما أظن بعد هذا يبقى للسر حان مجال للقول فهاهى ذى الآيات مستقيمة الوزن لا خلل فيها ، ولكنه التسرع ، التشهير ، الجهل بالموازن .

.. أما أن فى الديوان شعرا تغلب عليه الرككة كما يقول السرحان فذلك ما لا أنزهه عنه بل أنا أول المعترفين به ولكن السرحان وضع على عينيه نظارة سوداء لا يبين له من خلالها مواضع الرككة التى أقول إنها — إن وجدت — جد قليلة فيه .

ويهن الأستاذ أماننا سيفه الحشبي ويتوعد (أنه إن أراد تناول الديوان بنقد مستفيض فما يمنعه من ذلك شيء) كأن هذا التهديد يخيفنا فتركنا إليه راجين أن يعفوا عنا ! وهذا جهل منه بالنقد وأصوله ، وأنا أرجو الأستاذ الناقد أن يستمر فيما سماه نقدا فكاتب هذه السطور جندى باسل لا يخشى المعارك ولا ينثنى عن خوضها ، وله منا العهد أن نتقبل من كلامه ما كان حقا وصوابا ، أما الجهل والتشهير فسنلاحقها « برده المردود »

ولو اعترفت للأستاذ بما سماه خطأ لرضى عني ، ولكنني إذ أريته تخطيطه في اللغة وفهم المعاني وجهله بالموازين أخذ يبديء ويعيد غير فاهم ما يقول .

وما كنت أحب للأستاذ أن يتورط وينعم أنه لم يسرع إلى لقاء الأدباء المصريين ولم يستجد تشجيعهم .

وما أظن السرحان يكره الشهرة بحال من الأحوال ، بل هو يتلصصها في بلده ، في حيه ، فكيف لا يريد لها في العالم العربي ، يتلصصها عند صغار الناس فكيف يزهد فيها عند زعماء الأدب ، ولولا أن السبيل مغلقة أمامه لرأينا منه العجب العاجب في تصيد الشهرة .

أما المعاني التي في ديواني وتنسب إلى آباء صرحاء فأترك القول فيها له ، وما قول السرحان أن بعض أدبه منسوب إلى آباء صرحاء وأن آراءه لو فككت من عقالها لأسرعت إلى آباءها الأوربيين تشكو ظلم متبنيها الغاصب ، وأن أسلوبه الجديد ينطق ببنيوته للهازي بالرغم من أن السرحان غير معاملة ليسعه استعباده .

أما الألفاظ اللغوية (مشعب ورمازة وشاجنة وغيرها) فهي في مواضعها لكالاتف من وجه الأستاذ الكريم ، وما أنا ممن يستعملون الألفاظ في غير مواضعها بل الأستاذ هو الذي يقع في هذا ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدته المنشورة في السكاتب المصري « على بعاعهما » وهذه العيون الثلاث بعدها الهاء تجرف بفيضاتها الجبال ، والثقل الذي فيها يحطم السامع خطما .

ومن ذلك قوله في رده المردود :

« صوغا غير سليم لا بارد ولا كريم » ولا أدري ما سبب لومه الصوغ إذا كان غير بارد ، ولكن السرحان نقل هذا الوصف الكريم للظل في الجحيم من القرآن نقلا لم يوفق فيه ، وهذا دليل على استعماله الألفاظ والصفات والمعاني في غير مواضعها وأنا

عاذره في هذا فعبوديته للسجع هي التي جعلته يقول غير سليم لا بارد ولا كريم ، غير ملتفت إلى الانسجام وجمال المعنى والوفاق .

ولو ذهبت أتبع مقال الأستاذ لأبنت له الأخطاء التي ركب منها فيه وهو لا يعدو العمودين ، وفي هذه الأخطاء مجال واسع للسخرية والتهكم ، فما سمعت قط أن اللوزة تحشى بالققع (عين الجمل) إلا من السرحان .

وأقسم للقارىء أن السرحان هو الذي قال في رده على « كأنها لوزة محشوة بالققع » والكلمة من اختراعه ، وما استطعت أن أتصور هذا الحشو ، والناس يعرفون أن اللوزة صغيرة ، أصغر من « الققع » فكيف تحشى به ؟!

ولكن هذا هو عصر الاختراع ، فلم لا يضم اسم السرحان إلى « قائمة المخترعين » وقد ابتكر لنا هذا الشيء الذي لم يتصوره الماضون ولا يعرفه المعاصرون .

اليوم نفاخر الغربيين بأن لدينا مخترعا اسمه السرحان يحشو اللوزة بالققع .

إن كلمة السرحان أضحكتني كثيرا فقد تصورته وهو قابع كشاقب اللؤلؤ وبين إصبعيه أو أصابعه إبرة يشق بها اللوزة ويفتت الققع ليحشوها به .

والذي أركب السرحان الخطأ حرصه على أن يبدو خفيفا ظريفا ساخرا فإذا به هو نفسه يكون عرضة لشيء غير قليل من السخرية والتهكم من القراء ، وهذا جزاء الجاهل وجزاء من لا يحسن التقليد ، فهو حاول تقليد المازني وأمثاله من الأدباء الساخرين كهيبي وتوين ولكنه أخفق لأن أولئك مطبوعون وهو متصنع ، فكيف يجيد ما هو بعيد عنه وما ليس له بطبع ؟

فهل أنا الذي استعملت الألفاظ في غير مواضعها أم هو السرحان ؟

ومن تلاعبه بالألفاظ وعدم فهمه المعاني وعبوديته للجهل قوله :

« كالزئبق ما يكاد يتماسك حتى يتسائل ، وبالرغم من تفاهة المعنى وضعف البناء فإنه
مناقض للحقيقة ، فالزئبق ما يكاد يتسائل حتى يتماسك لا العكس كما يرى السرحان .

وكلتى للأستاذ أن الشر سهل كتنفس الهواء ، ولكن الخير صعب ، وما أحب
للأستاذ إلا ما أحب لنفسى ، فليعمل الخير ولنتعاون على البر فذلك أجدى
بأرباب القلم .



الن واوى (*) للحقيقة والتاريخ

في العدد ٢٠٨ من هذ الجريدة مقال عنوانه : « عصور الألم عصور فن وإبداع » للأديب عباس الزواوى. والمقال من أوله إلى آخره مأخوذ الفكرة عن كاتبين قديرين هما « العقاد (١) والمازنى (٢) » إنما أديبنا الفاضل لم يوفق كل التوفيق فى أخذه وانتحاله . فأخذ جملاً ووضعها فى مقالته بتغيير جد بسيط وادعاها من بنات أفكاره ، والحقيقة أنها ليست له وإنما هى للأديب المازنى وسنضع يد القارىء ونجعله يلمس ذلك .

١ — أديبنا يقول : فلا غرابة أن ينهض الأدب فى هذا العصر المشاد : « والمازنى يقول : « الأدب ينهض فى عصور المشادة لا عصور اللين والأمن (٣) » هل ترى فرقاً بين التعبيرين أيها القارىء !؟

٢ — يقول أديبنا : « ألم يكن عصر الجاهليين عصر اضطراب وقتن وثورات مستمرة ومقاومة عنيفة بين القبائل منشؤها حيناً ألم الفقر ، وطوراً ألم الحب ، وتارة ألم التنافس . ألم يتمخض لنا بالناطقة وطرفة ، وعنثرة ، وغيرهم من زعماء الأدب القديم .

والأستاذ المازنى يقول : « ألم يكن عصر الیصابات مقاومة مستمرة لعدوان أسبانيا

(*) نشرت سنة ١٣٥٥ هـ

(١) راجع الفصول للعقاد ص ٩٧

(٢) راجع حصاد الهشيم للمازنى ص ٦٦

(٣) راجع حصاد الهشيم صفحات ٦٦ و ٦٩ و ٧٠ (١) و (٢)

في الخارج ونشقي الخصوم في الداخل ؟ ألم يخرج فيرجيل وهوراس وليفي وغيرهم من كتاب « العصر الذهبي (١) » أي فرق بين التعبيرين ؟ !

اللهم إلا أن الزواوي أبدل بعض كلمات وزاد بعض كلمات وغير الأسماء الإفرنجية بأسماء عربية ، والقارىء يدرك ذلك بأقل نظرة يرسلها من طرف خفي .

٣ — أديننا الزواوي يقول : « إنما الغرابة كل الغرابة أن يثب الأدب في العصور الطرية الوديعه ، التي لا تثير قوى النفوس الكامنة » . والأستاذ المازني يقول : « إن عصور الأمن عصور طراوة ودعة لا تحفز النفوس ولا تستثير قواها الكامنة (٢) » .

وكثير غير هذا أضربنا عنه إراحة لنفوسنا للقارىء . وللقارىء مراجعة حصاد هشيم المازني والفصول للعقاد فسيجد ذلك ، وأخيرا فموضوع الزواوي منتحل ومأخوذ كله من هذين الكتابين .

هذه كلمة أثبتناها للحقيقة والتاريخ .

(٥) ٥٥٦١ هـ تحت بيت (٥)

(١) ٧٦ هـ في مقالة « عصرنا » (١)

(٢) ٢٦ هـ في مقالة « عصرنا » (٢)

(١) و (٢) راجع حصاد الهشيم صفحات ٦٦ و ٦٩ و ٧٠ هـ (٢)

رد على رد (*)

لعل القارىء يدرك فساد منطق الكلمة العجلى المنشورة بالعدد ٢١٠ للأديب الزواوى بتأمل بسيطة ، وكنت مريدا إغفال الرد عليها لأنها هى نفسها تحطم نفسها ، ولاحقها تناقض سابقها وكل المقال عبارة عن منطق جاف خاطيء أراد به الكاتب تبرير موقفه فإذا به يزداد حرجا ، ورام أن يناقشنى كما قال ، فلم أجد للمناقشة أثرا فى بحثه ، وإن كان حضرته يعد أمثال هذه البحوث مناقشات فى الأدب والأدباء ! ثم هو فى كلمته العجلى يخطيء ويخطيء ، ويناقض نفسه بنفسه مما جعلنى أعجب لهذه الشعوذة الأدبية ، وهانحن نقتطع جملا من تلك الكلمة نريك فيها فساد المنطق . وتناقض التعبير والاتصال وفسولة الرأى .

يقول أديبنا الزواوى : « فالمعروف أن الفكرة للأديب الصهيونى « ما كس نور دو » وعالجها الأستاذ المازنى من ناحية الأدب الغربى استطرادا فى نقده للفصول للعقاد وأهمل فيها الأدب العربى » .

إقرأ هذه الجملة — أيها القارىء — ثم انظر فى منطقها ، ألسنت تراه مهلهلا ؟ وإنى أريك موضع ذلك . يظن الكاتب أن كل مقال تذكر فيه أمثال هذه الأسماء برناردشو ، أنجل ، دستوفسكى ، لينين ، جوركى ، فهو أدب غربى لأن فيه أسماء أدباء غربيين ، ولو أتيت بالمقال عينه ثم أبدلت تلك الأسماء بأسماء عربية كالنابغة وطرقة وبشار والمتنبى فهو أدب عربى هذا هو منطق الزواوى كما يفهم من كلامه ، وهو خلط فى التعبير لايسوغه الفكر الصحيح . فالأستاذ المازنى لما ذكر أسماء كتاب فرنجة عسر على أديبنا التفرقة بين الأدب العربى والأدب الغربى ، كما ألقت نظره أن المازنى لم يتكلم فى مقاله

إلا عن شخصيات أدبية غربية والبحث والتفكير في شخصيات أدبية والكتابة عن منشأها والتكلم على بيئتها ليس كالبحت في الأدب ؛ فذلك تاريخ أدب وكما هو معلوم أن الأدب غير تاريخه ، وفي الجملة خلط أيضا في قوله : « في نقده للفصول للعقاد » وهذا جهل من الكاتب الزواوى بالمازنى والعقاد ، فالمازنى لم ينقده بل قرظه وأطراه ، وأدينا يدعى أنه قرأ العقاد والمازنى قراءة طويلة ، فهو إن كان كما يدعى ويزعم فلماذا يتخبط في الكتابة حتى لا يكاد يفرق بين النقد والتقريط .

يقول الزواوى : « ولا أظن أن أدينا العطار في مستطاعه أن يثبت أنى ادعيت لنفسى تلك الفكرة أو ادعاها الكاتبان القديران » والحقيقة أن في مستطاعى أن أثبت ادعاء الأديب وانتحاله للفكرة وذلك لتذليل اسمه في نهاية الموضوع وعدم تنبيهه القراء أنها ليست له وإنما ينقل من كاتب آخر ، ولو قال ذلك لكان بعيدا عن المؤاخذة ولكن بعدا غير كثير ولكننا آخذناه من جهة أخرى على انتحاله الجمل التامة بمعانيها من مقال المازنى وادعائه أنها له إذ لم يضعها بين أقواس إعلاما للقارئ أنها ليست من تفكيره وإنما هي من شواهد .

ولا أكتمك يا قارئ العزيز أن العجب قد ملكنى من تسرع الأديب الزواوى وحكمه على حكما صارما بأنه ليس في مستطاعى الإثبات على ادعائه المقال ، وها قد كان في مستطاعى الإثبات .

ويقول الأديب الزواوى : « وإنى لأعجب كيف يسوغ له بأن يزعم بأن مقالى إنما أخذ من بحث المازنى لتجاوب فنى في سبك جملتين لا تضر بهيكل الموضوع كانت من وحي المطالعة الطويلة لما ينتجه الأديبان » .

لاداعى للعجب ! ولماذا يذهب بك هذا المذهب العسير ، وأنا أجعلك ترى كيف أسوغ لنفسى الزعم بأن مقالك منتحل كله من المازنى ؛ لأنك لو أتيت بمقال هذا ومقالك لا يوجد ثمة كبير فرق بينهما ، فأنت تأخذ جملا تدعيها ثم تكابر وتأخذ الفكرة عنه وتكابر ، وإنى قد أتيت بثلاث جمل للمازنى وثلاث جمل من مقالك وأعلنتها للقراء ولم

يوجد بينها أى اختلاف ما ، اللهم إلا فى بعض الألفاظ غيرتها عن وضعها وصيغتها فى وضع وصيغ تغاير ما أخذ منها قليلا للتضليل على قرائك وإنما قرأوك يقظون يحاسبونك ويناقشونك فى ما تنشر ، فهل معنى تغيير الألفاظ عن أوضاعها وصيغها أن يكون ثمة توارد خواطر أو تجاوب فى ؟ كلا إنما يحصل التجاوب النفسى — فنيا كان أو غيره — فى جملة يتحد بعض ألفاظها ويألف بعض معناها ، أما التجاوب الذى نفهمه فى مقالك فهو تجاوب كله انتحال ، وغير تلك الجمل الثلاث كثير يجده القارىء فى « الفصول » و « حصاد الهشيم » ولكن كما قلت أضربت عنها صفحا وإلى الآن لازلت مضطرا إلى أن أضرب عنها صفحا ونحن نعرف التجاوب وصداه فى النفوس وأثره فى العواطف ، ونفهم أن هناك توارد خواطر ، وليس معنى هذا الانتحال لجمل ثم الادعاء بأنها من وحي المطالعة الطويلة ، وأنا أنكر كل الانكار أن المطالع الطويل فى الكتب تعلق بذهنه جمل تامة بألفاظها ومعانيها ، وإنما الذى نعيه أنه لا يعلق بالذهن إلا المعانى والأشكال . أما الألفاظ والصور فما لها التلاشى .

ويقول الزواوى : « إن التأثر بأساليب كبار الكتاب ، والاندماج بأرواحهم جرت به العادة » وأنا أوافقه فى هذا التعبير كما أنه يجب عليه أن يوافقنى أن التأثر والاندماج لا يؤديان معنى الانتحال كما فهمه حضرته ، وهذا الفهم فائل فاسل ، وهذه الجملة أيضا منتحلة ومأخوذة من مقال الناقد الفنى لصحيفة المؤدب إذ يقول : « والتأثر بأسلوب كبار الأدباء وعظماء الكتاب وعباقرة الشعراء والامتزاج بأرواحهم لا ينكره أحد .. » فهل فى وسع أديبنا الزواوى أن يقول — كما قال سابقا — أن هذا أيضا تجاوب وليكن الزواوى أديبا على حساب التجاوب الفنى وليكن التجاوب الفنى ستار أديبنا الذى يحتفى خلفه وسيواجه الذى يحميه .

حياة محمد

تأليف هبيل باشا

لشخصيات العظماء والأبطال على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين لغاتهم وأوطانهم جاذبية تجذب كل إنسان وتسترعى انتباهه وتكون موضع إعجابه وتقديره وتجعله يتحمل مشاق العمل المضني، والبحث الدقيق، والتفكير العميق، والتضحية بشيء غير قليل من الراحة والهناء، ومن غير شك أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم خليفة بأن تكون قوية في اجتذاب أفكار الناس على تغيرهم سيما العظماء منهم والأبطال فيهم، خليفة بأن تكون موضع تفكيرهم وبحسبهم حتى يقفوا على سر هذه العظمة التي تهر بجبالها وجلالها الدهر كله، ويدركون عبقريته وكيف خلدت على مدى هذه السنين الطوال، والأجيال المتطاولة تفي وتجدد وهي لا تزال على عهدنا كأَنَّ هذه الأجيال كانت محكا لظهور تلك العبقرية وسببا في إبرازها — وإن كانت شخصية النبي لا تحتاج إلى من يطهرها — فهي كالشمس لا تغرب في شرق الكرة الأرضية إلا لتشرق في غربها، وهكذا دواليك .

هذه الشخصية تحتاج إلى درس وفحص لأنها مبعوثة من مبدع هذا الكون إلى ساكني الكون من إنس وجن، ولو لم تكن رسالة من قبل الله لكفت أمانته وإخلاصه وإنسانيته وديله إلى ربط العالم بعضه ببعض ونزعتة الاجتماعية للتكوين من الفردية الحجازية والعصية القبلية جمعية إنسانية تتبادل الشعور العام في الحياة في كل حين، وأن تكون كالجسد الواحد تتألم أعضاؤه كلها تألم فيه عضو، وترتاح كلها كانت الراحة سارية في مجموع تلك الأعضاء .

لو لم يكن نبياً ورسولا لكفاه أنه كان المثل الأعلى الكامل للإنسانية والإنسان في الحياة وللحياة، ومن أجدر من هذه الشخصية الفذة العبقرية النزاعة إلى النور والحرية والتجديد ورمي القديم البالي جانباً مع تحطيم عمده الملهمة من أن تجذب الأفكار

وتستوعب الانتباه؟ من أجدر من هذه الشخصية التي تعتقد وتشعر بنقص الإنسان وحاجته
الشديدة إلى الانضمام في سمط الجمعية الإنسانية لتؤدي رسالتها خير الأداء من
الدراسة والفهم؟

ومن المعلوم أن الرسالة شاقة عسيرة ، ومهمتها صعبة كبيرة لا يصبر على مشاقها
وما يعثورها من أذى وشقاق وخصومة إلا النفس الكبيرة النقية الطاهرة المحبة للناس
جميعا ، وهكذا اختار الله محمداً الكامل أن يكون صاحب الرسالة . . فكان نبيا
وكان رسولا . .

* * *

خرج محمد إلى الحياة المنيرة المشرقة بفكرة منيرة مشرقة ، رأى تلك الحياة الأولى
التي تسودها الظلمة الخالكة ، والشك والكفر ، فعجب للإنسانية كيف وصلت إلى
ذلك الحد البعيد من السقوط والإسفاف ، وأبصر سفن البشرية مشرقة على الغرق فأخذته
نزعة الإنسانية وهدته رسالته المشرقة إلى أنجع الوسائل وأحسن الأساليب لإدلائهم
على الطريق السوية ، وما كان منه إلا أن يأتي الناس سرّاً يريهم فضل الرسالة التي بعث
بها وما غايتها من بعثه وغايته من إرسالها؟! ومضت عليه شهور وهو يحاضر القوم فرادى
سرّاً حتى بلغ بالاعلان فأذاع وأعلن ، ومشى إلى القوم يحدّثهم عن الحق والهدى
وأثرهما في الحياة والأحياء ، ولكن النور البهي الوضاء لم يكد يصل إلى أبصارهم
وبصيرتهم حتى ألوواهم وسهم ولم يطيقوا الصبر أو يتحملوا مشقة « التطور » من
حياة الهمجية إلى المدنية والحضارة وهنا اشتد الصراع وعنف بين الكفر والإيمان
والوثنية والإسلام ، حيث الأول يأخذ مكانه جانب الكعبة وقلوب القرشيين ومن
إليهم ، وحيث الآخر يتربع على عرش الأفئدة المخلصة المستنيرة المتصلة بالله ، هنا يشتد
النضال ويستمر بين القديم والجديد مدة من الزمان حتى يمضي على رسالته زمن طويل
فإذا القتال يزداد والأنانية العربية تبعث شررها الملهب وإن شئت فقل زمن قصير
وإذا الأصنام المحاطة بالقبلة تخر سادرة أمام عظمة الله وقوة المؤمنين المجاهدين ،

وإذا الكفر يتضاءل قبالة الإيمان ، وإذا الكعبة الغراء يحيط بها المؤمنون يهللون
ويكبرون بأن عرفوا خالقهم ووصلوا إليه ومحمدون الفرصة السانحة التي أتاحت لهم
فهم الحياة على ضوء النور والحرية ، ويأتون النبي وكلهم السنة تلهج ثناء وإعجاباً
به وبرسالته .

* * *

كان كفار قريش قبل ظهور محمد بل كانت الإنسانية بأسرها تمشي في ليل بهم
مطبق لانهاية له فيظلم الكون ويتضاعف ظلامه ، لا ترى نوراً ، ولا تتبع دنيا ، تبحث
عن بصيص من الضوء يهديها إلى الصوى ، فإذا بها تزداد غرقاً في الغواية والضلال
تستعبد أربابها من أصنام وأوثان فإذا بها صماء لا تحيب ، ثم يقدر الله فينبعث من هذا
الكون المظلم ، والمظلم — إلى حد بعيد — نور فذتسرسل خيوطه الفضية إلى نواحي الكون
قليلاً قليلاً ، فتبصر الشعوب أمامها طريق الخير والشر وتتنبس لوضعها عن كاهلها
أعباء الكفر وأحمال الطغيان فإذا الكون يزهو ويزهو ، وإذا الإسلام يتربع على عرش
الدنيا ، فيمتد حكمه من أسبانيا إلى أقصى الهند وأوائل الصين ومن آسيا الصغرى إلى
بلاد العرب ، وإذا كل موحد بالله يردد هذه الكلمة التي تملأ السموات والأرض
« محمد رسول الله » كل يوم وليلة ملايين المرات ومئاتها في نشوة ولذة وطرب .

وبهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، له تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات .
وهذه الشفاه والقلوب به تنطق ، وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين ، وبهذا
الاسم الكريم ستنتطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين فإذا كان الفجر
من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الأسود ، أهاب المؤذن بالناس بأن الصلاة خير
من النوم ، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله ، فاستجاب له الألوف والملايين
في مختلف أنحاء المعمورة يحيمون بالصلاة رحمة الله وفضله متجليين في كل نهار . وإذا
كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر ، ثم لصلوات العصر
فالمغرب والعشاء . وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبداً لله

ونبيه ورسوله في ضراعة وخشية وإناابة « وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفىاه . كذلك كانوا وكذلك سيكونون حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين (١) »

سلبت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم عطاء المفكرين وقادة الفكر ، وحبت إليهم فكتب عنه جوتييه شاعر ألمانيا الكبير فصلا بمتعة لذذا كما كتب عنه كارليل ، وكتب عنه كثير من المستشرقين وغيرهم ، ولكن لم يوفقوا التوفيق كله ولم يلبوا بحياة محمد وأحواله كما وفق الدكتور محمد حسين هيكل وأجاد .

يحق للجيل الجديد أن يفتخر بكتاب « حياة محمد » ويكبر فيه هذه الروح الوثابة الطموح نحو السكالم والمثل الأعلى . وإن هو أكبر وافخر فإنما يكبر الجمال والحق والقوة في نفس هيكل ، ، وليس غريبا على الجيل الجديد وقد رزق من المنطق صائبه ومن التفكير حره ومستقله أن يوفق إلى فهم هيكل وكتابه ، وإذا زعمت بأن هيكل وافق في فهم الحياة الجديدة كما وفق في فهم السيرة النبوية على حد المنطق وأساس التفكير المستقل فلن أعدو الحقيقة وأتجاوز الصواب .

قال الدكتور هيكل في مقدمة كتابه : « وهداني تفكيرى آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجامدين من الناحية الأخرى ، وأن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده » وإن كاتبنا مبدؤه في البحث والتأليف طلب الحقائق لذاتها والوقوف عليها لجدير به أن يوفق في أبحاثه وكتاباته لا يشط فيها ولا يسف .

هذه محممة كبيرة لا ينسأها الجيل الجديد ولن تنسأها الأجيال الآتية لأن ما صنع هيكل بك (٢) عمل عظيم يذكر المسلمين على الأخص بنفسه ويذكر المفكرين

(١) حياة محمد لهيكل ص ١٦

(٢) هيكل باشا الآن .

الباحثين في تاريخ الرسل والأديان.

وحسبنا من هذا أن هيكل الكاتب العظيم الحر الفكر لم يكتب هذا الكتاب
الجليل الأول من نوعه إلا لوجه الحق وحده .

وأحسبني لا أغالى إذا قلت : إن « حياة محمد » خير كتاب يحوى بين دفتيه السيرة
النبوية ، فالمرحون من قبل وفي وقتنا هذا لم يوفقوا في الكتابة عن حياة محمد كما
وفق هيكل العظيم .



مهم وعى المرأة (*)

ديوانه لعبد الرحمن صدي

اثنان بلغا من العلم والثقافة والأدب مبلغا لا يدانيه إلا الراسخون فيها بهذا البلد ،
هما رجل وامرأة ، وكلاهما فى جنسه متفرد موموق .

اثنان تحاببا للفن وقضيا أياما حلوة وليالى باسمة يشجان بهذا الحب وبهذا الاجتماع
المحبوب للدرس والفهم والقراءة ، وكان كل منهما يشعر بميله إلى الآخر وإعجابه وتقديره
إياه ، ثم قضى الله بأن يستسليا للرباط المقدس (الزواج) دون أن يعرف أحدهما
دافعا بارزا ، ولكنه على كل حال دافع لا يرجع إلى سبب بل إلى أسباب منها اتفاق
النظرة إلى الحياة والأحياء واتحاد المنزع والهوى وتقارب الثقافة ومساجلة الشعور
وفهم كل منهما روح الآخر على حقيقته .

تزوجا فلم يفتر ما كان بينهما من حب وعطف وشعور كما يفتر بين حبيبين إذا
اقتربا لأن طلاب كلا الزوجين لم يكن وقفا على اللذة الجنسية بل كان له طلاب
أسمى من ذلك .

إنه لا يطلب من الزوج البرة الصالحة اللذة المحدودة والمتعة الجنسية بل هى
— عنده — أرفع من كل هذا لأنه يحس بجانبها اللذة الفنية التى لا يحسها إلا ذوو النفوس
الكبيرة التى كمل نضجها وسمت بها إلى حيث يسمو العقل الكبير والقلب المتفتح والعين
التى لا تدير نظرتها إلا على الجمال فى أكرم صورته ، وهى بجانب كل هذا وحيته
الذى يمدد بالخيال ، ورفيقه الذى يساجله الشعور ، ويعنى معه بالدراسة ، والدراسة
عندهما « شخص » ثالث فى هذه الروبة الحية .

امتزج كلاهما بزميله دماً وروحاً ورفرف في الأجواء الحاملة التي تتاح للشاعر
الموهوب والإنسان النبيل ولا تتاح لغيرهما.

وقد ابتسمت لها الدنيا كما ابتسم لها وغدت جنة بها كل ما تشتهي النفس وتلذ
الأعين وقضيا بها بضع سنين ثم خرج أحدهما — وهو الزوج — يائساً محطوماً يذرف
الدمع سخينا لأن زوجته قد طواها الردى إلى الأبد .

أين الجمال والفن والسعادة واللذة الفضية ؟ ! أين الزوج البارة الطيبة ؟ أين المعاني
الثرة التي كانت تفيضها على الحياة ؟ أين الحسن الذي ألبسته الدنيا ؟ كل هذا في التراب !!
كل هذا للتراب ! .

إنها كانت نور عينيه وجمال دنياه ، و« جنة عدن » ، ولكن قد استحال جمال الدنيا
قبحاً بفقده إياها ، ولذاتها آلاماً ، وروضها الناضر فقراً جديداً .

لقد شئت يادنيا بقلبي وناظري

وجنة عدن كنت في قيد ناظري

لقد شئت يادنيا ، لقد شئت بعدها

فكل جديد فيك يوحى بدائر

شاهت الدنيا لأن الحبيب التي كانت تزينا وتوشها وتنمها بالزهر والريحان وتنفع فيها
الروح وتبث الحياة وتروها بماء الحسن قد ماتت فبقيت الدنيا جثة هامدة ! وبفجيعة
في زوجه فجع في شعره وقلبه وخاطره :

عفاء على شعري وقلبي وخاطري فقد كنت في حال فصرت بآخر

وهكذا بقى الزوج — بعد فقد زوجه الحبيبة — ذاهلاً يقضى أيامه ولياليه ينظم
الشعر ويرسل الطرف إلى الماضي لعله يجد شيئاً من السلى والطمانينة والراحة

ينسبه همه الكارب الثقيل ولكن لا سليل :

دموع بلا جدوى . نداء بلا صدى

كذلك حكم الموت حكم الجبابر

هذه قصة حقيقية لا نصيب للخيال فيها ، ولكنها غدت بحقيقتها أجمال
من الخيال .

تلك هي قصة الشاعر المصرى الكبير عبد الرحمن صدقي مع زوجته (ماري) التي
فجع فيها ففجع في أمانيه وأحلامه . تلك قصته بدون « تعمل » أو صبغة غير صبغتها
الأصيلة ، وهي تشبه قصص الأساطير بوثباتها البعيدة وتهاويلها وصورها واشعاعاتها .

وقد جمع الشاعر الكبير ما نظم في شيعته هذه وأصدر ديوانا أسماه « من وحي
المرأة » وهو هذا الذى نشير إليه ونكتب عنه .

والديوان كله تصوير لفترتين من الحياة ماضيه وحاضره ، وهو يعرض لنا قصة
الحياة في هاتين الفترتين عرضا رائعا خلايا في نفس أبطالهم وهم : الشاعر وزوجه
والكتب ، نعم ، الكتب فهي هنا -- في هذا الديوان -- أو في هذه القصة « شخص »
من صميم القصة .

وما كان غير الحب « والكتب » عالم

لنا حافل بالمغريات خصب !

فياويح هذا الموت أودى بعالمى

وكل عطاء بعد ذاك سليب

وقال :

ونجلس للأسفار ندرسها معا

كأن ليس غير الكتب في العيش مقصد

وقال :

وحيدان نستوحى الدفاتر عليها

صموتان لا نلهو ولا نتغضب

ولكن الشاعر حينما فجع في حبيبه فقدت الكتب نفسها عاشقها المغرمين بها ، فقد
شغلت الشاعر عنها فجيعة الكبرى . كما شغلت هذه الفجيعة نفسها الكتب أيضا فعدت
خرساء صامتة وكانت في جوارها ناطقة .

شريكة درسى ! تلك أسفار مكتبي

خرسن ، وكانت في جوارك تنطق

فألى إلى الأسفار بعدك نهضة

ولا متعة فيما يشوق ويونق

وكيف ينمض إليها وقد فارقتها — كما فارقتها — شريكة درسه ؟ وماذا يجد عند
أخرس لا يستطيع التخفيف ؟ وبالرغم من كل هذا يتوسل إليها أمراً داعياً :

إلى جميعاً بالتعازيم والرقى

في طعنة مسمومة لا تطيب !

أفيكن من جرح الحياة مخدر

أفيكن أفيون ، أفيكن قنب ؟

ولكنه لا يجد عندها ما يطفىء النار المتضجرة في روحه وقلبه ، ولا المخدر الذي
يبلد إحساسه فيبقى مفجوعاً تطحنه الآلام ، ويريد أن ينسى ويريد أن يسلو ولكن كل
شيء يذكره بها : الطريق ، البيت ، وقلبه يتفجر بالذكريات فيذكرها وهي تلقى فتاة

الخبز للطير ، ويذكرها بصوان ملابسها ، يعطورها بكل ما في البيت وبكل ما كان يتصل
بزوجه من قريب أو بعيد ، يذكرها على الرغم منه وهو يريد أن يسلو ولكن أين
السلو ؟ ! إن من يزعم أن « السلو مع الأيام ، فهو كاذب . فها هي ذى الأيام تمر
واللوعة تزداد ضراما .

أراني مع الأيام تزداد لوعتي
وعهدى بها للنقص في قول قائل

وكيف يسلوها وهي منه خدن ^{دراسته} وحليف حياته ، وهي منه في قلبه
وفكره وخياله .

مكانك يا زوجي وخدن ^{دراستي}
حليف حياة لا رهين مقابر
مكانك مني في فؤاد متيم
وتفكير ذى فكر وتخيل شاعر

وكيف يسلوها وهي التي جعلت الفقر في عينيه جنة يانعة :

وكنت جعلت الفقر حولي جنة
وقام من الفوضى نظام منسق

ذهبت بذهابها النظرة والخصوبة والحياة والروح والجمال وكل شائق وجليل :
وأشتم ريح الموت في كل عاطر (١)
والمح شبح الموت في كل ناضر

وليسست فجيعته في زوجه أولى فجائعه - وإن كانت أمرها وأوبقها - فقد مات أسلافه من قبل ، وليس هو وحده المفجوع في الدنيا ولكنه لم يفجع كفجيعته هذه فلم يبكهم بكاء زوجه ، مات أبوه قبل عامين من موتها ولكنه التمس له العذر بشيخوخته وإذا انطفأ المصباح بعد نضوب زيتة فلاجب وإنما العجب أن ينطفئ الزيت فيه يغذيه :

لقد مات مذ عامين - قبلك - والدي ومن لحمي لحمي ، ومن دمه دمي فلم يك رزئي فيك دون فجيعتي عليه ، فسل بالمكان المعظم له فضل ميلادي ومربي حداتي وفضلك في ميلاد قلبي المتيم فيأدهر لم أعذر في هلك شيخنا كبيرا فما هلك الشباب المنعم ويزداد به الشك والحيرة والألم ثم يستسلم في خاتمة المطاف ويقول في صدق :
لقد حرت في عدل القضاء ، وعدله خفي على فان يرى بالتوهم ويقفه موتها أمام مشكلة الحياة والموت وخلود الروح فيفكر فيها ويعني ببجتها ولكنه لا يجد في العلم ما يطفئ غلته :

أفكر في الأرواح كيف خلودها وكيف تلاقى من قضوا وتبهموا ؟ واستطلع الأديان ، فالعلم كافر وليس وراء القبر للعلم مذهب يستطلع الدين لأنه عاج مسألة الروح وخلودها ، ويدعو الله صادقا ، فالله وحده هو الذي يحبو حبيبته ما يتمنى لها من نعيم مقيم ، وراحة ، وأمان :

يعوضها ربي نعيما ومتعة بما حرمت في أرضنا من لذات يعوضها ربي رضا وكرامة بما قدمت من صالح ومبرات إنها ماتت ولم تعد تسعده لأنها غائبة عنه فهو شقي بذكراها وبحبها .

وكل لذيد في لهاى علقم وكل شهى في حشاي مسمم

حتى الطريق الذى كان يفضى به إلى دنيا غرام ونشوة . وإلى فردوس ناضر أنيق
قد استحال في ناظره بعد موت زوجه فيقول فى أسى بالغ وألم ممض :

تقلبت فى عيني كرها معبسا وكنت تلقاني بوجه طليق
طريق ، لقد جازتك أيام أنسنا بخطو لها حلو الأناة رشيق
فمالك قد مرت حميلا بنعشها عليك ، فما زلزلت غير مطيق

و « زلزلت » وحدها - هنا - دنيا من الشعر الحى الصادق ، والمعنى المؤثر البليغ ،
إن هذه اللفظة فى مكانها خير من قصائد بكاملها ، فقد استطاعت أن تصور لنا أسى
الشاعر المفجوع الذى لاحد له ، فهو يصيح بالطريق : لماذا لم تتزلزل على من مرت عليك
بنعشها بعد أن كانت تمر عليك وهى فى دنيا الأمل والحياة ، ألا تذكرها أيها الطريق
بخيرها عليك ولكن الطريق ما يزال على حاله والشاعر غاضب على عدم وفائه كما وفى
الكتب التى خرس بعد نطق .

وهنا التفاتة أخرى إلى « مرت » فالشاعر يستعير لزوجه التى ماتت ما يدل
على الحياة والحركة ، فهى لم تمر ولكن مروا بها غير أن شاعرنا يثبت لها هذه
الحركة الدالة على الحياة ويسند إليها « المرور » ليفتح لنفسه فجوة « صغيرة » للأمل
ولسكنها لاتفيد ولا يستطيع أن ينفذ إلى عالمها الذى انتقلت إليه .

وتمر الأيام والليالى ولا يجد الشاعر الحزين التخفيف فيقول :

تريد الليالى — ليلة بعد ليلة — ظلامى ، فما أدجى ظلامى وأقساه
كما إلى جب بغير قرارة يزد ظلاما كلما زاد مهواه (١)

(١) هذا معنى جديد يضاف إلى الشعر العربى ولم أقرأ قبل فى دواوين
العرب مثله .

ولكنه يستسلم لقضاء الله :

قضى الله هذا لا مرد لحكمه وكيف اختيار العبد فيما قضى الله

ويسدل الستار : ستار هذه القصة الحية المؤثرة البليغة بوقفة الشاعر على قبرها با كياً :

هنا رقدت زوجي الحبيب وتوأمي وخُـلِّـفْتُ في عرس الحياة بناتم
هنا صار مثواها - وما برح الثرى ركازاً لأعلاق ، ومهوى لآلجهم
سألتك ربى أن تبارك روحها وتلممنى يارب تسليم مسلم

* * *

وصدور هذا الديوان مفاجأة طيبة لقراء العربية فهو ثروة تزكى أدب العرب ،
وبالرغم من ازدحام الشعر العربي بقصائد الرثاء فإن ديوان الشاعر المصرى الكبير
عبد الرحمن صدقي جديد بارز فيه ، وبالرغم من التزام الشاعر البحر الطويل فإن النغمة
الموسيقية والجمال والإشراق قضت على السامة التى تخلفها التكرار وجعلتنا نعجب بقدرة
الشاعر التى مكنته من النظم بهذا الأسلوب القوى الآخاذ.

وأسلوب الأستاذ صدقي فى شعره كأسلوبه فى نثره يجمع بين جزالة القديم ورصانة
بنائه الوثيق وبين جمال الجديد وحرية وسلامته من التعقيد.

وأكد أجزم بأن ديوان صدقي هو الديوان الوحيد الذى أجمع أصحاب الفكر
والبيان على تقديره والإعجاب به ولم يتفرقوا فيه شيعاً ، والإجماع حجة ، فليكتب اسم
صدقي فى «قائمة» كبار الشعراء ، فإنه لشاعر كبير مطبوع .

مع الاستاذ العقاد (*)

سمعت أن أديب العربية الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قادم إلى مكة عضواً في بعثة الشرف المصرية الموفدة من قبل جلالة الملك « فاروق » لمصاحبة جلالة الملك « عبد العزيز » إلى مصر فسررت كثيراً ، وتماقل الناس هذا الخبر كالبحري .

أما نحن أدباء مكة فما كدنا نعلم بوصوله مكة حتى تسابقنا إلى زيارته ، وكان أبين أعضاء البعثة بقوامه الفارع الطويل وبنائه الشاهق وتركيبه الوثيق !

وفي اليوم الثاني عقب وصوله هرع إليه نفر من الأدباء لتحيته وللتزود من أدبه ومعارفه وثقافته الواسعة .

أما أنا فمن أشد الناس دراسة لأدب العقاد وإعجاباً به وتقديراً له ، بل هو عندي الكاتب الأول للعربية في عصرنا الحاضر ، وبينى وبينه صلات ودية ترجع إلى تسع سنوات خلت ، وهذا ما جعلني أعظم شوقاً من غري إلى لقائه وتحيته في بلادي ، وذهبت إلى « أوتيل مصر » لزيارته .

وما كدت أنتظره دقائق حتى أبصرته داخلاً من باب الفندق فنهضت إليه أستقبله وتصاحفنا مصافحة حارة فبادر الأستاذ فؤاد شاكر يعرفه بي فأجاب الكاتب الكبير :
إنني أعرفه من مصر منذ سنين .

وجلسنا على كرسي طويل نتحدث وهذا بعض الحديث :

قلت : إن شباب البلاد العربية السعودية وأدباءها يودون لو طال مقامك بينهم أياماً ليقيموا لك حفلات التكريم فهم أرباب قلم وأصحاب فكر وذووا بيان وأنهم معجبون

بك ، وكانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن يتحدثوا إليك . وإنهم اليوم يجدونك في بلادهم
فيأسفون على أنك لن تقيم بينهم إلا سويغات معدودات لا تتيح لهم أن يؤدوا بعض
مالك عليهم .

فقال الكاتب الكبير :

« إنني شعرت منذ هبطت بلدكم المقدس بالحفاوة والتكريم ، وإنني أشكر لكم حفاوتكم
بي وهي حسبي ، وهي عندي أعظم من حفلات التكريم ، ولقد وجدت هنا شباباً ناهضاً
يصبو إلى الأدب والفن والعلم ، شباباً ناهضاً دائب الدرس والتحصيل ، متابعاً الحركة
الأدبية باهتمام لا مزيد عليه ، وهذا شيء يجعلني مطمئناً إلى أن لهذه البلاد مستقبلأ أدبياً ،
وإنني لواثق أن وثبتكم الجديدة ستعيد إلى بلادكم سمعتها الأدبية الأولى » .

قلت : أتذكر - يا أستاذ - أنك قلت لي سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) عندما طلبت إليك
زيارة بلادنا : « إن لم أطف بالبيت سبعاً فقد طافت به روعي سبعين مرة » ووددت
أن تلقى شـباب الحجاز في حرمهم ، وهأنت ذا قدمت إلى بلدنا الحبيب إلى كل
مسلم ، فالحمد لله الذي بلغنا منانا وبلغك منك ، غير أننا لا نقنع منك بالزيارة الخاطفة
والمقام القصير : ولا يقنع بلدنا منك إلا أن تبقى به شهراً على الأقل لنقوم بواجبنا
نحوك ، ولتقوم أنت بواجبك نحو البلد الذي أنبت أبطال عبقرياتك الخوالد .

فقال الكاتب الكبير :

« نعم ، أذكر ذلك ، وإنني - الآن - لسعيد بأن التقى شباب مكة في حرمهم وأرجو
أن يبلغني الله ما أريد ، فأقيم بينكم الأيام التي ترغبون » .

ثم أخذ الأستاذ العقاد يذكر هذه البلاد بالخير والثناء ويتمنى أن يكون حاضرها
ومستقبلها كماضيها المجيد ، وانتقل إلى الكلام في الآداب والفنون وأثرها في الحياة .
فقلت له :

إن مصر لم تضمن لنفسها هذه المسكنة في العالم العربي ولم يكن لها فيه هذا الاحترام

المشهود إلا بالدعاية الأدبية الصادقة ، وكان أدباؤها هم الدعاة الصادقين ، وكانوا طلائعها إلى الأمم العربية حتى كانت لها هذه الزعامة وهذا التقدير والإعجاب .

العالم العربي معنىً بتتبع حركات مصر الأدبية والثقافية والعلمية كثيرا ، ولم يضمن له هذه المكانة إلا العقاد والمازني وطء وهيكل وغيرهم من أرباب الأقلام والفنون ، فسفارة مصر الأدبية إلى كل قطر عربي سفارة لها شأنها ، وهي أفيد السفارات كلها وأقواها أثرا .

يأتى بلادنا وغيرها السياسة ورجال المال والاقتصاد والتجارة فلا ندري بهم ولكن الأدباء إن أتوا فاحتفاء الأمة بهم عظيم له دويوه وله ذكره ، وهأنذا تبصر صدق ما أقول .

فقال الكاتب الكبير :

« مكانة الأديب الحق تزداد رفعة ، كما يزداد قراء وأنصارا وأتباعا كل يوم ، وأدبه خير سفارة ، وهو وحده الدعاية الصادقة البريئة من كل زيف وهوى » .

وقلت : أيها الأستاذ ، إننا قرأنا كتبك كلها وفيها دواوين شعرك ، وإننا لنعرف أدبك أكثر مما يعرفه كثير من المصرين أنفسهم ، وهذا دليل حبنا لك وافتئاننا بتناجك الذي لم نشهد تناجا مثله في النضج والسمو والعبقرية إلا قليلا في البلدان العربية .

ولي رأى في أسلوبك يغاير آراء كثير من الكاتبين الذين يزعمون أن لك أسلوبا غامضا لا يبين ، معقدا لا يحل ، ورأى أن أسلوبك من أوضح الأساليب وأكثرها إشراقا وجمالا ، ولم يزعم أولئك أن أسلوبك غامض معقد إلا لتقص في ثقافتهم ومداركهم وملكاتهم ، إنهم لا يفهمون ما تكتب لأنه يسمو على أفهامهم فيظنون أن بأسلوبك غموضا يصددهم عن وعبه وفهمه ، والحق أنه لا غموض فيه ، بل أرى أن القارئ الذي يقرأ « الموضوع » الذي تكتبه ولا يفهمه فهو لن يفهم هذا « الموضوع » نفسه من كاتب آخر لأنك أنت من أقدر كتاب العربية على تركيز الفكرة وتحليلها

والتعمق فيها وتقريبها إلى الذهن بالمثال ، فإذا كتبت لم تترك مجالاً لكاتب ، فليس العيب عيبك إن لم يكن يفهم أدبك من كان ناقص الدراسة والتحصيل والثقافة ضعيف الملكات أو من كان طالب تسلية يزجي فراغه بل العيب عيبه .

فقال الكاتب الكبير :

« إن من أراد أن يقرأني للتسلية فخير له ألا يقرأني لأنه لن يجد عندي هذه اللذة الرخيصة ، وما أنا بكاتب تسلية ، ومن أراد أن يقرأني لغير التسلية فليقرأني ، إن التسلية تشتري بقرشين ثمن (تذكرة) إلى الريحاني أو الكسار . »

قلت : إنا قرأنا لك منذ شهر « في بيتي » وقد أعجبنا به جد الإعجاب ، فهو خلاصة تجاربيك وآرائك في الحياة ، والآداب بما فيها من القصة والشعر والفنون والرسم وغيرها وغيرها ، ولقد أعجبنا مثالك الذي سقته لبيان خطأ من يفاضلون بين الأدب والصناعة والعلم .

فقال الكاتب الكبير :

« إن المفاضلة بين هذه المقاصد الثلاثة أشد المفاضلات خطأ . كيف تفاضل بين رجل وعصا . الرجل من الجسد والعصا منفصلة عنه ، وكتاهما ليستا قريناً يقاس إلى قرين . والاختيار بينهما أخطاء الخطأ . والآدب جزء من النفس الإنسانية والصناعة أداة من أدوات الإنسان . والعلم حالة من حالاته . فكيف تفاضل بين جزء من الإنسان وأداة منفصلة عنه أو بين حالة من حالاته التي قد تنفصل عنه ؟ بل لا موضع للمفاضلة والاختيار هنا بين أشياء مختلفة ، لا تكون المفاضلة إلا بين قرين وقرين أما بين الرجل والعصا فلا . »

قلت : إن الأديب المبين المازني شاعر بلغ الذروة العليا في فن الشعر وكان لدي ديوانه فوجدت له أباكراً رائعة الحسن .

فقال الكاتب الكبير :

« مثل ... »

قلت : قرأت الديوان منذ سنين غير أنى نسيت أبكاره وغير أبكاره لبعده المدة
ولكن بذاكرتى النساء يبتين من أبكار شعر المازنى وهما :

إذا اغتمضت عيناي فالقلب ساهر يظل طويل الليل يرعى ويرصد
وما أن تنام العين ، لكن أخاها تدير بقلبي نظرة حين أرقد !
وبالرغم من اطلاعى على الشعر القديم والجديد فإنى لم أجد هذا المعنى المبسك قبل .

فقال الكاتب الكبير :

« صدقت . إن المازنى بحق شاعر كبير ، وأظنك قرأت مقدمتى لديوانه »

قلت : قرأت مقدمتك قبل أن أحصل على الديوان . قرأتها فى « المطالعات » تحت
عنوان « الطبع والتقليد » وأعدت قراءتها فى الديوان . وإنى لأسف على ترك هذا
الشاعر النظم ، إبنى عاتب عليك لأنك لم تثنه عن عزمه وأنت صديقه الحميم . وأنت
منطيق جبار ذهن - كما قال سعد - تستطيع إقناع المازنى بالحجة التى لا تنقض وتستطيع
حملة على نظم الشعر حتى يضيف إلى العربية ثروة على ثرواتها .

فقال الكاتب الكبير :

« المسألة - هنا - مسأله مزاج . والمازنى بالرغم من تركه الشعر فهو ينظم أحيانا . »

قلت : نريد أن ينظم على الدوام . ويخرج لنا ديوانا فى كل عام . أو فى كل
ضعة أعوام .

فقال الكاتب الكبير :

« هذا مزاجه وما أظن تغييره بمستطاع » :

قلت : لى رأى فى شعر خليل مطران وهو أن له شعرا له معنى وفيه جمال ولكنه لا يؤثر فى النفس . ولعل هذا راجع إلى فقدان الصدق فى التعبير ، وكما أن فى الناس « خفيف روح وثقيله » كذلك فى الشعر ، وشعر مطران فيه ثقل وجمود ولا أنكر أنه من المجددين ، ولقد ذكرت فى كتابك « شعراء مصر وبيئاتهم » حينما سئلت عن مطران وأين مكانه بين من ذكرت من الشعراء ؟ إن مطران من المجددين . ولكن لا فضل له فى التجديد لأنه لا يستطيع أن يصنع غير ما صنع : فهو قد درس الفرنسية والثقافة الأوروبية ولم يتقيد بالقديم من الآداب العربية ولم تصده العقبات ولهذا كان من المجددين وذكرت أنه لم يؤثر فى الجيل الجديد الذى درس العربية وآدابها فى مصادرها ودرس الآداب الأوروبية فى لغاتها لأنه فقد مكان الوساطة بين الأمرين ولهذا تأثر مطران بالجيل الجديد كشوقى فما ترى ؟

فقال الكاتب الكبير :

« إن رأى فى مطران سجلته فى كتابى (شعراء مصر وبيئاتهم) وأزيد هنا أن لمطران معانى شعرية ولكنها فى قوالبثرية ، والشعر متى فقد قلبه فقد روعته وأثره »

قلت : إن من يهتمك بالتحامل على شوقى فى كتابك (الديوان) لا يستطيع أن يهتمك به الآن بعد أن أخرجت كتابك (شعراء مصر وبيئاتهم) ولقد صدقت وأصبت حينما قلت : (إن شوقياً بلغ القمة فى شعر الصنعة لأن مرانة أربعين سنة كفلت له ذلك)

فقال الكاتب الكبير :

ما أبديت رأى فى شاعر أو ناثر إلا بإخلاص وصدق وبعد درس فهو رأى الذى لا يتغير لأنه قائم على الصدق والنقد والدراسة ، وإن شوقياً قد انتفع بنقدى واتجه

إلى موضوعات الشعر الأخرى غير المديح ولكنه شاعر صنعة لا طبع أصيل على كل حال،

قلت : إن في نفوس الناس شيئا تركك سيدنا عثمان رضى الله عنه وتقديم من هم دونه من الصحابة كعمرو بن العاص وبلال رضى الله عنهما ، وقد قلت لك هذا بمصر قبل سنتين فأجبتني أنك كتبت عنه ولكن الظروف لا تتيح لك إخراج عبقرية عثمان لئلا يفهم بعض القراء السطحيين أعمال عثمان على وجه غير صواب وأعتقد أنه لا معنى لإرجاء طبع عبقرية عثمان فمتى تنجز وعدك ؟ !

فقال الكاتب الكبير :

« صحيح ، وإنى أعدك بأننى سأصدر عبقرية عثمان رضى الله عنه قريباً »

قلت : إن لك لرأياً محترماً فى العالم العربى ، وأرجو أن ينال أدبنا من تشجيعك ما يلفت إليه نظر أدباء الشرق العربى فهل تعدنى بالكتابة عنه ؟

فقال الكاتب الكبير :

« أما التشجيع الحق فلن أضن به ، وهو غير الإعلان الأمريكى وأنت تعلم أننى لست من كتاب الإعلانات ولهذا لا أستطيع أن أكتب عن الأدب الحجازى شيئاً إلا إذا قرأت — على الأقل — أربعين قصيدة وشيئاً كثيراً من نثر أدباء الحجاز ليسعنى سوق الدليل حتى يعلم القراء أننى لم أكتب إلا ما كان حقاً — كعادتى — ويعلموا أنى لم أخادعهم ، وقد طلب إلى من قابلنى من أدباء مكة هذا الطلب وأنت نفسك تفهمنى أكثر من غيرك ، فإن كنتم مصريين على رغبتكم فابعثوا إلى بآثاركم لأدرسها — أولاً — ثم أبدى رأى فيها بصراحة — ثانياً — »

ثم قال الكاتب الكبير :

« إن جلالة الملك ابن سعود رجل عظيم . رجل عبقرى ، هذا ما أوحته إلى

مطالعاتي الكثيرة ، وإن مارأينا من جلالته البارحة أوحى إلى بانه ملك عظيم ،
سمع النفس ، كريم . .

وهنا أقبلت السيارة التي ستقله إلى جدة استعداداً للرحيل بمعية الملك العربي العظيم
إلى مصر . فقمنا معه وودعناه آسفين على أننا لم نستطع أن نجلس إلى الكاتب
العبقري أكثر مما جلسنا .

ادب صالح للتصدير (*)

يسأل الأستاذ الأنصاري — صاحب مجلة المنهل — عن أدبنا وهل يصلح للتصدير وكيف يصلح؟ ويظهر لي من سؤاله أنه يراه غير صالح للتصدير، ولهذا فقد أردفت بالسؤال الثاني « وكيف يصلح؟ » بل زاد في رسالته إلى : « وإذا كان غير صالح فكيف يصلح؟ » فهو يرى عدم صلاحه .

والأستاذ متشائم في سؤاله ، وأظن أنه لم يرد أن يقيدنا برأيه وهو من نعرف حبا للحرية الفكرية ، وإلا لما استطلع الآراء ، وللأستاذ رأيه ، أما أنا فأرى أن لدينا أدبا صالحاً للتصدير إلى كل الممالك التي تتخذ العربية لسانا وقلبا ، فما نحن في قافلة الأدب بالمتخلفين عن أبناء العرب كلهم وإن كنا لا نأتي في الطليعة .

إن لدينا أدباً يصلح للتصدير ، وليس كل أدبنا صالحاً له . فعندنا من الشعر والنثر ما يسمو إلى الذروة المرموقة التي وصل إليها الكتاب والشعراء في البلدان الشقيقات ولا يعوزني الدليل على هذا .

فسوريا والعراق وكل بلد — غير مصر — متخلفة في ميدان النثر الفني ، وما أظن كل كتابها يتمتع بما يتمتع منه العقاد والمازني وهيكل وطه وقطب والزيات ، وإن كان فيهم من يتمتع متحهم ولكنه لا يصل إلى المنزع الذي يصلون إليه انقص في الثقافة أوفى معدن النفس الأصلية المطبوعة .

وأي في البلدان العربية كلها مثل هؤلاء .

أما الحجاز ففيه كتاب تدنو أساليبهم من أساليب كتاب مصر الأفذاذ الذين

أستطاعوا أن ينهضوا بالثر والشعر نهضة لم تشهد لها العربية في ماضيها في قرن واحد
لا في القرون كلها .

وليس غريباً على أدباء الحجاز أن يجودوا الشعر والثر وقد قرب العلم الأبعاد
فما يلتقي في مصر وغير مصر من محاضرات وخطب نسمعه ونحن في مكة وما يكتب
فيها يقرأ بعد ثلاثة أيام في مكة وهي المدة التي تصل فيها صحفنا إلى المدينة ، فكان
مصر والحجاز وطن واحد من الناحية الجغرافية ، ولا نغالي إذا قلنا إن المطابع والإذاعة
والمواصلات السريعة قضت على الحدود الإقليمية ومحت المسافات .

وأدباء الحجاز لا يتقنون اللغات الأجنبية فهي لا تزحم ثقافتهم العربية . وهم
مضطرون إلى القراءة والدراسة ولا متنفس لهم غير الأدب المصري على الأخص والأدب
العربي على العموم يلتهمونهما التهاماً ، وأصبحوا يعرفون عن أدباء مصر أكثر مما يعرف
المصريون أنفسهم عنهم . لأن هؤلاء تتوزع أوقاتهم ثقافات الأمم الأخرى ، أما
الحجازيون فلا .

وليس أدباء الحجاز طلاب تسلية يريدون تزجية الفراغ وإنما هم عشاق فن يريدون
أن يفهموا الحياة ويكشفوا عن ضلالاتها ويغوصوا في أعماقها ويسبروا أغوارها ويشهدوا
مواكبها ويروا ما فيها من صور ومشاهد وآلام وأحلام .

وهم أحرار فكر يمتازون بالسباحة والطبية ورجاحة العقل وسلامة النية ونبل
الضمير فلا يندفعون مع المغرضين وإنما يقفون كالحكم العدل لا يضلهم عن الحق شيء ،
ويتقبلون نتاج الفكر قبولاً حسناً ويحتفلون به أيما احتفال .

ولعل الفراغ الذي لديهم أتاح لهم الدراسة والتحصيل والتعمق في قراءة كل ما تقدفه
المطابع العربية من غث وسمين . حتى قضوا عديداً من السنوات وهم يركضون في
الطريق قراءاً حتى أطاعهم القلم فكتبوا وكتبوا ثم أجادوا فيما يكتبون وينظمون

وما أظن أحداً ينكر استعدادهم للأدب الصحيح ، وادمانهم قراءة الأدب
قديمه وحديثه وذلك - ولاشك عندي - شقق لهم طرق الكلام والتعبير وحسن
أسلوبهم، ومنحهم الفرصة السعيدة ليدخروا ما يكون لهم عوناً وزاداً وقد أمسكوا
بالقلم يفصحون عما في أنفسهم .

بل وما أظن أحداً ينكر تأثير الأدب الجديد فيهم وتأثرهم به .

نصل من كل هذا إلى أن معدن أدباء الحجاز المطبوعين نفيس وإنهم تلقوا الأدب
الجيد عن رجاله الأفاضل ، فهم - بعد هذا - أدباء بحق تلقوا كثيراً من المعارف الإنسانية
ياحساس مفهوم وفكر صاف ، ودرسوا نتائج القرائح درس الناقد النزيه الذي
يطبسيه الحق وحده .

وإذا قلت أدباء الحجاز فإنما أقصد أفراداً لا يتجاوزون العشرة ، أما غيرهم فإما
ن يكونوا ناشئين أو شداة أو أدياء ، وهم كثير ليسوا من الأدب الجيد في شيء .

وفي أدب هؤلاء العشرة ما يصلح للتصدير فللسرحان والعمودي والفقى والقنديل
شعر يستطيع أن ينهض على رجلين قويتين كما يقف شعر بعض الشعراء البارزين في
العالم العربي ، بل أستطيع أن أقول : أن عندنا شعراء إذا ووزن شعرهم بكثير من الشعر
العربي الحديث لرجح به ، ولو كان الميدان رحباً لأقت الدليل على ذلك بالنماذج التي
تحت يدي . غير أن هذه مجلة لا تتسع صفحاتها للمعدودات لاكثر
مما اتسعت الآن .

أما النثر الفني فقد أجاده أدباء الحجاز إجادة طيبة ، وإن كانت أرواح العقاد
والمازني وطه وهيك تطل من كتاباتهم ، ولعل ذلك من الإدمان الطويل لقراءتهم ومن
الآلفة التي مضى عليها أكثر من عشر سنين لهؤلاء الأدباء العباقرة ، إلا أن أدباءنا
لم يفسوا فيهم بل لأساليبهم خصائص وسمات تدل على شخصياتهم .

ولهؤلاء المجيدين أدب يصلح للتصدير إلى « الخارج » وأعتقد أنه سيجد هناك إقبالا وحفاوة .

وإني لا أقول - هذا القول - ارتجالا ، فلقد درست أدب العراق وأدب الشام وأدب مصر دراسة تمحيص ونقد و موازنة فخرجت منها بأن لدينا نثراً جيداً أرقى من نثر العراق ومن نثر كثير من كتاب الشام ومصر .

كنت قبل أيام أقرأ إحدى سنوات المـكشوف الصادرة ببيروت فلم أجد فيها على كثرة كتابها - أدبياً واحداً يسمو سمو طه أو العقاد أو المازني أو الحكيم أو الزيات بل لم أجد كاتباً واحداً مطبوعاً ، وهذا إذا استثنينا ميخائيل نعيمة و خليل هندأوى وشاعرين أو ثلاثة .

أما عندنا فإن أدب المقالات ممتاز جيد ، وأدب القصة قد تطور تطوراً سريعاً مشهوداً في سنوات الحرب ، وقد اطلعت على قصص استطاع بعض كتابها أن يوجد الجو الفني الملائم لها في أسلوب طبيعي بعيد عن الصنعة والتكلف ، ووفق إلى أن يجعل أسلوبه في حياته وقوته وحركته مساوفاً لحياة الحادثة أو الشخصية وقوتها وحركتها .

وأما كتابة التراجم وتحليل الشخصيات ونقدتها فقد استطاعت أن تسير في طريق النجاح بخطى واسعة فيها كتب قيمة كالفيض آبادي للأنصاري ورجالات الحجاز للفلالى .

أما النقد الأدبي فهو موجود ولكنه خليط بالمهاترة ، ولو تجرد منها ومن الهوى لقدم نقادنا للعربية زاد أفكارها سما خالياً من الأدران .

ولدينا في فنون الأدب - شعر أو نثراً - ما يصلح للتصدير ، ولكنه مخطوط موءود ينتظر البعث والنشور ، أما ما نشر فلا يصح أن يصدر شيء منه لأنه خاب هزيل ، وليس - هو - إلا محاولات بدائية في فن الانشاء أو « تمارين » عليه .

أما المؤلفات العلمية أو التاريخية المطبوعة فبعضها صالح للتصدير وأكثرها لا يستطيع أن يتجاوز ثغر جدة ، أما المخطوط منها فأكثره صالح للتصدير .

بعد كل هذا نستطيع أن نؤكد أن لدينا أدبا صالحا للتصدير إلا أن الطريق غير ممدد وغير أمين حتى تسير قوافلنا إلى الخارج موقرة ببضاعتنا ليراها أهي مزجاة أم جيدة؟

وما ينقص أدبنا غير الدعاية ، فهي وحدها التي أخفت صوت أدبنا الحى ، ولو رزق الدعاية الطيبة والإعلان الحق لبرز إلى الوجود واحتل مكانه بين آداب الأمم العربية ، ولا متتح إعجاب القراء فى كل مكان .

ولو رزق أدباؤنا ناشرين كالحلبى ومصطفى محمد ومكتبة المعارف لعرفهم أبناء العربية فى كل بلاد ، ولو رزقوا التشجيع من زعماء الأدب الجديد لنافسوا خيرهم المكانة والصدارة .

وللتبعة — هنا — شقان : شق على « الخارج » الذى أهمل مهبط الوحى وأنسى ذكره ، وشق على أدباء الحجاز أنفسهم الذين آثروا الخمول والكسل والبقاء حيث هم لا يبعثون بتأجيلهم الأدبى إلى عالم النور .

ولكنى متفائل بالمستقبل حيث يتاح لنا أن نتاجر أدبيا مع الأمم العربية فنأخذ منهم ونعطهم وما أظن ذلك اليوم ببعيد .

(*)

مع عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

بيت جميل يدل أثاثه على ذوق فني سليم . تحيط به حديقة جميلة في حي الزمالك .
هذا هو منزل عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بك .

ذهبت إليه — على سابق وعد بيننا — فاستهواني بنبرات صوته ، وسعة علمه ،
وغزارة مادته . ومن ذا الذي لا يستهويه حديث الدكتور الشهى المستطاب ؟ حتى
أنني مكثت عنده ساعة ورابع ساعة وأنا أظنهما دقائق معدودة ، ووددت أن أطيل
الجلوس عنده والحديث معه ، ولكن لعلني أنه كثير الأشغال دائم العمل ودعته
وخرجت بعد أن فزت منه بهذا الحديث الذي أنشره للقراء في الحجاز ليستمتعوا
بأدبه الرفيع .

ألقيت عليه هذه الأسئلة وهو يجيبني عليها جواباً هادئاً ، ويمليها علي وأنا أكتبها
وها أنذا أنشر الأسئلة بعد الاستئذان كما ألقيتها على الدكتور مع أجوبته كما أملاها علي .

س : كتبت مرة في الهلال عن (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) فأجدت
ووفقت ، مما يدل على اتصالك بالأدب الحجازي اتصالاً متيناً ، وحمدنا لك هذه اليد
البيضاء التي أسديتها إلى الأدب الحجازي بإعلانك عنه . وأريت الناس أن في الحجاز
شيئاً يقال له أدب ، فما رأيك الآن في الأدب الحجازي الحاضر وهل تتنبأ بنهضته

العاجلة المباركة ٤٤٠ ؟

ج : المقال الذى قرأته فى الهلال كنت نشرته فى مجلة أمريكية تصدر بشيكاغو باللغة الإنكليزية وترجمته الهلال .

وأما رأي فى الأدب الحجازى فلسوء الحظ لست مطلعاً عليه اطلاعاً كافياً فأحكم عليه ، ومع هذا فإنى واثق كل الثقة بأن مستقبل الحجاز فى الأدب سيكون باهراً ولن يتأخر ظهور هذا الروح الأدبى الذى انتج فى الحجاز خير ما فى الشعر العربى القديم وأرقه وأرقاه وأنبله . هذا الروح لا يمكن أن يكون قد مات . ولكنه استخفى وسيعود كأجمل وأقوى ما يمكن أن يكون .

ومع أنى لست من أنصار مذهب الرجعة بالقياس إلى الأفراد فإنى مؤمن بمذهب الرجعة الأدبية بالقياس إلى الأمم . وأنا مطمئن كل الاطمئنان أن الروح الحجازى العذب ، الذى نجمه فى شعر جميل وكثير والعرجى سيعود إلينا قريباً وسيبعث فى نفوسنا هذا الحنان الطاهر البرىء الخصب الذى هو متاع النفس الإنسانية المشقة دائماً .

ولا تظن أنى أقول هذا مجاملة لك أو لإخواننا الحجازيين ، بل أنا أقوله عن يقين وواثق بما أقول ، فيمكن أن يتصل الحجاز اتصالاً قوياً بالعالم الخارجى لتعود فيه هذه الجذوة المقدسة إلى الاضطرام كما كان الأمر فى القرن الأول الهجرى .

س : إن كثيراً من شباب الحجاز يريد أن ينضم إلى الجامعة (١) ، فلماذا لا تسهل له الطرق ، وتفتح قسماً خاصاً للغرباء ، وتجعل نيل إجازة الدكتوراه فى الأدب باللغة

(١) كان الدكتور طه حسين حين أخذه هذا الحديث منه عميداً الكلية الآداب بالجامعة

العربية فبذلك تؤدي للعربية خدمات جليلة فوق هذه الخدمات الكثيرة التي أدتها ، ولا تزال تؤديها إلى الآن .

ج : هذا شيء أفكر فيه تفكيراً قوياً جداً . وأرجو أن أوفق إليه . وأنا أجتهد في أن أضع النظام الذي يتضمن لهم سهولة الدرس وتحصيل الدرجات الجامعية والاتصال بالأدب الأجنبي وأحب شيء إلينا جميعاً أن يكثر بيننا الحجازيون ولكنني أكره سهولة للمصريين فأنا أكرهها للحجازيين أيضاً ، وأتمنى أن ترفق الحكومة السعودية إلى إنشاء مدارس ثانوية على الطراز المصري (١) بحيث يخرج منها الشباب مساوياً في الثقافة للشباب المصري ، وإلى أن تتاح الظروف التي تمكنكم من إنشاء هذه المدارس أعتقد أنكم تستطيعون أن ترسلوا بعض أبناء الحجاز ليتعلموا في مدارسنا ، وثقوا بأن حكومتنا سترحب بهؤلاء الحجازيين وتعاملهم كما تعامل المصريون أنفسهم .

س : ما رأيكم في المملكة العربية السعودية ؟

ج : هذه سياسة . . !

لا أستطيع أن أقول في هذا شيئاً ذا قيمة لأنني لا أحسن العلم بشؤون المملكة السعودية ، ولكن ما أعرفه عن أبنائها يملأ نفسي إعجاباً بهذا النشاط الذي إن صور شيئاً فإنما يصور هذه الرجولة العربية الحققة التي كان الشرق الإسلامي محتاجاً إليها وكان يتلسمها في كتب الأدب القديم . فهو يستطيع الآن أن يراها نشيطة عاملة .

وأنا كغيري من المصريين أحبها أشد الحب ، وأقدسها أجل التقديس ، وأتمنى لها أصدق الأمان .

(١) لقد حقق الله أمنية الدكتور طه هذه . فقد فتحت مدارس ثانوية تعد الحجازيين للجامعات في مصر وإنكلترا وأمريكا . والدكتور فضل في ذلك فقد ساعد المعارف السعودية مساعدة عظيمة فله الشكر والثناء .

س : إن شباب الحجاز يحمل لك من الإعجاب مالا يوصف ، ويتمنى أن ترحل إلى بلاده المقدسة فهل تحقق له أمنيته ؟

ج : أرجو ذلك وأتمناه مخلصا وكنت قد فكرت في تحقيقه هذا العام ، ولكن الظروف حالت دون ذلك ، فلعلها تسمح به في العام المقبل إن شاء الله ، وإذا أتيحت لي الحج فأرجو ألا أحج وحدي بل يرافقني عدد من زملائي في الكلية فنكون حجاجا وزائرين للبحث العلمي .



في الأناشيد

لنا بحث في الأناشيد ونشوءها من أقدم الأزمنة حتى العصر الحديث ، تكلمنا فيه عن اتصال الأناشيد بالغناء ونبعها من مصدر واحد ، ثم عرضنا فيه للحديث عن الاقتراح الذي كان منشوراً بجريدة صوت الحجاز وقيمه من الناحية الثقافية والنفسية والاجتماعية ، ثم نقدنا نشيد زميلنا الشاعر حسين عرب نقداً فنياً ، ووازننا بينه وبين بعض الأناشيد الأخرى التي تختص بالجنسية ولكن بعض الأسباب يمنعنا من نشره - الآن - ولعله يزول فننشر ذلك البحث فلندعه لوقته ولننتقل إلى نقطة تجرنا إليها المناسبة الجديدة أوجدها لنا صديقنا الشاعر الأستاذ حسين سرحان ، فهذا أخرى بالتقديم ، وذلك أقمن بالبقاء في زاويته حتى يحسبه البعث المحتوم .

نشر الصديق سرحان في العدد الماضي من هذه الجريدة كلمة حول الأناشيد رجا فيها نشرها جميعاً ، ليشارك الأدباء والشعراء اللجنة في الحكم والمذهب والاختيار ؛ ويوازنوا بين نشيد حسين عرب الفائز المختار ، والأناشيد الأخرى « التي رسبت في الاختبار » ونحن نحمد للسرحان على تصريحه بهذا الرجا أو هذا الطلب الذي صرح لنا به الأستاذ حسين نظيف حينما أذيع نبأ النشيد الناجح فلم يكتبه ، كما صرح لنا به عديد من الأدباء والمفكرين .

ولعل اللجنة المحترمة لا ترضى على الأدباء والشعراء والنقاد بنشر الأناشيد كلها ليتناولوها بحثاً ونقداً وتمحيصاً ، ففي ذلك إضافة ثروة جديدة إلى الأدب ، ومتعة للنفس ، ولذة للكاتبين .

هذا ما أصاب فيه الأستاذ السرحان .

وأما الغريب في الأمر فاعترافه أو إقراره — على حد تعبيره — بعبقريته حسين

عرب الشعرية وفنه الممتاز ، وامتداحه توثبه وتحليقه حتى ليعده في الطليعة من الشبان المثقفين ، ثم نقضه لإقراره إذ ينسب فوز نشيد عرب إلى حظه الكيماوى العجيب — على حد تعبيره أيضاً — لا العبقرية والفن .

وليس من العدل أن يزعم الصديق سرحان أن فوز نشيد العرب يرجع إلى الحظ فإن في ذلك إسدال الستار على الحقيقة المتكشفة التي لا تطيق التوارى ، وتعطيل العبقرية الشاعر وفنه الممتاز ، وسلب التمييز من أعضاء اللجنة المحترمين .

أنا واثق جداً أن الحظ لم يعقد الفوز لنشيد عرب ، وإنما عقد له الفوز توفر ما يتطلبه نشيد الجندي من عناصر قوية حية كال دعوة إلى الحياة الفاضلة تحت ظلال السيادة والقوة والعظمة والخلود والعدل وكنداء الأمة إلى الوحدة واجتماع الكلمة والتضحية . واستحضات هممها بما كان لها من ماض مشرق لا تزال الأجيال تهتدى به ومن حاضر مجيد تطمئن إليه النفس وتعمل من أجله ، ومن مستقبل زاهر يتفاعل به .

ولسنا نشك أن نشيد عرب توفرت فيه العناصر الآتية : —

١ — تحية الملك والعلم .

٢ — الدعوة إلى الوحدة .

٣ — الدعوة إلى نصر الدين ، وحماية الوطن ، وطاعة الملك .

٤ — إعزاز الجندي — حامى الوطن — بنفسه وكرامته وإبائه وتضحيته بنفسه في سبيل الأمة والملك والدين والوطن ، والتغنى ببطولته وقدرته .

٥ — شمول النشيد حالة الجندي في ميادينها الثلاثة : برأ وبحراً وجواً .

ولعل اللجنة المحترمة جعلت أمامها هذه العناصر فحكمت لنشيد عرب بالتفوق

واختارته لشمواله إياها .

اذن ، فالمسألة ليست مسألة حظ - كما يرى الصديق السرحان - فهو يعلم - جيداً - أن اللجنة لم تفحص الأناشيد « بالقرعة » أو على طريقة أبي معشر الفلكي ، وإنما اختارت ما اختارته بعد الدرس والفحص .

إذا كانت المسألة حظاً فقد بطل عمل اللجنة ، وأعضاؤها من النزاهة ورجاحة العقل ونبيل الضمير بمكان كبير .

إذا كانت المسألة حظاً فكيف يقر صديقنا السرحان بعبقريه حسين عرب وفنه الممتاز ، ولماذا يحمل فوز نشيده على الحظ ولا يحمله على العبقريه التي أثبتتها السرحان نفسه .

وننتف في سمع صديقنا السرحان للذكرى أن اللجنة أرادت أن تبرهن على نزاهتها بالرغم من شهرة أعضائها بها لئلا تدع مجالاً لأي امرئ فعمدت إلى طبع الأناشيد وتذيلها بأرقام قبل أن تعلم بأصحابها ثم تناولتها واحداً واحداً بالدرس .

ثم ماذا .. ؟

ثم أصدرت الحكم للنشيد رقم ٨

فن هو صاحب هذا النشيد ؟

قيل . إنه حسين عرب .

ولعل ما دعا الأستاذ السرحان إلى أن ينسب فوز هذا النشيد إلى الحظ - فقط - هو « السحب » ، سحب النمرة الفائزة ! .

ولصديقنا حسين عرب أن يصمت إزاء كلمة زميله السرحان ، ومادام السرحان يرى أن الشعر فن وذوق فنحن نسير معه على منطقته وترد عليه بحجته . فذوقه يرى أن في الأناشيد

ما هو أجدر بالتقديم من نشيد عرب إذ توفر في غير نشيد هذا قوة الأداء وجمال العرض ونصاعة الديباجة وحفول المعاني ونحن نقول إن أعضاء اللجنة ليسوا محرومين من الذوق الفني ، وهم قد أجمعوا على الحكم لنشيد العرب بعد البحث والغلبة بالطبع ! فهو فرد ، وهؤلاء أفراد ، وذلك ذوق فرد ، وهنا خلاصة أذواق خمسة رجال فيهم الشاعر وال كاتب والناقد والأديب علاوة على ما فيهم من بعد النظر ودقة الملاحظة وصحة التقدير .

فيذا راعينا وحدة القياس والدليل وجدنا أن نشيد عرب لم يفز « بالحظ السكيماوى المصيب » وإنما فاز بما اشتمل عليه من العناصر التي سردناها ، وكان الحكم للنشيد الفائق نتيجة درس وذوق فنيين من أعضاء اللجنة ، بالشهادة من اللجنة .

وإني أقدم إلى اللجنة المحترمة وفي أعضائها الخمسة من أعرف ومن لا أعرفه إلا باسمه المدوى وصوته النائي تحيتي على نبأها ونزاهتها وعدلها ، ولأحد الحسينين — وبالطبع الفائز — التهئة ، وللآخر العزاء آملاً أن يفوز نشيده في فروع الجندية الأخرى إن شاء الله ؟

لصوص الأدب ومجانين الشهرة

إن مدعى الأدب وسماسته كثير عددهم لدينا ، وليس لهم من الملكة الفنية في الكتابة ما يسعهم أن يعبروا عن خواطرهم وعمما في نفوسهم ، وليس لهم من العلم والأدب ما يشفع لهم أن يكتبوا ، وليس في مكشورات ضمايرهم ما يستحق أن يرسل إلى الأذهان والقلوب ، ولكنهم بالرغم من كل هذا فإنهم يحبون أن يكتبوا ويكونوا أدباء على رغم الفن والحق !

وأني لهؤلاء السماسرة ومجانين الشهرة أن يكونوا أدباء بحق وهم جهلاء لا يفهمون من الأدب إلا أنه رصف وكلام فيأتون عابثين غير شاعرين بقصورهم الفكري وفسولة رأيهم السقيم ، وقد يشعرون ولكنهم يحملون أنفسهم مالا طاقة لهم به ، ويزين لهم الغرور سوء أعمالهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعا .

أني لهؤلاء السماسرة الخادعين السارقين أن يشعروا بسمو الروح الفنية والأدبية وعظمة الفكر الإنساني وهم — كما قلنا — جاهلون لا يفهمون الأدب ولا يعنون الفن .

هؤلاء السارقون لأفكار غيرهم يغالطون أنفسهم ويستغفلون القراء حينما يزجون إليهم ما سرقوا من مقالات أدباء مصر وغيرهم ، وينشرون ذلك في صحفنا في جرأة وقحة وتبجح ظنا منهم أن القراء جميعا لم يطلعوا على ما اطلعوا . فيستغلون - بجهلهم - هذه الجرائد طلبا للشهرة والبروز ، غير أنهم لن يجدوا السبيل إلى آمالهم المخطومة ، وما أشد شبههم بحجر يلقى في اليم فيحدث فيه دوائر لا تعدم أن تضمحل وتفتى .

هؤلاء يلقون بنتائجهم المسروقة في نهور الجريدة ليلا تهمهم العدم وتجرفه الأيام ، أما الأدباء

الممتازون فإنهم يسطرون فيها آراء لا تمحى ويثبتون بها أفكارا تدوم على الأيام .

* * *

كتبنا هذه الكلمة بمناسبة الموضوع الذى نشر بجريدة صوت الحجاز بعدد ٢١٧ تحت عنوان : « فقدان النقد النزيه ، من أدبنا المزدهر » لعبد المجيد شبكشى ، وهو موضوع لا بأس به ، وقد طالعت فى شيئاً من الغبطة لأنه لشاب ناشئ قطع السبيل الى الأدب وثبا وهو لا يعرف منه شيء ، واستطاع أن يحوز الشهرة بمقالاته التى نشرها هنا وفى بعض صحف مصر ، وقد أرابنى فيه هذا النبوغ ، وما كدت أقرأ له هذا المقال إلا والشكوك تستبد بى شر استبداد ، ويومى إلى قلبي أن عبد المجيد ليس إلا سارقاً غيبياً يسطو على كبار الكتاب وصغارهم على السواء وعلى ما قدم العهد وجد ، وعلى الكتب وعلى الصحف ، ويدكرنى عقلى الباطن أن كلمة شبكية يقال الشبكشى قرأته منذ شهور ، وأخذت أفكر فى الأمر ملياً ، وأتيت بالمجلات التى ظننت أن بإحداها المقال الذى سرق الشبكشى منه وانتحلته ووضعتها على المنضدة .

وكان الهواء العليل الذى يتنفس عنه الصبح يداعب صفحات المجلات ويقلبها ، فاستلقت نظرى عنوان كبير بإحداها وهو « فى الحياة » وتحت عنوان صغير هو « مشكلة النقد والنقاد » فتمتد يدي إليها وإذا بى أعثر على المقال المنشود وبدأت أتلو المقال فإذا هو ومقال الشبكشى متحدان ولا فرق بينهما ألبتة ، بل مقال الشبكشى نسخة ثانية لذلك المقال ، والنقل حرفى - لا كلمات وجمل - اللهم إلا بعض زيادات تافهة لا تعدو الكلمة أو الكلمتين ، وكلها حشو مردول أراد به الكاتب التعمية والتضليل .

يا للحمق والرعونة !!

يا لمهزلة الصبيان !

إنهم يريدون أن يكونوا أدباء . !! فيعمدون إلى النقل ، ويركنون للانتحال ويتشدقون بألفاظ يلتقطونها من الصحف ليحوزوا الرضا والقبول ، وينالوا إعجاب القراء ، وهم لا يدرون أن عملهم هذا إساءة إلى مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، وتحقير للروح الحجازية وتشويه لسمعة الأدب الحجازي الذي بدأ يظهر ظهورا حقيقيا .

لذا فنحن نسدى إليهم النصيحة لوجهها ألا يكتبوا ونرجو أن يحطموا أقلامهم الضعيفة الفاسدة لا يسطرون بها في الصحف شيئا ، إذ في تسطيرهم عليها وإثباتهم فيها آراءهم (المنتحلة) صك نبرزه حين الاحتياج إذا قام هؤلاء الرعاع وذووا السرقات الأدبية بدعوى عريضة لأدبهم البغيض الممقوت المسروق . !!

وليسمح لي الأدباء أن أثبت لهم جملاً وردت في المقال المنشور بمجلة (الصباح) محررها الاستاذ مصطفى القشاشي تحت عنوان « مشكلة النقد والنقاد » بالعدد ٤٧٩ الصادر في رمضان سنة ٣٥٤ وأقارنها بالجل التي في مقال عبد المجيد ، والحكم للقراء .

قال صاحب الصباح : (الأدب المصري على الرغم من حادثته يعانى مشكلة عويصة . . . هي مشكلة النقد ، فما من كتاب يظهر إلا ويتصدى له أما صديق للمؤلف يحاييه ويقارضه الشناء بحيث يسرف في مدحه ويتصيد له الشهرة الزائفة من حيث لا يدري . وإما متحامل مغرض يود الإسفاف بشخصية المؤلف والغرض من شأن العمل الأدبي الذي بين يديه غير عابئ بالنزاهة الفكرية التي هي أولى خصائص الناقد الشريف » .

ويقول أديبنا المنتحل الشيكشي : (فالأدب الحجازي على الرغم من حادثته .. (١)

(١) يلاحظ القارىء الكريم أن المحلات المنقوطة هي مواضع الحشو المزدول في

مقال الشيكشي .

يعانى مشكلة عويصة هي مشكلة النقد والنقاد ... فما من مقال يظهر
إلا ويتصدى له إما صديق للكاتب يحاييه ويقارضه الثناء ويسرف في مدحه
ويتصيد له الشهرة الواسعة من حيث لا يدري وإما متحامل مغرض
يود الاسفاف بشخصية الكاتب ... والغرض من شأن العمل الأدبي غير
عابء بالنزاهة الفكرية التي هي أولى خصائص الناقد الشريف .

وجاء في مقال صاحب المجلة : « ونحن نريد من الناقد أن يكون رجلا عميق الثقافة
جبار الذهن يسهر على حرية الفكر بحيث يتجرد من ميوله وأهوائه وأن يكون نقده
ثمرة طبيعية لاتجاه التفكير » .

« وإلا كيف يتحكم ناقد في ذوق الجمهور فيتعرض لمؤلف يسلبه خصائصه ومميزاته
ويفسر موضوع كتابه في ضوء ثقافته الضئيلة غير مكترث بتكليف العمل الأدبي
نفسه » .

والشيكشي يقول : « ... إننا نريد منه (أى الناقد) أن يكون ... عميق الثقافة ...
... جبار الذهن يحرص على حرية الفكر بحيث يتجرد من ميوله وأهوائه
... وأن يكون نقده ثمرة لاتجاه التفكير » .

« فمفسر عليه جدا أن يتحكم في ذوق الجمهور فيتعرض للكاتب
بغية سلبه خصائصه ومميزاته ويفسر موضوع ما كتب على ضوء
ثقافته غير مكترث بتكليف العمل الأدبي الجليل نفسه » .

ولصاحب الصباح « الواقع أن معظم ما نطالعه في هذه الأيام على صفحات المجلات
والصحف اليومية لا يخرج في مجموعه عما شرحناه . فضلا عن أن البعض ممن يتصدون
للنقد يعمدون إلى طرق تجارية عقيمة للرفع من شأن أصدقائهم كالترويج لمؤلفاتهم

بإقامة حفلات تكريمية يتصيدون لها الخطباء المأجورين أو إلقاء محاضرات عن كتبهم مما أصبح يمجّه الذوق السليم بحيث ضاعت القيم الصحيحة والمقاييس النقدية النزيهة في غمرات هذا اليم المصطنع .

وللشبكة : « الواقع أن معظم ما طالعناه في الأيام السالفة على صفحات جريدتنا الفريدة لا يخرج في مجموعه عما شرحناه آنفا فضلا عن أن البعض ممن يتصدون للنقد عندنا يعمدون إلى طرق خصوصية بغیضة للحط من شأن أعدائهم مما أصبح يمجّه الذوق السليم بحيث ضاعت الفائدة المتوخاة من النقد ومقاييسه النزيهة في غمرات هذا اليم المصطنع . »

حسبنا هذه الجمل الثلاث . وكان يكفينا هدماً للشبكة جملة واحدة ! والأكثر من ذلك استغفاله محرري الصحف الخارجية ، ولا ترضيه هذه الشهرة العرجاء التي نالها بالمقالات المنشورة له بجريدتنا والتي سرقها من كبريات الصحف وأهمات الجرائد . فيذهب ناشر مقالا مسروقا من مقالات موسوليني وكلماته في مجلة الرابطة العربية تحت عنوان (يا بلادي) يبكي فيه مجد بلاده — والحجاز طبعاً ! — كما يبكي زعيم إيطاليا حين نشوب الحرب الإيطالية الحبشية مجد روما الخالد ليلهب حماسة الشباب الفاشستي ، وله موضوع آخر عنوانه « الفروق الطبيعية بين المرأة والرجل » مسروق من الهلال الخاص بالمرأة والحب من مقال الأستاذ الكبير أحمد أمين نشره في الأهرام ثم بعد مدة غير عنوانه بآخر ، ونشره في مجلة (الشباب) لمحمود عزمي ، وقد أرسله من قبل لنشره في كتاب (أدب الناشئة) للأديب عبد السلام الساسي وأرسله إلى « صوت الحجاز » ولكنها أهملت نشره وقد بعثه أيضا إلى إحدى المجموعات المدرسية وهذا دليل على الإفلاس الأدبي وفقدان النزاهة الأدبية والأمانة الكتابية وخمود الذهن وضعف المادة الفكرية .

وبعد ، فإننا لبالمرصاد لكل من تحدّثه نفسه بالنقل والمسوخ والتشويه وسوف
نشدد — كما اشتدنا في نقدنا هذا — ونجعل لهجتنا في الكتابة النقدية شديدة مؤثرة
ونضرب — بقوة — بمحول نقدنا كل سارق حتى نقوض بنيان فكره ونهدم
مادته الأدبية الملهمة فنجعلها رسما يندب ، أو طلالا يبيكي ، أو بلقعا تعوى فيه الذئاب
وتم نكون معذورين .

أحلام الربيع

في الحجاز شعراء ممتازون ولكنهم غير معروفين في العالم العربي لأنهم لم يأخذوا نصيبهم من الشهرة والبروز ، ولم تخدم الدعاية إنتاجهم ، ولعل إصدار الأستاذ الشاعر طاهر زحشرى ديوانه « أحلام الربيع » أول دعاية لها قيمتها للشعر الحجازى الجديد في عهده الزاهر .

وإذا قدر لهذا الشعر أن يظهر فسيرى القراء شعراً رفيعاً يضارع أجود ما ينظمه شعراء مصر وسوريا ، ويمتاز بالركة والجمال والصدق في الاستساس وفي التعبير .

وإذا كان شعر عمر بن ربيعة والعرجى وجميل يعجب القارىء العربى فإن شعر الزحشرى وزملائه من شعراء الحجاز المعاصرين سيعجبه من غير شك ، لأن الجو الذى مهد لأولئك الماضين سبيل الشعر موجود يمدده للحاضرين أيضاً .

وأظن أن تواضع الحجازيين وعزوف شعرائهم عن الشهرة وتنقبتهم بالحياة من أسباب خفوت أصواتهم في البلاد العربية كمصر والشام والعراق ، ولو تلبسوا أسباب الشهرة عن طريق الدعاية والتكسب بالأدب لكان لهم صوت مسموع في كل بلد ينطق أهله الضاد .

ويرى القراء اليوم في أحلام الربيع شاعراً حجازياً نشأ في أحضان المدن ورضع ثدى البادية ووقف مواقف عمر بن أبى ربيعة أو المواقف التى يقفها — راضياً أو كارهاً — كل شاعر حجازى مطبوع ، وسيجل بعض هاتيك المواقف بقدر ما أتاحه له زمنه .

هذا الشاعر الحجازى هو الأستاذ النابغة طاهر زحشرى الذى فتح أمام إخوانه — شعراء الحجاز — باباً كان من قبل موصداً ، فهو الرائد الأول دون منازع فى هذا

غير ملتفت إلى خسارة المادة مادام يستطيع تحقيق السمعة الطيبة في عالم الأدب والفنون لبلاده التي نهضت على يد الصقر الغلاب ابن سعود .

في الحجاز بضعة شعراء - فيهم الزمخشري - يمتازون بالفحولة والقوة والشاعرية المطبوعة ، وفيه من النماطين عدد كبير كل هجيراه أن يعرف العروض فيطبقه وينظم قصائد لا تستحق إلا صفع ناظمها . وهناك قسم مقلد محتذى خطى الأقدمين أو المعاصرين : وفي بعض هؤلاء المقلدين من كان ذا شاعرية فقدوها وأماها بتقليده .

وأذكر على سبيل المثال بعض شعراء الطبقة الأولى وهم : حسن فقي ، وحسين سرحان ، وأحمد قنديل ، والزمخشري ، وحسين عرب ، أما الطبقة الثانية فلا داعي لذكرها ، كما أن هناك نظامين ولا مكان لهم بحال من الأحوال في سجل الأدب الجديد .

إن « أحلام الربيع » كما قلت أول ديوان شعر حجازي يطبع في عصرنا الحاضر ، ولهذا أنتظر له رواجاً أدبياً يتيح لهذا البلد الذي نشأ فيه شعر الغزل واستقام على سوقه يعجب الشعراء أن يأخذ مكانه في تاريخ الأدب الجديد كما أخذ مكانه في التاريخ القديم ، وقد رأيت احتفاء زعماء الأدب في مصر بالشعر الحجازي الجديد . مثلاً في « أحلام الربيع » وتقديرهم إياه ما طمأنني على أنه « شعر رفيع » ومكان الزمخشري في الطليعة ولا شك ، وهو - بعد - أحد بناءة الأدب الحديث في الحجاز .

ويزيد إعجابنا بالشاعر الزمخشري متى علمنا أن عمره الأدبي لا يبلغ بضعة سنين . وبضع سنين لا تكفل تقويم العبارة ، ولكنها أتاح للشاعرنا أن ينظم نظماً رائعاً جميلاً ، وأعتقد أن مرور الأيام سينمي ملكة الشاعرية في هذا الشاعر المطبوع الذي يثب درجات السلم وثباتاً ، فهو في بضع السنوات الماضية استطاع أن يكون في الرعيل الأول من شعراء الحجاز .

ولعل القارئ يدرك بمطالعة هذا الديوان أن شاعرنا من أبناء المدرسة الجديدة في الشعر المخلصين لفهم إخلاصاً كبيراً ، ولكنه يعني باللفظ وتمييق العبارة وتحلية الأسلوب بالجلي التي لا تنقله .

وأمل أن ينال ديوانه هذا من مضاعفة التقدير والتشجيع ما يتبع للشعر الحجازي الجديد أن يبرز ويأخذ مكانه بين دواوين العرب الشعرية ويستعيد ماضيه المجيد .

« أحلام الربيع » الباكورة الأولى من الشعر الحجازي الجديد، وعهدى بالبواكير تستقبل في حفاوة ولطف وتقدير ، فليستقبل ديوان أحلام الربيع بمثل ما تستقبل به البواكير (١) .

فهرس

الموضوع	ص	الموضوع	ص
عبقرية المتنبي	١٢٠	الإهداء	٦
شخصية المتنبي	١٢٩	المقدمة	٧
أنتم الشعراء	١٤٥	الحضارة الحديثة	٩
الأسلوب والفكرة	١٥٠	السلام	٢٦
كيف نحتفظ بعروبتنا	١٥٣	مدرسة النجاح	٣١
رجال الحجاز	١٦٣	طلاق الكتب	٣٦
رحلة الربيع	١٦٦	شعر وشعر	٣٩
الأستاذ السرحان	١٦٩	سلطان الحب	٤٥
أنا والسرحان	١٧٤	نقاش	٤٩
الزواوي	١٨١	ونقاش أيضا	٥٤
رد على رد	١٨٣	الفيض آبادي	٦١
حياة محمد	١٨٦	النقاعون في الأدب	٦٦
من وحى المرأة	١٩١	عصر المتنبي	٧٠
مع الأستاذ العقاد	١٩٩	نسب المتنبي	٨٨
أدب صالح للتصدير	٢٠٧	نسب المتنبي	٩٢
مع عميد الأدب العربي	٢١٢	أبوه وجدده	١٠٥
في الأناشيد	٢١٦	أسرته	١٠٨
لصوص الأدب	٢٢٠	الفتي العربي	١١٤
أحلام الربيع	٢٢٦		

والتي قد يقال ويراه هذا من مضاطعة القدر والتشجيع ما يليق بشعر الجبار
 لحدود أو يجوز وأخذ مكانه من دواوين العرب القديمة ويستفيد من هذه الجيد

تتمة

في الجمل الرابع، المذكورة الأولى من شعر الجباري الجديد وعبدى البواكر
 فيستعمل في حفاوة ولطف وتقدير، فليست قبل وهو أن أحلام الربيع مثل ما تستقبل
 به البواكر

رقم	وصفها	رقم	وصفها
١	بانتها في قبة	٢١	بانتها في قبة
٢	بانتها في قبة	٢٢	بانتها في قبة
٣	بانتها في قبة	٢٣	بانتها في قبة
٤	بانتها في قبة	٢٤	بانتها في قبة
٥	بانتها في قبة	٢٥	بانتها في قبة
٦	بانتها في قبة	٢٦	بانتها في قبة
٧	بانتها في قبة	٢٧	بانتها في قبة
٨	بانتها في قبة	٢٨	بانتها في قبة
٩	بانتها في قبة	٢٩	بانتها في قبة
١٠	بانتها في قبة	٣٠	بانتها في قبة
١١	بانتها في قبة	٣١	بانتها في قبة
١٢	بانتها في قبة	٣٢	بانتها في قبة
١٣	بانتها في قبة	٣٣	بانتها في قبة
١٤	بانتها في قبة	٣٤	بانتها في قبة
١٥	بانتها في قبة	٣٥	بانتها في قبة
١٦	بانتها في قبة	٣٦	بانتها في قبة
١٧	بانتها في قبة	٣٧	بانتها في قبة
١٨	بانتها في قبة	٣٨	بانتها في قبة
١٩	بانتها في قبة	٣٩	بانتها في قبة
٢٠	بانتها في قبة	٤٠	بانتها في قبة
٢١	بانتها في قبة	٤١	بانتها في قبة
٢٢	بانتها في قبة	٤٢	بانتها في قبة
٢٣	بانتها في قبة	٤٣	بانتها في قبة
٢٤	بانتها في قبة	٤٤	بانتها في قبة
٢٥	بانتها في قبة	٤٥	بانتها في قبة
٢٦	بانتها في قبة	٤٦	بانتها في قبة
٢٧	بانتها في قبة	٤٧	بانتها في قبة
٢٨	بانتها في قبة	٤٨	بانتها في قبة
٢٩	بانتها في قبة	٤٩	بانتها في قبة
٣٠	بانتها في قبة	٥٠	بانتها في قبة
٣١	بانتها في قبة	٥١	بانتها في قبة
٣٢	بانتها في قبة	٥٢	بانتها في قبة
٣٣	بانتها في قبة	٥٣	بانتها في قبة
٣٤	بانتها في قبة	٥٤	بانتها في قبة
٣٥	بانتها في قبة	٥٥	بانتها في قبة
٣٦	بانتها في قبة	٥٦	بانتها في قبة
٣٧	بانتها في قبة	٥٧	بانتها في قبة
٣٨	بانتها في قبة	٥٨	بانتها في قبة
٣٩	بانتها في قبة	٥٩	بانتها في قبة
٤٠	بانتها في قبة	٦٠	بانتها في قبة
٤١	بانتها في قبة	٦١	بانتها في قبة
٤٢	بانتها في قبة	٦٢	بانتها في قبة
٤٣	بانتها في قبة	٦٣	بانتها في قبة
٤٤	بانتها في قبة	٦٤	بانتها في قبة
٤٥	بانتها في قبة	٦٥	بانتها في قبة
٤٦	بانتها في قبة	٦٦	بانتها في قبة
٤٧	بانتها في قبة	٦٧	بانتها في قبة
٤٨	بانتها في قبة	٦٨	بانتها في قبة
٤٩	بانتها في قبة	٦٩	بانتها في قبة
٥٠	بانتها في قبة	٧٠	بانتها في قبة
٥١	بانتها في قبة	٧١	بانتها في قبة
٥٢	بانتها في قبة	٧٢	بانتها في قبة
٥٣	بانتها في قبة	٧٣	بانتها في قبة
٥٤	بانتها في قبة	٧٤	بانتها في قبة
٥٥	بانتها في قبة	٧٥	بانتها في قبة
٥٦	بانتها في قبة	٧٦	بانتها في قبة
٥٧	بانتها في قبة	٧٧	بانتها في قبة
٥٨	بانتها في قبة	٧٨	بانتها في قبة
٥٩	بانتها في قبة	٧٩	بانتها في قبة
٦٠	بانتها في قبة	٨٠	بانتها في قبة
٦١	بانتها في قبة	٨١	بانتها في قبة
٦٢	بانتها في قبة	٨٢	بانتها في قبة
٦٣	بانتها في قبة	٨٣	بانتها في قبة
٦٤	بانتها في قبة	٨٤	بانتها في قبة
٦٥	بانتها في قبة	٨٥	بانتها في قبة
٦٦	بانتها في قبة	٨٦	بانتها في قبة
٦٧	بانتها في قبة	٨٧	بانتها في قبة
٦٨	بانتها في قبة	٨٨	بانتها في قبة
٦٩	بانتها في قبة	٨٩	بانتها في قبة
٧٠	بانتها في قبة	٩٠	بانتها في قبة
٧١	بانتها في قبة	٩١	بانتها في قبة
٧٢	بانتها في قبة	٩٢	بانتها في قبة
٧٣	بانتها في قبة	٩٣	بانتها في قبة
٧٤	بانتها في قبة	٩٤	بانتها في قبة
٧٥	بانتها في قبة	٩٥	بانتها في قبة
٧٦	بانتها في قبة	٩٦	بانتها في قبة
٧٧	بانتها في قبة	٩٧	بانتها في قبة
٧٨	بانتها في قبة	٩٨	بانتها في قبة
٧٩	بانتها في قبة	٩٩	بانتها في قبة
٨٠	بانتها في قبة	١٠٠	بانتها في قبة

في الكتاب أغلاط مطبعية نشير إلى أهمها ونرجو القارئ أن يصححها
ويصحح ما تركناه إلى فطنته وهي :

س	ص	الخطأ	الصواب
١٢	١٤	خير	شر
٢١	١٢٣	تجد	يجد
١	١٢٤	أن	وأن
١٧	١٢٥	ولأحياء	والأحياء
٨	١٢٧	كرنا	كرهنا
٧	١٢٨	غرائز	من غرائز
١٢	١٣٨	لمت	نلت
٢٠	١٣٨	وإن	أن
٩	١٣٩	بمذرق	بمذق
٦	١٤١	السبغة	السغبية
١١	١٤٢	تفتنها	تفتنه
١٢	١٤٤	وحمة	ورحمة

ايجو نأ من لقا ايجو ايه نأ من قيعله لى كذا ب لقا
 رة متله نأ لقا له رة

ب ايه	لقا	ر	ر
ر	ر	31	21
ر	ر	771	12
نأ	نأ	321	1
ليه لقا	ليه لقا	571	71
لوق	لوق	771	8
عالة رة	عالة رة	871	7
عالة	عالة	871	71
نأ	نأ	871	72
رقة	رقة	871	9
قنسا	قنسا	131	2
قنقا	قنقا	231	11
قنقا	قنقا	331	71

للمؤلف

١ - كتابي

صدر صيف ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٦ م

« مجموعة مقالات في الاجتماع والسياسة لأديب نابي من أدباء الحجاز تقدم نموذجاً حسناً لهذه النهضة الفكرية التي قامت حديثاً في الحجاز » (مجلة الهلال)

« الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في طليعة الأدباء الشباب، فهو في الحقيقة شعلة من الذكاء والجرأة، والقارئ لهذا الكتاب سيدهش كيف لهذا الشاب بهذه الأفكار التي تبلغ حد النضج وهو لم يعد في ثقافته مدارس الحجاز »

(المجلة الجديدة)

٢ - محمد بن عبد الوهاب

صدر صيف ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م

« قرأته فأعجبني منه أسلوبه الرشيق الممتاز الذي تناول به حياة هذا الزعيم الديني المصلح الجليل فأظهره إظهاراً حسناً »

(بندر ابن الملك آل سعود)

« الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار من أدباء الجزيرة المبرزين ومن شعرائها الذين يضعون أسس النهضة للشعر هناك ، فأسلوبه قائم على دعائم من قوة الفكر وحلاوة التعبير ودقة التصوير ، زاخر بالأخيلة والمعاني المستحدثة . وقد أراد أن يخدم وطنه من الناحية التاريخية فأخرج للعالم العربي دراسة عن مؤسس الدعوة الوهابية المصلح الكبير ، وهذه الدراسة النفيسة التي كتبها مؤلفها في دقة العالم المتمكن وفي أسلوب الفنان المقتدر جديرة بأن تقرأ في كل قطر عربي لأن فيه كشفاً عن حقيقة ذلك الإصلاح »

(المقتطف)

أصدر صديقنا العزيز الأستاذ الفاضل أحمد عبد الغفور عطار الأديب المعروف كتابه الجديد عن هذا الزعيم العربي المصلح فسد في كتب التراجم فراغا ملبوسا «
(دريني خشبة)

« الأستاذ عطار حجازي ينظم الشعر ويدمج النثر وقد تحدثت إليه فأعجب بآرائه الحرة ونظراته الفسيحة الممدى ، ولا ريب أن كتابه شيق ممتع ، يمتاز بالطلاوة وحسن العرض ، ويخرج منه القارىء بفائدة مذكورة » (الدكتور سيد نوفل)

« ومع أن المؤلف حدد لنفسه نهجا خاصا في البحث فقد استطاع أن يفرغ على كتابه لو نا أدبيا يكفل للقارىء — إلى جانب فائدة البحث العلى — متاعا أدبيا موفورا »

(الإذاعة المصرية)

(عبد الله بن عبد الله)

٣ - المخرج والشرائع

عن المدن الزراعية في الحجاز

صدر صيف ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

٤ - الهوى والشباب

ديوان شعر

صدر صيف ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

سبدي :

فرغتُ لديوانك ساعة من نهار، فلك الشكر على هذه المتعة الخالصة الممتازة ، فقد وجدت في شعرك من رصانة اللفظ ، وعمق المعنى ، وعذوبة الموسيقى ، وحسن الانسجام ، وحرارة العاصفة ، وصدق الشعور ، ما أذكرني عهوداً لم أنساها ولن أنساها ، بل لم أفارقها ولن أفارقها لأنها قوام الحياة الأدبية لكل أديب عربي ، وهي عهود الشعر الحجازي حين كان غض الشباب خصباً من جميع نواحيه .
وأني لسعيد حين أرى في ديوانك بشائر صادقة نهضة شعرية رائعة في الحجاز ، فشعر العاطفة حجازي النشأة ، حجازي النمو ، وما أظنه فارق الحجاز إلا ليعود إليه ! وما أظن الشباب الحجازيين إلا ناهضين بهذه المهنة على أحسن وجه وأكمله ، وقد كان الشعر الحجازي إبان نهضته الأولى سمحاً يجمع بين الجزالة العربية وهذه الحرية التي تصل الأسباب بينه وبين حضارات الأمم المختلفة ، وإني لأرى في شعرك هذه الجزالة وهذه السباحة وهذه الحرية ، فأنت حجازي اللفظ ، ولكن قلبك

وعقلك يستقبلان كل جديد مهما يكن مصدره ، وكذلك يكون الأديب الذي هياه
الله ليبعث في الفن حياة وقوة .

فلك مني تحية المهني لك ، الواثق بك ، الذي يتمنى لك ما أنت أهل له من
التفوق والنبوغ ؟

(طه حسين)

« في شعر الأستاذ « عطار » جزالة تمازج الرقة الخ ... »

(سيد قطب)

« هذا ديوان الشاعر الحجازي المطبوع « أحمد عبد الغفور العطار » ترجم فيه
عواطف الصبا ومشاعره الدافقة ، وقد أنطقه الحب بكل ما في هذا الديوان إلا
قصائد ثلاثا أوحى إليه بها الحرب الأخيرة .

« ويعد هذا الديوان بعثا للشعر الحجازي الجديد »

(الأهرام)

« الأستاذ عطار شاعر حسن الديباجة رقيق الأسلوب ينأى عن الغريب ،
وهو شاعر حر الفكر ينشد الحرية إلى أبعد مدى ويتغنى في كل ناحية من نواحي
الحياة وفي كل مسلك من مسالك العيش »

« وفي قصيدته « ميلاد شاعر » يصور رسالة الشاعر في الحياة تصويراً يدل على
فقه ومعرفة ، وهذه القصيدة مطولة تزيد عن مائة بيت ، وتنطق بشاعريته الأستاذ
عطار وفتنته البالغة بالبيان »

« وإن الأستاذ عطار قد أحسن في أسلوبه وأبدع في تصويره . وقدم للعاطفة
والعقل والمعاني السامية زادا مغنيا »

(الدكتور سيد نوفل)

٥ - سعود

صدر في في ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

كتاب يبحث في سيرة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية وشجاعته وولايته للعهد ورحلاته وحياته .

٦ - المقالات

دراسات في الأدب والعلم والتاريخ والنقد

صدر في في ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

٧ - المنصور

سيصدر قريباً

كتاب يبحث في شخصية حضرة صاحب السمو الملكي الأمير منصور ابن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ووزير دفاع المملكة العربية السعودية وبحث في ثقافته وشخصيته وعمق ريته ورحلاته وبطولته وتواضعه .

٨ - صقراجزيرة

ثلاثة أجزاء

سيصدر قريباً .

« يعد هذا الكتاب سجل تاريخ شامل جامع يغني عن المؤلفات التي وضعت في

موضوعه ، ويعد مصدراً معتمداً في هذا الشأن لن يغني عنه سواه »

مدير معارف المملكة السعودية

(محمد بن مانع)

C. 319531
m. 319524

6-12313762
1-13628756

-٢٣٨-

« هذا كتاب دوّن فيه الأستاذ الكبير أحمد عبدالغفور عطار سيرة صقر الجزيرة
جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية ، وقد اطلعت على
أصوله ، فتلوت فيها عن أعمال « نابليون العرب » طرفا جلّت تفاصيله أمامي صورة
هذا العاهل الذي تشرفت ببلقائه غير مرة بالحجاز ومصر بعد أن سمعت عنه من
رجال الصحافة الأوربية والأمريكية وقدرت للأستاذ عطار هذا المجهود الصالح
العظيم الذي بذله فيما يقف الناس على تاريخ الجزيرة العربية في حقبة تاريخية من أدق
الحقب في حياة الشعب العربي وفي حياة الشعوب العربية جميعا .
« وأسلوب الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار أسلوب يجمع إلى السهولة الصفاء .
« وهذا الأسلوب الممتلئ بالحياة يدفعك لتمضي في مطالعة الكتاب فلا تقف
حتى تبلغ آخره . »

(هيكل باشا)

٩ - أريد أن أرى

سيصدر قريبا

قصص بعضها مترجم وأكثرها موضوع ولكل قصة لوحة فنية ترمز إليها وقد
رسمت لها خاصة بريشة فنان إيطالي كبير، وسيطبع على ورق صقيل طبعا ممتازا.

١٠ - الزنايق المحرّرة

سيصدر قريبا

قصة كبيرة لطاغور شاعر الهند وفيلسوفها الأكبر ، وهي قصة الخير والشر ،
قصة الفطرة في صراع مع المادية ، ونضال الحرية والعبودية وانتصار المثل الرفيعة
والمبادئ الفاضلة والرحمة والطهر والبراءة على الجشع والطمع والقسوة والريزية
مترجمة بقلم المؤلف ترجمة دقيقة في أسلوب رشيق خلاب .



main



0 0 0 0 0 3 1 9 5 3 1

PJ 7503 A88x 1947

22 MAR 1995

'Attaar, Ahmad 'Abd al-Gh
Maqaalaat al-

PJ 7503 A88x 1947

شیرکۂ استاذ و للطباعۂ

PJ
7503
A88
1947